المـــدار

قصص وروايات عربية

٥٢

غسان كامل ونوس

المدار

رواية

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٤

المدار: رواية / غسان كامل ونوس. - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٤. - ٣٤١ ص؛ ٢٠ سم. - (القصص وروايات عربية؛ ٥٢).

١- ٨١٣.٠٣ و ن و م ٢- ٨١٣.٠٠٩٥٦٩١ و ن و م
٣- العنوان ٤- ونوس ٥- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ٧٨٢ / ٧ / ١٩٩٤
ع.١٠.

الإهداء

إلى روح أبي

وأمي ....

القسم الأول

الفصـــل الأول

- ١ -

القبّة مفضضة، يتزايد ابيضاض سفحها الشرقي كجوف تنّور يتشهّى استقبال الرغيف الشاحب، والجبال الشرقية تتململ تحت غلالة بيضاء شفافة، تحاول جاهدة التخلص من سلطان النعاس المستحكم. الطريق الإسفلتية تتمطى تحت وقع خطى المبكرين إلى المدينة، والهرة البيضاء والسوداء تتمطى أيضاً، فقد أفاقت حين فتحتُ الباب الخشبي ذا الدرفتين غير المنسجمتين اللتين صنعهما نجار في لحظة سيلان شعوري.

البندقية كذلك تتمطى في يدي، فقد أخرجتُها من سباتها الطويل الذي امتد شهوراً، يبدو ذلك من طبقة الغبار السميك الذي اسودّ بفعل الرطوبة التي استطاعت أن تنفذ إلى عمق الحديد الصلب. ها هي تبدو أكثر رضى وإشراقاً بعد أن تبخر مفعول إيقاظي الأرِق، وانتهت قطعة قماشية بائسة للتوّ من التمسح بأجزائها المختلفة لكنها لازالت تبدو مستغربةً سببَ هذا التذكر المفاجئ، والاهتمام العجيب، ومنتظرةً بحيرة مهمتَها الجديدة.

ولكنْ هل هي أكثر استغراباً مني؟! لماذا أخرجتها؟! ماذا سأفعل بالبندقية الآن؟! أنا لا أحب الصيد ولا الصيادين، وهم في نظري ليسوا أكثر من فارغي أشغال أو عاطلين عن العمل... أو

إنهم أناس قلقون يحاولون اصطياد توازنٍ ما باصطياد ماليس بقيمة! ألست أنا من هؤلاء...؟!

حتى صباح امس لم أكن كذلك.. أو ربما لم يَبدُ أني كنت من هؤلاء. كان لديّ عمل مجهد، بل كان العمل يأخذ كل وقتي، ولايترك لي أية فرصة للراحة أو النزهة أو الواجبات الاجتماعية المتراكمة او لمجرد التفكير فيما يخصني! حتى حين تذكّرني والدتي من جديد أضحكُ وأقول: لازال الوقت باكراً..

وتعيد القول: انظر إلى أصحابك ومُجايليك، كلهم عمّروا بيوتاً وتزوجوا وصار أولادهم بالمدارس فماذا تنتظر...؟! غداً أموت ياولدي، من سيدير باله عليك بعدي...؟من سيغسل ثيابك ويجهز لقمة طعامك.. لماذا لاتفكر بابنة الحلال..؟! اقول ضاحكاً: موتي أنت ولاعليك..! وتتابع: إن أغلى أمانيّ أن أفرح بك قبل أن أموت.. ووالدك يتمنى هذا ايضاً! يقول لي دائماً: أنا لا أفكر إلا بحسان، ولا هم لديّ سواه! كل أصحابه تزوجوا واستقروا، أما هو فلا زال وحيداً.

أنا ياولدي أتمنى أن أحمل أولادك. لأرى إن كان صحيحاً أنهم أغلى منك..! وهل ستسعني الدنيا معهم؟!

ويقول أبي بعد تردد، وبصوت أكثر ثقة وخبرة ووقاراً:

- الا يخلّصُ الشغل ياحسان؟! إذا بقيتَ على هذه الحال، تذهب من الفجر وتعود في المساء مرهقاً! تأكل وتنام إلى صباح اليوم التالي، أو تذهب في زيارة قصيرة، أو يزورك قليل من أصدقائك، فالعمر سيمضي دون أن تدري...

SCANNED BY
JAMAL HAYMAL

يطلق زفرة طويلة وأناة مكتومة: هل تحسب أن الزمن ينتظرك؟! لا ياولدي؛ الزمن لاينتظر أحداً ومن تفوت أيامه لاترجع إليه أبداً... أبداً.

شددتُ البندقية على كتفي بعصبية مبْهَمَةِ الأسباب، ووضعت بضع طلقات في جيبي بنطالي؛ هذه الطلقات وجدتها على سطح الخزانة الخشبية التي تقف بصعوبة بادية جوارَ الباب الداخلي الذي يمكن أن يسمى باباً تجاوزاً، لأن الجزء الفارغ منه أكبر بكثير من الجزء الساتر، لكنه يؤدي إلى مايسمى بالمطبخ، والذي يصح أن ندعوه مستودعاً لمختلف أنواع الأدوات المنزلية والزراعية والتموينية؛ ولم تكن حال الطلقات بأحسن من حال البندقية فهي مغطاة بالغبار والدخان وخيوط العناكب، إضافة إلى قطع ثياب عتيقة وجرائد وأوراق ممزقة بلا اهتمام على سطح الخزانة..

توقفت قليلاً، نظرت إلى المكان الذي ينتظر الرغيف الساخن بلهفة تحمرُّ رويداً. ونقلت بصري صوب الجبال الغربية التي ستكون غايتي – كما أخمّنُ – بعد قليل، فما أعلمُهُ أن بي رغبة ملحة للخروج من البيت، بل من القرية كلها، والابتعاد عن الناس، كل الناس. وليس هناك مكان أقدر على تأمين هذا الأمر من تلك الجبال التي تبدو أكثر إشراقاً بعد أن استقبلت حفنات الضوء الأولى، حتى قبل أن تصلها الإشعاعات النارية؛ وجوه رمادية تتوزعها نقاط سوداء أو داكنة كأنها حَبُّ الشباب؛ تتطاول الوجوه امتداداً فوق نتوء صخرية مستمرة. ويعلو كُلَّ هذا الذي تُهشّمُه

انثناءات خفيفة لكنها واضحة، كوفية خضراء من أشجار الصنوبر الباسقة التي لازالت خضرتها قاتمة؛ ترتفع الكوفية غير المربوطة بانتظام في مكان ليبدو الوجه واسعاً والنمش أكثر، وتنسدل إلى مستوى الذقن في أماكن أخرى، بينما تستمر تحت المبأن الصخري بخضرة مختلفة لأشجار السنديان والبلوط وغيرها.

البندقية تنتقل من يد إلى أخرى ومن وضع إلى آخر بحركات سريعة متوترة، بينما قدماي تقطعان الطريق بسرعة قبل أن تصل أصوات قادمة من عمق القرية، تضع أسباباً وجيهة حيناً وغير مبررة أحياناً لتأخر (الباص) الذي اعتادوا على أن ينقلهم إلى المشتل الزراعي البعيد، مع مايحمله هذا من شتائم وصياح وتهدئة.

أرض وعرة وحجارة مختلفة الأحجام وسيقان قمح مقطوعة منذ وقت قصير، كلها تصطدم بقدمي وساقيّ بقسوة، لكني لا أعبأ بها كثيراً وإنما أتجاوز شجيرات السنديان والسلاسل الحجرية التي تقسم الأرض المنحدرة وزيتونها وتحافظ على التربة من الانجراف. تُزقزق عصافير فرحة أو خائفة بأصوات عالية من على الأشجار التي أمر قربها دون أن تنال مني أيّ اهتمام، فعيناي صوب الجبال، وأفكار غائمة تتصارع في مخليتي، لاأعرف كيف أميزها أو بأيها أبدأ.

في مثل هذا الوقت وعلى مدى سنوات، كنت أغادر القرية باتجاه المدينة يومياً أيام الدوام الفعلي ومعظم أيام العُطل أيضاً، فالمشاريع لاتحتمل تأخيراً ويجب أن تنتهي في مواعيدها،

وبعضها تأخر كثيراً، وهذا يكلف الشركة مسؤوليات وغرامات لاتحتملها.

كنتُ أحمل معي مفكرة تحوي تسجيلاً للأعمال التي سيتم تنفيذها كل يوم، والمواد التي ستحضرُ والدوائر الرسمية التي ستتم مراجعتها، ومخططات وعقوداً ووثائق هامة.

والآن...! أغادر القرية أيضاً، ولكن الى أين؟! وماذا أحمل معي؟! بندقية...؟!

نعم بندقية...! ليس لدي الآن جدول أعمال. لكن مامعي يوحي بأني سأطلق النار...! بندقية وذخائر... هل يعني هذا غير ذلك؟!

لكني لا أعرف بالتحديد على ماذا سأطلق النار!

فهذا حزيران قد بدأ وليس معه طيور مهمة تؤكل!

ومن قال أني أصطاد طيوراً فقط؟! طيوراً تؤكل!؟ ألا أجد أرنباً أو ثعلباً أو حدأة أو ربما حمامة أو كلباً أو غنمة تائهة؟!

بالتأكيد لن أجد أسداً أو نمراً أو خنزيراً! وإن كنت أتمنى ذلك، رغم أن النتيجة غير مضمونة؛ ومن قال أيضاً أن النتيجة تهمني؟! المهم أن أطلق النار، أو أن أقوم بطقوس تؤدي في النهاية، أو من المتوقع أن تؤدي، إلى إطلاق النار..!

* * *

أسير خفيفاً، أتجاوز الوادي الذي يفصل القرية عن الجبل، وأبدأ بتسلق السفح المنحدر بشدة، أتمسك بكل ماتصل إليه يدي: جذوع أشجار شابة وهرمة، أغصان شجيرات فتية، حجارة ناتئة، وأستند على البندقية أحياناً.

يخفف الصعود الشاق من تسارعي. أصل السيَّار: صخور هائلة نافرة طالما دُهِشْتُ من اتصالها الوثيق بالجبل، رغم أن كثيراً منها أفلتَ إلى الوادي، في شتاءات قاسية مرت.

أتسلق الصخور باهتمام، تتزحلق قدماي مرات، لكن الخوف من السقوط المميت جعلني أتعلق بشكل جيد. عجبت أحياناً كيف تهيأ لي ذلك..! وأكرر المحاولة حتى أنجح أخيراً بالوصول إلى سطح الصخور العملاقة.

أستدير، أنظر صوب بيتنا الذي يضيع بين الأشجار، وتنطلق آهة طويلة.

الرغيف كان قد ظهر على حافة الأفق، أمسح بكفي عرقاً تكاثف على جبهتي، أتنهد بعمق وعيناي تستطلعان الطريق الاسفلتية التي تمتد من قريتنا إلى القرية المجاورة فتخترقها، والتي كنت أعبرها يومياً وفي وقت قريب من هذا الوقت. تركت الطريق مقطوعة بين البيوت، وأدرتُ وجهي، وخطوت صوب الغابة التي ستبدأ عما قليل.

تستطيع قدماي أن تعبُرا بي هذه الأراضي دون حوادث تذكر، فقد خبرتها منذ زمن طويل وخبرت طرقاتها التي تتعرج وتلتف وتغيب، لكن معالمها لاتختفي.

صحيح أن سنوات مرت لم أجد متسعاً للنزهة والتجول فيها إلا قليلاً جداً... لكن سنوات أخرى كثيرة قبلها كان لقائي بهذه السفوح لاينقطع، أحمل الكتب المدرسية وكتباً أخرى غيرها، أو أمضي في نزهات مع زائرين من المدينة: أقرباء وأصحاب لايخفون إعجابهم وانتعاشهم لهذه المناظر الجميلة مما يجعلني أشعر بالنشوة والاعتزاز.

أستطيع، لو كنتُ في وضع أهدأ، أن أتذكر في كل مكان شيئاً قديماً يرتبط به. وقد حدث قبلاً أن ارتبطت دروس وفقرات قرأتها بالمكان الذي حفظتها فيه. وحَدَثَ أيضاً أن كان المكان سبباً في تذكرها وكتابتها في الامتحانات الكثيرة التي مرت..!

كما يمكنني أن أحدد، بلا تعب، الأمكنة التي شهدت تجارب المراهقة الأولى والاكتشافات الكثيرة التي تحتاج إلى سواتر تؤمنها هذه الغابة الباسقة من الصنوبر، وهذا البساط الممتد من الشيح والآس والجرّبان. لكن كل هذا لم يمنع من بعض المباغتات التي كانت تؤدي، في حال انتشارها، إلى عواقب غير محمودة. وكانت إحداها سببا في تركي التدخين حتى هذا الوقت حين وصل الخبر إلى والدي.

* * *

- ٢ -

أين أنا الآن..؟!. هل هذا معقول؟! كيف وصلتُ إلى هنا؟! وكيف قطعت السفوح دون أن أشعر؟! تحسستُ يديّ المهشمتين،

ونفضت عن ثيابي الأشواك وبقايا الأغصان والنباتات والأوراق اليابسة.

ما الذي قادني إلى هنا؟! ولِمَ هذا المكان بالذات؟! لابد أن لهذا سبباً لا أذكره الآن، أحس بوادرَ راحةٍ وطمأنينة، يخيل إليّ أن فوزاً ما تحقق هنا، أو أنه سيتحقق، وأن مروره في الذاكرة ترك ظلال نشوة وانشراح.

نظرت حولي: أشجار صنوبر عالية وفسحة صغيرة جوارها معبدة بالشقافة: ها هي قمة ضهر الصنوبر.. هنا حدث أمر كان له وقع جميل في نفسي لساعات بل لأيام، حادث بسيط لكن انعكاساته ليست كذلك:

كنت آمر ذات أصيل ربيعي وبيدي هذه البندقية ذاتها، وفي جيبي بضع طلقات أيضاً. كانت رحلة استجمام بعد قليل من إيابي من العمل، فرحاً بأن النهار أخذ قسطاً من الليل مكنني من أن أرى الشمس من القرية قبل أن تغيب.

لم أكن أعلم أن طيور (الحوم) قد بدأت سيرها السنوي من الغرب إلى الشرق، قاطعة البحر بجلَدٍ عجيب، ومقتربة من الجبال لتستريح استراحة المحارب أو المسافر أبداً. كنت أقف هنا في هذا الموقع تماماً، أنظر صوب البحر الذي يستعد لابتلاع فانوس النهار التعب، وقد ضجت الأضواء المنعكسة من على وجهه، حين ظهر طائر وحيد على شكل صليب بدأ يقترب ماداً عنقاً طويلاً يحركه في اتجاهين، وجناحين ينبسطان بلا حراك مُدّةً، ثم يخفقان قليلاً كمجدافين.

يُسْتَقْبَلُ موسمُ (الحوم) بانشغال واهتمام كبيرين في قرى المنطقة.

وعلى الرغم من أنهم مختلفون إلى الآن حول شرعية أكله، وقبول الطعم الحامض للحمه، فإنهم جميعاً مقتنعون بجدوى اصطياده، لا لشيء، إلا لتحقيق فوز، وإن كان مؤقتاً لكنه يختلف عن اصطياد سُمّان أو شحرور أو درغل، لكبره وعلوه ومناسبات تواجده القليلة.

وحيداً كنت في قمة شهر الصنوبر. نظرت حولي: لماذا لا أجرب حظي؟! لكن ليس سوى طائر وحيد، في العادة يكون الرف مؤلفاً من مئات بل من آلاف، وقد تكون الرفوف عديدة ومتلاصقة، وفرص التعويض ممكنة أكثر... مع هذا لأجرب.. لا أحد يراني إن أخفقت، هل أنتظره إلى أن يحط على إحدى الأشجار.. كانت تبيت هنا... إذا أدركها الليل؟! وما أسهل صيدها حينئذ. مع ذلك فقد رفع كثير من أشباه الصيادين مناخيرهم وتحدثوا عن صيدهم بغرور.. لكن هذا الطائر عال ولايوحي منظره بأنه ينوي المبيت... صحيح أن الصيد لايهمني كثيراً ولا قليلاً. ولكن لأجرب حظي..!

لحظات نشوة عارمة تلك التي استغرقتها سقوط الطائر الوحيد المبكر حتى لحظة اصطدامه بالأرض.. ووقوفه المتعثر وأحد جناحيه مهشم ومرخي إلى الأرض... وعلائم حسد وغيرة قرأتها في عيون الناس الذين مررت بهم حاملاً صيدي حياً، امتدت

أياماً، تحدث بها الجوار وكانت إشارة بدء موسم اللقالق. ومنذ اليوم التالي غير الكثيرون جداول أعمالهم التي تحوي بنوداً كثيرة، وبدؤوا بالانتشار في السفوح والقمم المتجاورة، لكن البساط سحب من تحت أقدامهم في تلك السنة.

أما أنا فقد شعرت بكآبة لم أعرف سببها، بعد انتهاء لحظات الفوز، وبعد أن أعطيتُ صيدي لعابر ضحكتْ عيناه له، وانفرجت أساريره وهو ينظر إليه بنهم وشبق.

* * *

- ٣ -

غريب أمر هذه الشجرة، إنها تختلف عن كل أشجار الصنوبر التي تغطي السفوح الغربية لظهر الصنوبر، وسفوح الجبال الأخرى المجاورة. ربما كان للرعاة والصيادين وجموع المستريحين في ظلها دور في تنظيف ساقها لمسافة تزيد على المترين، كما يمكن أن يكون لهم دور في إبقائها حية رغم قطع كثيرات غيرها في هذه القمة العليقة.

لكن أموراً أخرى لا علاقة لهم أو لأحد آخر بها مدعاة للتفكير. فامتداد فروعها أفقياً، وكثافة أغصانها واستدارتها المنتظمة، كلها أشياء تدعو للحيرة والدهشة.

إنها على شكل أرزة أو مظلة: ساق قائمة عارية، ثم قاعدة من

الأغصان التي تدور في الاتجاهات كلها وتتقاصر كلما ارتفعت نحو الأعلى حتى تصل إلى ذروة الشجرة.

إنها على شكل مخروط تماماً! وكثافتها وتداخل فروعها وتشعب أغصانها تجعل اختراق أشعة الشمس لها صعباً جداً، مما يمكنها من أن تشكل ظلاً غير موجود تحت أية شجرة أخرى.

وانتصابها في أعلى نقطة من الجبل الذي لايضاهيه جبل آخر في المنطقة كلها، يجعل منها منارة تُرى من كل الأماكن، كما يصبح الجلوس في ظلها غاية تُرتجى، ويجعل منها هدفاً لكل راغب في السمو والمتعة والراحة والرضى والوحدة، ولكل هارب من الضجيج و الملل والرتابة والمنغصات والأفكار القاتمة والاحتضار البطيء.

شجرة لاتتركها الشمس لحظة واحدة مذ تنفلت من قبضة الجبال الشرقية إلى أن تغرق في المياه ذات الزرقة الخافتة. لايتركها الهواء تهنأ بإغفاءة ولو للحظة واحدة؛ تصافحها نسمة تداعب أغصانها وإبرها الكثيفة المخضرة، تتغلغل بينها، ثم تخرج بصعوبة من الجهة الثانية لتتركها لعابرة أخرى.

ها أناذا قد وصلت إليها لاهثاً مسربلاً بقطرات متسارعة من العرق الغزير، الضريبة التي لابد من دفعها ممن يريد الوصول.

أقف جوارها، أسند البندقية / العصا على جذعها، وصوت لهاثي يتواصل سريعاً. أفتح ذراعي وأشرع صدري تاركاً قطرات العرق تُطَهِّرُ بملوحتها جسدي من كل ماقد علق به من سنين،

وأحس سيلانها دبيباً يداعب جلدي فأضحك، ويخترقني الهواء كما يخترق الشجرة فأشهق، أترك جسدي معلقاً بين الأرض والسماء، يداي متصالبتان مع قامتي التي استقامت. ولولا ضحكي الخارج من الأعماق، ضحكي الذي كنت أنساه، لكنتُ تصورت نفسي صليباً فوق معبد مقدس!

بعد أن تنتهي طقوس الدخول إلى المعبد ويتحول جسدي إلى هيكل متقب يعْبُرُهُ الهواء بسهولة، ويداي تسبلان جواره، أمشي قليلاً، أدور حول الشجرة: البحر أقصى المرئيات الغربية وبيني وبينه الجبال البعيدة والقريبة والوديان الغامضة والرؤى المبهمة. وإلى الشمال جبال تتدرج مبتعدة ووديان وقرى وقمم ومزارات بيضاء. وإلى الشرق تضاريس وقرى كثيرة متراكمة ومتناثرة، ومدينة عارية تتسلق السماء قليلاً ثم تتوقف منهكة وتمد إليها برجها الشهير. وفي الجنوب مفتوح وغابات وقرى قريبة وطرقات تختفي ثم تظهر بعد حين لتختفي من جديد.

شجرة منفردة في أعلى قمة سلخ جلدها وتغير لونها على مساحة الذروة كلها: مناجل وفؤوس ونيران سلخت السفح الشرقي كله وجزءاً كبيراً من أسفل السفحين الجنوبي والشمالي. ووُزعت أشجار زيتون منتظمة التباعد. أمّا السفح الغربي فقد استجار بالغابات القريبة فأجارته، وهو يعيد الآن تشكيل بعض المناطق التي احترقت.

مشاعر غريبة وأحاسيس مجهولة تستولي علي حين أكون هنا.

أفكار ورغبات وأغنيات وانطلاقات واندفاعات تشدني إلى فوق.

هنا لايمكن أن أكون عادياً، لايمكن أن أظل حصان، بل أصبح إنساناً آخر، آخر تماماً يعرف التحليق وقادر على الطيران لكنه يُحجِمْ لسبب يجهله.

هنا أشعر برعب حقيقي، خوف من مجهول، انتظار مضن لشيء قد يأتي وقد لايأتي، ومابينهما الترقب والقلق واللذة.

هنا تستحيل اللحظات أمداء فسيحة تجاب، وأمداءٌ أخرى محتملة، وهنا تتحرر الأمنيات من قيودها، وتأخذ الرغبات شكلاً جديداً وتتدحرج الدمامل فوق السفوح، وتُنزع الكابس عن قبة الرأس، هنا يتدفق زمن جديد ويدق القلب بإيقاع آخر، وأتنفس بطريقة مغايرة، وأمشي بلا قدمي، وأتحدث بلغات غير معروفة، وأغني ألحاناً أسطورية، وأرى مخلوقات لاترى بالعين المجردة أو العين المكبرة.

وعلى مقربة مني تقع مكامنُ الدرغل، وطرق القراءة، وأماكنُ مستورة لازمة لأمور كثيرة ومتعٍ عارمة، تتوزع بين خشوع وتعبد، أو كفر ومحرمات.

أعب هواء كثيراً، هواء نقياً لا أريد إخراجه، يتضخم صدري وينفتح، أرفع يدي ورأسي، أخفض يدي وأعيد رفعهما ثم خفضهما. يتسارع هذا الفعل بما يذكر بتمهيد للإقلاع، والاستعداد للتحليق كتلك الحدأة التي تجوب الزرقة بعيداً. لكن أنى لي الطيران..!

لأختصر الأمر إذن.. ليكن الرقص! الرقص في هذا العلو، وفوق هذه القمة، اتصال بأشياء مستحيلة، وابتعاد عن أشياء مقيتة، ابتعاد عن اللوثة واقتراب من الطهر.

لأرقص: يداي ترفرفان، أرفع قدمي لأرفع الأخرى.. مالي؟!

حتى الرقص لا أستطيعه! فقدتُ القدرة على التوازن وكدت أقع.

الانسجام بين الأطراف مفقود: كل عضو يرقص بمفرده! ياإلهي!

هل وصل التشتت إلى أعضاء الجسم؟! بعد أن استولى على مكونات التفكير.

أعجز عن الطيران؟! ثم أعجز عن الرقص؟! ومن يدري قد أعجز عن المشي أو الحركة أو التفكير! أو الحياة...!!!

أنكس رأسي، أعود مهزوماً مقهقراً، أنسى فوزي بإيصال الصخرة إلى قمة الجبل. أدخل تحت خيمة الشجرة، أمسك بساقها وأترك جسدي يهوي، فأتكوم على جذعها. أتحسس أطرافي وأجوس مفاصلي التي أحسب أن السائل قد انسرب منها، فغدا تحريكها مجلبة للألم... إذن فلأتركها مكانها!

أمد كوعي، أتكيء على الجذع، وأسند رأسي على الساق. وتبدأ محاولة عنيدة في نبش الذاكرة وعرضها تحت أشعة الشمس التي تقسو رويداً..!

* * *

الفصــل الثاني

- ١ -

فرجة كبيرة في سور شاهق ، السور جدار عال من البلوك الذي طُين الاسم الواطئ منه فقط أما الاسم العالي فما زالت حجارة البلوك واضحة بكل تشكيلاتها وحروفها وتقاطعاتها. وعلى طرفي المدخل الذي يتسع لسيارتين على أقل تقدير، انتصب عمودان حديديان على شكل اسطوانتين علقت في أحدهما عارضة أنبوبية طويلة في طرفها برميل مملوء بالبيتون، يشكل ثقلاً يجعل العارضة ترتفع إلى الأعلى في حال تحريرها من العمود الآخر الذي ينتهي - وعلى ارتفاع متر فقط - بحلقة مفتوحة باتجاه الأرض. أعلى المدخل تمتد صفيحة حديدية ضخمة مكتوب عليها بخط عريض «الشركة العامة للمشاريع الهندسية» وبخط خفيف يعلوه، اسم الوزارة التي تتبع لها الشركة، لكن ألوان الكلمات خافتة وحروفها متآكلة.

وعلى الحافة اليسرى للمدخل وفي جهة العارضة ذات الحلقة، يقف بخجل محرس خشبي قميء الشكل مائل إلى أحد الجانبين وفيه يقف حارس وأمامه حارس آخر.

هذا هو مدخل الشركة الرئيسي، كما بدا لي منذ أن تركت الطريق العام وخطوت في الطريق الفرعية الخاصة – كما يظهر – بالشركة، حيث أخذت التفاصيل تتوضح شيئاً فشيئاً كلما اقتربتُ من الفرجة الكبيرة والرجلين الواقفين باحترام.

المشهد بمجمله باهت وشاحب وكئيب، هذا ماتراءى لي، يزيده الغبار الذي يملأ الفضاء ويحجب الرؤية حين مرور سيارة قادمة إلى الفرع أو خارجة منه..

شعور بالكآبة أو بالإحباط بدأ يحل محل الإحساس بالفوز والانطلاق الذي كان يغمرني مذ علمت بتعييني هنا! فأنا على الأقل في محافظتي ويمكن أن أنام في قريتي وبيتي وهذا وحده مدعاة للفخر والفرح والانتشاء.

– السلام عليكم: حسان يوسف مهندس معين هنا!

– أهلا وسهلاً يا أستاذ... تشرفنا! تفضل!

رد الرجلان بالكلمات الأولى، أما الكلمتان الأخيرتان فقد أضافهما أحدهما وقد بدا أكثر لباقة وربما أكثر تودداً من الآخر الذي اكتفى بمتابعة تفحص قامتي النحيلة! هذا الذي بدأه منذ ظهوري على الطريق الفرعية، وربما صارت ملامح وجهي عرضة لهذا التفرس الفظ.

– أين مكتب مدير الفرع من فضلكما؟

– هناك بين تلك البراكات تفضل يا أستاذ! لقد سبقك ثلاثة من زملائك وأشار إلى كتلة من الصناديق الخشبية الكبيرة.

نظرت صوبها ومشيت؛ كانت تتوضع بصفوف منتظمة متعامدة، تترك مسافات بين واجهاتها . بينما تتجاور جوانبها بفواصل قليلة، وتشكل بمجموعها صندوقاً مفتوحاً من نصف جانب، وسقوفاً أخرى توازي ضلعيه الجانبيين.

المسافة بين المدخل والبراكات، والتي تمتد قرابة خمسين متراً، خالية من أي شيء؛ على اليمين كازية تتناوب الوقوف عندها السيارات المتنوعة. وعلى اليسار تتوزع براكات خشبية أخرى وأبنية اسمنتية مسقوفة بالصاج والحديد تجاور السور . يظهر من الآليات التي ترفع أطرافها ومقدماتها، والأشخاص الذين تحتها أو فوقها أو جوارها، وثيابهم المسودة، أنها ورشة للإصلاح؛ وعلى اليسار القريب كتلة صغيرة من البراكات تتفرد إحداها وتتميز بلوحة فوق الباب مكتوب عليها – مدير الآليات – أما البراكات الأخرى، فقد علمت فيما بعد، أنها مستودعات القطع التبديلية والأدوات والمواد الصحية والكهربائية. تقدمت بين البراكات، لم أسأل أحداً رغم وجود بعض الاشخاص العابرين أو الواقفين في أبواب براكاتهم يستطلعون الوجوه الجديدة، وإنما كنت أقرأ اللوحات الصغيرة المعلقة فوق الواجهات: قسم التنفيذ المركزي – قسم التخطيط والمتابعة – المستودع المركزي – الديوان – الآلة الكاتبة... –مدير الفرع. البراكات جميعها من جدران خشبية مغطاة بالصاج المطوي، ألوانها كابية وقاتمة منها

ماهو كبير ومنها الصغير. وهي ترتفع عن الساحة مسافة صغيرة كي تكون الأرضيات أفقية، وكي تكون محمية من الأمطار التي تسيل بغزارة في أرضية الساحة في هذه المدينة الساحلية، هذا ماخمنته وفكرت به وأنا أخترق الساحة، وهذا ما تأكدت منه فيما بعد.

كانت لوحة -مدير الفرع - مكتوبة بخط أوضح ومثبتة فوق باب براكة مفردة متصلة بأخرى كبيرة لا باب لها، فتأكدت من أن الدخول سيكون من تحت اللوحة مباشرة.

استقبلني بحفاوة ذلك الرجل الذي يوحي مظهره بسنوات تجاوزت الخمسين، مهذب ولطيف وخجول، هذا مابدا لي خلال اللحظات القليلة التي استغرقها عبوري الغرفة الخشبية الصغيرة. وقال باهتمام واحترام حين عرفته بنفسي:

– أهلاً أهلاً يا ابني أنا منصور... تفضل! المدير ومعاونه في الداخل وزملاؤك الجدد أيضاً.

خطا بضع خطوات بقامته المحنية احتراماً وشيخوخة، فتح الباب الداخلي وقال:

– هذا مهندس جديد يا أستاذ... والتفت إليّ وقال: تفضل يا أستاذ...! وخطوت إلى الباب ثم إلى الداخل حيث تتربع في الصدر طاولة كبيرة تشغل البعد الأقصر للفضاء الداخلي، عليها أوراق وأقلام وهواتف. لكن - وقد نظرت اليها أول الأمر أبحث

من المدير – لم نجد أحداً خلفها. بينما وقف الحاضرون ورحبوا.
وقبل أن أتساءل بيني وبين نفسي كثيراً عمن يكون المدير من شخصين غريبين علي، عرفت أنه الأقرب إلى المكتب، فقد رحب أكثر ربما ليعرفني بنفسه وطلب إلي أن أجلس. أما الثلاثة الباقون فعرفتهم فور رؤيتهم، فقد جمعتنا دورة اطلاعية تمهيدية قبل أيام وكنا نتنافس سراً فيمن سيفوز بالتعيين في فرع الشركة في المحافظة هذه، أما الآن فقد بدونا أكثر انشراحاً بعد أن تم لنا جميعا ذلك..

الحديث كان عاماً، هذا ماظهر لي حين أكملوا الحديث لفترة قصيرة ثم تحدث المدير عن أهمية الشركة ومسؤولياتها الكبيرة في التنمية، والخصوصية التي يتميز بها الفرع في هذه المحافظة النامية. منشآت وأبنية وخدمات ومشاريع كثيرة مكلفة وملحة. وأكد على ضرورة الاهتمام الجدي والالتزام والانضباط والدقة في التنفيذ، لأن هذه مسؤولية وطنية قبل أن يكون واجباً تجاه الشركة والمحافظة والشعب. ثم لوح بالمكافآت والعقوبات.

بعد ذلك تم التعرف علينا فرادى: الاسم، ومكان الاقامة ومصدر الشهادة ونوع العمل ومدته قبل التعيين إن وجد.

كان يسأل ويدقق النظر، وكانت نظراته توحي بأنه يريد أن يعرف أكثر مما يسأل عنه، وربما يود أن يعرف هذا في الحال قبل أن يتم توزيعنا إلى المشاريع، وينتهي الأمر – لمدة على الأقل.

- أنت يا أستاذ أحمد كنت في السكن العمالي عند الأستاذ رجب العلي، كما أظن، فما رأيك أن تعود إلى المشروع ذاته، فلديك خبرة بالعمل وبنوعه وظروفه. وأنت والأستاذ رجب أصدقاء. أليس كذلك..؟!

- كما تريد ياأستاذ..!

(أحمد وردة: شاب ناحل قصير نسبياً كثير الحركة والحديث والالتفات. وكان الوحيد بيننا الذي يعرفه الأستاذ عساف رزوق رئيس الفرع. فقد عمل هنا قرابة السنة، وهو معروف أيضاً من قبل المدير العام الذي ناداه باسمه حين اجتمع بنا قبل أيام في ختام الدورة. وهو تباهى بذلك وأبدى تخوفاً مصطنعاً من أن المديرالعام يعرف آرائه المؤيدة للعمال لذلك قد لايستجيب لرغبته في إعادته إلى المكان نفسه؛ بل ربما أرسله إلى محافظة بعيدة. وبهذا قد يحقق رغبة الأستاذ عساف، فأحمد - كما تحدث لنا بتفاخر - وقف أثناء مأدبة غداء أقامها المدير العام في أحد المقاصف البحرية بعد الانتهاء من شهر الإنتاج وقال كلاما خطيراً:

بدلاً من أن تصرف الأموال في مثل هذه المناسبات لماذا لا توزعها على العمال مكافآت إنتاج بعد الشهر المضني؟!»

يومئذٍ - كما قال لنا أحمد وكنا لانزال في الدورة - احمر وجه مدير الفرع ووضعه في الأرض، إذ كيف يتجرأ واحدٌ من

موظفيه على أن يقول كلاما كهذا في حضرة المدير العام وكيف لم يمتثل للتوجيهات؟! أما المدير العام فقد ضحك وقال:

– أشكرك أيها الشاب المتحمس، تصرف للعمال، وشقي هنا، ماذا يمنع؟! كله لازم، أما حماستك هذه فأنا لا أشك في أنك ستوجهها للعمل، ليستفيد الوطن من أحد أبنائه الغيورين.. وأرجو أن يكون الجميع مثلك!

ثم التفت إلى الأستاذ عساف وقال: أهنئك على هذه الطاقة الثمينة..! وهز رأسه.. ففهم مدير الفرع الرسالة وغضب على أحمد بعد انتهاء المناسبة وأنبه بشدة وهدده وضايقه في العمل...!

وأحمد ورده أعرفه أكثر مما يعرفه الأستاذ عساف أو بقية الزملاء، فقد كنا في الكلية نفسها وإن كانت تفصلنا سنة دراسية واحدة، وكان مسؤولاً طلابياً مهما ومتحدثاً مجيداً ومسؤولاً مقرباً من أصحاب القرار في الجامعة، من يعرفه عن بعد يتوسم خيراً كثيراً، وربما اعتبره قدوة حسنة في النشاط والفهم والجرأة . لكن الذي يعرفه عن قرب يعلم أنه يتحدث أكثر بكثير مما يفعل بل إن جهده يذهب جله في الكلام، ويبقى للعمل والدراسة القليل).

– وأنت يا أستاذ مفيد تذهب إلى مشروع معمل الاسمنت ورئيسه الأستاذ نجم يوسف.

(الأستاذ مفيد حمود شاب ممتلئ الجسم والصوت، فصوته

لايهدأ وهو مرتفع دائماً حتى أثناء الحديث العادي، يتحدث عن نفسه كثيراً، ويبدو في بعض الأحيان أنه يصدق مبالغته..! تحدث أمام مدير الفرع وقال أنه من أبناء المدينة وعمل قبل التخرج في معمل الاسمنت وفي أعمال البيتون والعزل، وأفاض في الحديث حتى أنه قام بأعمال بأزمة عجز عنها من هم أقدم منه حتى الخبراء الأجانب..؛ وهذا ما أهله لأن يعيّن في مشروع الاسمنت فقد بدا عمله هناك – مع أني عملت في المشروع ذاته ويمدة تقارب المدة التي قضاها هناك وبأعمال مهمة كأعماله – هاماً ومميز إلى درجة كبيرة).

– أما أنت ياأستاذ أسعد فإلى مشروع الوحدات الإرشادية ورئيس المشروع المهندس نصار محفوض.

(نحن يا أستاذ أسعد حمدان من الطينة نفسها ، تحول وهدوء، وحديث خافت ووصف عادي للأعمال القديمة بلا مبالغة ولا انفعال. لكنك للحق أكثر هدوءاً وربما خجلاً مني! أو ربما أقل ثقة!

فعملك كان في مشروع الاسمنت كذلك وفي الأعمال المدنية الهامة، حفر وترحيل وتركيب حديد وصب بيتون وغير ذلك..

فلتذهب إذن إلى مشروع الوحدات الإرشادية الذي لازال في بدايته، ويحتاج إلى جهود كبيرة وخبرة في هذه المجال ويحتاج نشاط وحيوية الشباب «كما قال الأستاذ عساف باهتمام!»).

لماذا تركني للآخر؟ ولماذا ينظر إلي بهذه الطريقة؟! يتحدث

إليهم وعيناه صوبي، يحدثهم عن المشاريع التي سيعملون بها وتنظره باتجاهي.

بدأ بأحمد لأنه يعرفه! لابأس، لكن لايعرف مفيداً أو أسعد كما لايعرفني، أول مرة يرانا نحن الثلاثة، وترتيب جلوسنا ليس الترتيب الذي اتبعه في التعيين، تجاوزني إلى أسعد وحدد عمله ومكانه ونوعه، ولماذا تلك الريبة وذاك الحذر في عينيه؟! هاهو يتفحصني بعد أن انتهى منهم، يحدق ملياً في وجهي ويسألني، يحاول أن يعرف أكثر..

سألني مالم يسأله لزملائي ولم يشبع من إجاباتي: كنت أرد بشكل عادي تماماً، بلا خوف، وبلا تردد، فليس لدي ما أخاف أن أبوح به، أنشر، أمامه إن أراد، سلسلة حياتي كاملة من عهد الرداء الفضفاض الذي يغطي كل شيء من الأعلى إلى الأسفل، ولايخفي شيئاً! إلى عهد الشهادة التي لم أذق حلاوتها إلى الآن، وإن كنت شممت بعض الروائح الشهية!

ونطق أخيراً.. كأنه حكم يخشى أن يكون فيه خطأ أو سوء تقدير! قال كلماته ووجهه في وجهي وعيناه في عيني مباشرة:

– الأستاذ حسان سيعمل في مشروع «الشرشار» الذي تديره المهندسة هدى شعبان..!

المهندسة؟! سأعمل مع مهندسة، وستكون رئيسي في العمل؟! هذا مالم أتوقعه إطلاقاً ولم يخطر ببالي! ولم أفكر به!

فالتعامل مع النساء لم أجربه تماماً. وعلاقاتي بهن قائمة

وسطحية وحذرة. والخبرة في هذا المجال تكاد تكون معدومة، مع هذا فأنا لا أخافهن، ولايبدو الأمر مستهجناً لكنه لايخلو من تساؤل وانقباض ويحتاج إلى الكثير من الحذر والترقب.

خلال هذه الفترة كان لايزال معاون المدير جالساً لكنه لم يقل شيئاً! حتى حين كان يتحدث مدير الفرع من المشاريع والعمل كان يوجه كلامه أحياناً إلى معاونه الذي يكتفي بالتأكيد على الكلام بهز الرأس شاقولياً، ويجول ببصره بيننا. أما حين قرر المدير أني سأعمل في مشروع (الشرشار) نظر إلي نظرة تساؤل، وارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة جداً.. لكنها ليست بلا معنى أبداً!.خرجنا جميعا من مكتب المدير وخرج المدير ومعاونه أيضاً! على الباب قال المدير! هذا هذا الأستاذ نجم. اذهب معه يا أستاذ مفيد، هذا مهندس جديد يا أستاذ نجم له خبرة بأعمال مشروع الاسمنت.

وبعد خطوات قليلة متثاقلة برزت في المدخل سيارة بيك آب صغيرة بيضاء، التفت المدير نحوي، وقال بسرعة: هاهي (معلمتك) يا أستاذ حسان، الآنسة هدى، وقفت السيارة على مسافة قريبة، تقدمت شابة ناحلة قصيرة وضحكة واسعة على فمها. استبقها المدير قائلاً بلهجة خطابية مصطوطة:

– نُقدم إليك يامهندسة هدى شعبان المهندس الجديد حسان وسوف وقد عيناه في (مسيلك) فاستلميه من الآن واحفظيه جيداً.

وضحكنا جميعاً كان ضحكاً مفتعلاً، لا أذكر إن كنت قد

ضحكت مجاملة، أم أن الموقف فرض علي ذلك، أم أني وجدتني مشدوداً إلى إيقاع القهقهات التي كانت تجلجل على مقربة من أذني ومسامعي، أم النشوة بالعمل الجديد، رمقتني الآنسة بنظرة مستعجلة لامبالية والتفتت إلى شاب يقف قريباً منا:

– خذه يارافع إلى المشروع! سأبقى قليلاً هنا، لدي بعض الأعمال في الفرع. كانت خلال كلماتها القليلة هذه توزع نظراتها بيني وبين الشاب ثم إلى المدير، ومرة أخرى ابتسم المعاون الذي لم يعره أحد أيما اهتمام.

اتجهت إلى السيارة، رحب رافع بي، وبدأنا الكلام والأسئلة حتى وصلنا إلى المشروع دون أن أستطيع تقدير المسافة أو المدة أو التعرف على معالم الطريق والحارات في هذه المدينة المجهولة، رغم انتمائي الإداري إليها ورغم عبوري لها الذي امتد سنوات.

نزلت من السيارة الصغيرة وسط عيون مفتوحة ورؤوس مشرئبة. قال رافع لبعض الأشخاص المندهشين بنبرة عالية ولهجة منشرحة كمن لديه شيء عجيب أو (فرجة) نادرة:

– جلبت لكم الأستاذ حسان . . . مهندس جديد عندنا في المشروع!!

* * *

خندق هائل يمتد شرقاً إلى سد صغير أنشيء ليحجز أمامه مياه الأمطار الغزيرة التي تهطل فوق السفوح القريبة كل سنة، وتتجه صوب المدينة عشوائياً؛ فتشكل خطراً داهماً دائماً على المباني والممتلكات والشوارع والمنشآت المختلفة.

وينخفض غرباً بين كروم الزيتون الكثيفة، ويقطع الخط الحديدي في طريقه إلى البحر. حفرة هائلة تخترق هذا الحي السكني المكتظ كغيره من الأحياء التي ولدت وترعرعت قضاء وقدراً؛ فتفصل جزءاً مهماً منه عن المدينة الأم، مانعة الاتصال بينهما إلا عبر جسر صغير قريب من موقع إدارة المشروع وجسر آخر بعيد نحو الأعلى.

ينخفض قاع الحفرة عن مستوى الأبنية المجاورة أمتاراً كثيرة تصل إلى ثمانية أو أكثر. ويتطاول الأخدود بشكل غير منتظم وبانحناءات كثيرة لم يكن بعضها موجوداً في المخطط، لكن أخطاء في الحفر، وأبنية غير منتظمة الواجهات ساقت العمل بهذا الاتجاه.

مشروع ضخم وكلفة كبيرة واهتمام بالغ يؤمل من خلاله أن ترتاح المدينة من شبح الفيضان المرعب الذي كان يخيم كل شتاء؛ فالمدينة ساحلية غزيرة الأمطار تتوضع عند أقدام الجبال المتطاولة

موازية للبحر، مما يجعل كل المياه التي تسقط على السفوح الغربية لتلك الجبال تتسارع صوب المدينة، حيث تختنق مجاريها ومنشآت تصريف الأمطار القديمة ولا تستطيع تصريف الكمية كلها فتفيض المياه في الشوارع والأقبية.

ليس هذا الامر وقفاً على فصول الشتاء فقط بل إن الفيضان الأكبر حدث أواخر حزيران، حيث استمرت الأمطار المفاجئة بالهطول أربع ساعات كاملة بغزارة نادرة على الجبال القريبة من المدينة، وكان ماكان. وهذا الفيضان الذي يذكره أهل المدينة باستغراب وتندر وأسى كان السبب المباشر في دراسة مشروع ضخم لدرء الفيضان عن المدينة يمثل مسيل «الشوشان» الاصطناعي عموده الفقري.

كان العمل يتدرج نحو الشرق؛ فقد بدأ التنفيذ في الجزء الأكثر انخفاضاً من المسيل بجدارين استنادين بيتونيين متوازيين كبيرين وأرضية مستوية تقريباً سوى جزء صغير منها ينخفض ويجاور الجدار الغربي، لتتجمع فيه الرواسب والحصى التي يمكن أن تحملها مياه الفيضان، وليسير به التدفق الأصغري بسرعة مقبولة. ويغطى المسيل ببلاطات جسرية بطول يتجاوز طولها ستة أمتار، صممت خصيصا لهذا الغرض حيث يمكنها أن تحمل أطناناً كبيرة من الحمولات الناجمة عن الردميات والاسفلت والسيارات فيما بعد.

الحفريات مستمرة إلى الأعلى قليلاً من مركز إدارة المشروع، تليها مباشرة أعمال تجهيز الأساسات وصب البيتون في الجداريين بشكل متناوب، إلى الغرب والأسفل تتوالى أعمال تحضير الأرضيات وصبها، أما رصف هذه الأرضيات بالحجارة البازلتية السوداء فهو في مراحله التحضيرية، حيث يقوم بعض (المعلمين) بدق الحجارة وتهيئتها في مكان بعيد نحو الأسفل، بينما تقوم ورشة أخرى بتحضير الأطراف العليا للجدران، لتصبح في وضع ملائم لاحتضان البلاطات التي ستغطي الخندق العملاق.

آليات مقيمة وأخرى تروح وتجيء بلا انقطاع براكة خشبية مفردة تنتصب قريباً من حافة الخندق الغربية ترتفع عن مستوى قاع الخندق كثيراً وتوازي الأبنية التي تقع إلى جوارها، وترتفع قليلاً عن الأبنية التي تنتشر خلف الحافة الأخرى.

محتويات البراكة تقتصر على سرير خشبي وطاولة خشبية فارغة سوى من سجلين أحدهما للتفقد والآخر للإنتاج اليومي، إضافة إلى بعض المعاول والرفوش وأدوات النجارة التي يودعها العمال في نهاية الدوام، ويتجمعون صباحاً قبل أن يؤمنوا على زواداتهم ويأخذوا أدواتهم الضرورية.

يتناوب الحراسة والإقامة في البراكة أسبوعياً حارسان: أبو

معين ذو الملامح الطيبة، مطيع جداً، كثير الكلام والشكوى بمبرر وبدون مبرر. لكنه محب للنظافة ويجيد الاحترام ويتصرف بلباقة حتى مع من يزعجونه.

وأبو اسكندر ذو الملامح القاسية كالصخور. قليل الكلام والعمل كثير النوم مهمل لكنه طيب في آخر الأمر.

المراقب أبو محمد كبير الحجم والكرش بطيء الحركة قليل الكلام. وجهه يشي بعدم الرضى ولايوحي بالاطمئنان، متقدم في العمر أربعيني ربما.. ثقيل الظل، يبدو للوهلة الأولى أنه ذو مكانة في هذا المشروع إذ إن أمره مطاع.

وهو يعرف عن المشروع أكثر مما تعرف الآنسة هدى التي لايعلم إلا الله متى تأتي ومتى تذهب ولماذا. السائق أبو عماد خمسيني المظهر والواقع، أنيق أناقة (معلمي) بيروت، الذين أورثوه إضافة إلى ذلك شبقا لاينتهي.

وجهه عابس (لايضحك لرغيف السخن) كما يقول العمال.

الأناقة واضحة ليس على ثيابه فقط بل على سيارة الخدمة والمبيت /البيك آب / الطويلة البيضاء التي يستلمها. والتي لايغادرها إلا لمراقبة نساء الحارة المقابلة من على حافة الخندق الطويلة أو من على كرسي أمام البراكة المشرفة.

التعامل معه صعب، عصيٌ على الفهم والتودد، يبدي الطاعة

لمن هم مسئولون عنه، ويرقي ويزيد على من لاحول لهم ولاعلاقة ولاقوة!!.

* * *

– ٢ –

لماذا يحدث معي مثل هذا؟! لماذا أنا هكذا!؟ ما السر الغامض الذي لايتركني أحس بنصر مهما كان؟!. صغيراً أو كبيراً!؟ خاصاً أو عاماً..؟!

لماذا فرحي منقوص دائماً... لوحة متآكلة الجوانب أو أن فيها شيئاً مبهماً ينظر إلي بعين مرعبة، شيئاً لا أعرفه، لكنه يلاحقني في كل زمان، حتى في أكثر اللحظات احتمالاً أن أكون فيها مغتبطاً أو مسروراً، على قلتها، يظهر ذلك الإحساس! من أين يأتي..؟! لا أدري! من الأرض أو السماء؟! مني أو من الناس؟! هل مصدره الماضي القريب أو البعيد..؟! ماضيَّ الشخصي أو ماضي والديَّ وأجدادي أو الأجيال البشرية؟! هل جاء مع بذور الحياة الأولى أو منذ الانفجار الأول؟!

ليس في ماضيَّ مايسر أو يفرح! هذا صحيح! فقر، وعوز وانتظار ممضٍّ لفرَجٍ لايأتي! دار مظلمة في عز النهار، حيوانات تلعب أو تنام أو تتزاوج جوارنا، شتائم مرمية وصواعق قريبة

وأصوات رُعود مخيفة، وبرق غريب مدهش، أمطار مدرارة وسيول بهشية وانهيارات. قطرات ماء جلفة تسقط بحقد في أكثر الأوقات دفئاً وسعادة؛ البرد والدخان المعشش في زوايا البيت وثنايا أخشاب السقف وأنوفنا؛ الجبل العنيد الذي ينتصب قبالتنا فيمنع عنا البحر والأفق والامتداد؛ «الشرشار» الذي يطيب له أن يقطع الطريق الوحيدة الموصلة إلى القرية في أي وقت من الشتاء، والجن الذين استوطنوه؛ الحكايات عن اللصوص المسلحين الوقحين، والضباع التي ترسل في الليل أصواتاً مرعبة مثيرة تزيد الليل وحشة؛ الرياح التي تنقل الخصومة لأغصان الشجرة الواحدة فتتركها تتغالب وتتقاصف بشراسة، ثم تنفذ من ثقوب الباب اليتيم والنافذة الوحيدة، فتسلم علينا سلاماً غير مرغوب به؛ فننكمش ونحتمي بجسد أمي أو بأجسادنا! ونصير كصيصان خائفة من ثعلب أو طير جارح يحوم.

خلال هذا المستودع الهائل من الآلام، والشريط الطويل من المآسي، كانت تمر لحظات يمكن أن تفهم أنها انتصار أو فوز، بل هي في مثل هذه الظروف أكثر من ذلك. لكنها كانت تذبل أمام عيني، وتتلاشى موجاتُ الدفء والسعادة والنشوة من إحساسي.

لماذا كان يحدث هذا ومازال؟

لم تكن هذه الأحوال تخصني فحسب ولم نكن وحدنا – أنا وأسرتي – في هذا البؤس الشامل، القرية كلها بل القرى المجاورة أيضاً تعيش الحالة ذاتها إلاّ أسراً قليلة غرقت من فضلات أطباق بقيت بعد أن سُحب أصحابُها من الواجهة.

مع هذا فالكثيرون قادرون على الفرح في مناسباته، وهم قادرون على استجلابه، إذا نضب، قطرات يقيمون لها أعراساً ويدبكون ويرقصون ويغنون حتى إخوتي يستطيعون ذلك أيضاً أو بعضاً منه على الأقل.

أما أنا فلدي آخر، شعور غامض ضاغط بالألم ورغبة ملحة في البكاء، وإحساس عارم بالكآبة، بينما أحمل جلائي المدرسي، أو أتلقى نتائج الشهادات متجاوزاً الكثيرين ممن تلقوا دروساً إضافية واتبعوا دورات متعددة وشاركهم أساتذة مختصون التحضير للامتحان وربما الإجابات أيضاً.

وأخلّف ورائي من كانوا إلى وقت قريب يهزؤون من تنافر الألوان على بنطالي أو اختفاء ألوان سترتي أو بساطة زوادتي حين كانت المدرسة على دوامين قبل الظهر وبعده.

وعلى الرغم من أن فرح والديّ لايقاس واغتباطهما لايحدّ، فان شيئاً ما ينقصني، ويمنعني من أن أمارس طقوس الفرح التي لا أتقنها، والتي لا أستطيع تعلمها.

وحين أحاول ذلك فاتك الفرحتين، أنكشف أمام الآخرين وأمام نفسي وأنسحب مهزوماً!! ولاتجدي المواساة ولا المقارنة مع الذين ينظرون بحسد ويأس، ويرغبون لو يدفعون كل أملاكهم وأموالهم ليتم لهم بعض هذا..!

وتكرر هذا الأمر حين صرت مهندساً، وعبرت كل الدروب الوعرة والمفازات المسكونة بالخوف حتى أنها بدت لي في بعض الأحيان مستحيلة الولوج، وخمنتُ - إذ أصبحت على الضفة الأخرى - أني سأطير من الفرح، سأرقص وأمزق ثيابي وأشعل الزينات؛ لكن هذا تلاشى من أمام أول مهندس في القرية والقرى المجاورة العديدة، وغاب حين تحقق الأمر. أما والداي وإخوتي فكانوا في حالة من الغبطة أبكتهم، وفي وضع من الهناءة والسعادة يحسدون عليهما.

وعاد مرة جديدة، حين كانت السيارة المكتظة بالأنفاس والأفكار تشق الصحراء تلاحق شريطاً أسود يركض أمامها بعيداً، وكانت عيناي معلقتين في الفضاء الذي يتراقص فوق بساط من الجمر.

كان قرار تعييني في الشركة العامة للمشاريع الهندسية وفي محافظتي بالذات في جيبي، الأمر الذي كان يشغل حيزاً كبيراً من اهتمامي ويحتل مساحة رغبتي كلها - أو هذا ماكنت أظنه - ولكن، على أية حال، كان أملاً وحيداً عند أسرتي ولا رجاء

سواه، غير أن هاجساً كان يلح على تفكيري ويستوطن، «هل انتهت رحلاتك ياحسان؟! هل وصل قطارك الى محطته الأخيرة؟! هل تعود إلى قريتك منتصراً؟! وهل ستلوكك الرتابة ويمضغك الوقت وتمضغك البلادة ويخنقك المدى الكسيح؟! هل ستغدو ركناً منحنياً من أركانها، وتصبح المدينة التي ستعمل فيها أخر الأمداء التي تصلها، وحدودها حدودك القصوى؟!

غداً تتزوج ويصير لك بيت وتضيع بين مطالب الحياة الجديدة، وتصبح الأحلام ذكريات قديمة تالفة!

لا.. أنت ذاهب إلى القبر، وجودك النهائي في القرية وحتى المحافظة دفن لك وأنت حي، هل تقبل هذا وترضاه؟!

أنت خلقت لتطير، هل نسيت حب السفر؟! هل نسيت متعة الركوب وامتطاء الدروب! لايهم إلى أين تؤدي؟! ما الذي سيتبقى لك منه إن تراخيت بين أهلك وأقاربك وأولادك فيما بعد؟! هل أنت فرح بعملك الجديد؟! هل أنت فرح فرحاً حقيقياً؟!

لا.. لاتفرح ياحسان... لاتفرح ياحسان..! لا .. لاتفرح! بل ابك! انتحب! أنت ذاهب برجليك إلى قيد لافكاك منه... أنت ماض برغبتك إلى نهاية مبكرة... ونهائية...!!!»

وما فتئ يلكزني حتى صادر مني لذة إخبار والدي والأقرباء... ومتعة مشاركتهم النشوة! وهاهو يعود اليوم، أول يوم دوام في الشركة.

ظهر انقباضاً أمام مدخل الفرع وحيرة وتساؤلاً من نظرات المدير إلي، وحذرا من كوني ساعمل تحت إمرة إمرأة، وانكساراً حين الوصول إلى المشروع وابتداء العمل الفعلي!

هل هناك مبرر لكل هذا؟!

فيما مضى لم أجد سبباً وجيهاً لذلك، وظل لغزاً محيراً تزيدني محاولة فكه اكتئاباً وضياعاً وعزلة.. أما الآن- وقد بدأ الجد – فهل يوجد مبرر؟! هل تكفي هذه الملاحظات والافتتاحيات كي يعود؟! وهل سيستوطن؟!

ذلك هو السؤال؟!

* * *

– ٤ –

بالرغم من كل علائم الجد والنشاط والحركة في هذا الجزء من المشروع، فإن المشهد العام كان يبدو باهتاً وشاحباً أحياناً كثيرة، كأنما يتحرك المتحركون بقوة دافعة خارجية. كانوا – وهذا مالاحظته منذ البداية – رجالاً آليين رغم الابتسامات البائسة التي يرسمونها على وجوههم بين وقت وآخر حين ألتقي بهم، والطرائف والنكات التي يطلقونها والتي كانت تُضحِكُ للحالات التي يمرون بها لا لأنها تُضحك فعلاً.

فقد كان أغلبها مكروراً وممجوجاً لكنهم يعيدونها أمامي أو حين أكون على مقربة منهم، ويتبعونها بضحكات عالية أحياناً لكنها ليست أقل شحوباً من سواها.

العمل يمتد على مسافة ألف متر تقريباً، المراقب سليمان الجردي (أبو محمد) يقف على مقربة من الورشات التي تعمل في الجدارين في القسم العلوي من المشروع، يقف ساعات رغم عدم الحاجة لذلك. فالعمل ذاته يتكرر، مجموعتان تقومان بالتنفيذ، كل يوم تنجز كل مجموعة قاعدة جدار جديد إضافة إلى الجدار الذي صُبّت قاعدته في اليوم السابق.

العمل يستمر هكذا كأنه مقطوع، إذ إن أية مجموعة تتخلف عن هذا الإنجاز تعرف أنها مقصرة وتتعرض لعقوبة، إلا إذا كانت هناك أسباب قاهرة كانهيارات التربة وانهمار المطر وتعطل المجبل.

والحاجة إلى (أبو محمد) لاتتعدى نصف ساعة لتحديد محور الخندق ومنسوب قواعد الأجزاء الجديدة من الجدران. لكنه كان يشغل نفسه كثيراً ويشغل العمال والسيارة، يطلب جهاز التسوية (النيفو) والخشبة المدرجة (الميرا)، ويثبت الجهاز في مكان، ويطيل الوقوف أمامه. ينظر صوب حامل (الميرا) الذي في الخندق ويوبخه لأنه لايستطيع تثبيتها... يحدث هذا بأسلوب فوقي وقظ يبدو فيه (معلماً) فذا وخبيراً بالعلوم الهندسية، وأين منه المهندسون؟!

يخرج من المشروع في سيارة الخدمة مرّات عديدة في اليوم وأبو عماد لايخالف له أمراً.. أين يذهب؟! ولماذا..؟!

لم أتدخل في البداية: مراقب قديم في المشروع وفي الشركة ويحظى بثقة رئيسته ومدير الفرع، وهو يدير هذا الجزء منذ فترة ليست قصيرة. فلا بد أن له معرفة أكثر مني به ولابأس في أن يستمر في مسيرته كما هي.

وصرت أقضي اليوم الذي يبدأ في السابعة صباحاً بين البراكة وورشة الجدران والآليات والورشة الأبعد حيث (معلمو الحجارة).

رئيسة المشروع الآنسة هدى، لا أحد يعرف متى تأتي أو تذهب؟! ومتى تكون وحيدة أو بصحبة المدير. لكن مجموع ماتمكثه في المشروع لايتجاوز الساعة في اليوم. ونادراً ماتكون وحيدة..!

تصل إلى المشروع وتسلم على عجل وتسأل: ماذا تريدون؟! (بيتون) مجبول (تركس)، حفارة، جرار، (دَنْبر)، رافعة؟! وقبل أن تسأل عن السبب والحاجة إلى هذه الآليات والمواد وغيرها، أو عن الضرورة التي تقتضي إحضارها، تذهب.. ويحضر المطلوب بسرعة قياسية: ليس هناك أمر غير ممكن التنفيذ!

أي أمر ومهما كان عظيماً او تافهاً ينفذ فوراً. كل المشاريع في خدمة المسيل الاصطناعي (الشرشار). أي (معلم) معروف أو

سائق أو آلية او مادة يطلبها «الشرشار» تحضر للتو. المدير نفسه يحضر مرات في اليوم..!

قلت في نفسي: كم نفتقر إلى مدير بهذا الاهتمام وهذه المتابعة؟! وكم نحن بحاجة في هذا البلد الذي يعيش حمّى التنمية إلى مثل هذا السلوك!

وقال الحارس أبو مسعود والسائق أبو عماد: هذا المشروع مهم جداً ومدعوم للغاية، فالمدينة في حاجة ماسة إليه والمسؤولون في المحافظة والعاصمة مهتمون به كثيراً. والفرع مهتم به أيضاً ، وهو المشروع الرئيسي فيه.

– إنه يؤمن السيولة الأساسية لتسيير الفرع بل انه يُنتج ربحاً كبيراً.. هذا ماقاله المراقب الذي بدأ يشرح بثقة:

هذا المشروع بسيط: حفريات وصب (بيتون)، كله عمل بالآليات، وليس هناك أمور فنية مهمة، لاحديد تسليح ولا تكسيح ولا فوق وتحت ولا من يحزنون..! احفر! ركّب القالب الخشبي البسيط والذي يتكرر ذاته وصبّ (بيتون) واقبض أموالاً. أنت تعرف يا أستاذ أن العمل بالآليات مربح، خاصة إذا كانت متوفرة في كل وقت، كما في هذا المشروع، أنت لاحظت ذلك – لاشك – فأية آلية نحتاجها لانطلبها مرة ثانية لأنها تأتي في اليوم نفسه أنى تكون ، وفي أي مشروع حتى إن كانت في معمل الاسمنت! وأنت تعرف المعمل وأهميته!.

فالخط الأول بدأ بالانتاج ولازالت هناك أعمال كثيرة تابعة لهذا الخط يقوم الفرع بتنفيذها ولكن لاشيء أهم من هذا المشروع، لا السكن العمالي، ولا سكن أسر الشهداء ولا مقر الفرع ولا المجارير الرئيسية في المدينة! كل هذه المشاريع تأخذ مايفيض عن حاجتنا. وإذا اقتضى الأمر يوقف مشروع منها! أما مشروع «الشرشار» فلا يمكن أن يتأخر أو يتعطل ساعة واحدة.

اذا كان المشروع بمثل هذه الأهمية لماذا أرسلني الأستاذ عساف إليه؟! لابد أنه قدر أني أحب العمل وأريد أن أعمل بجد فعينني هنا..! وأنا سأكون عند حسن ظنه.. لأني أحب العمل فعلاً وأحب أن أستفيد وأن أكون مسؤولاً عن عمل مهم... ومن لايحب أن يكن مهماً؟!

لكن؟! ماذا يظهر من أهميتي وكيف يمكن أن تظهر! إذا كان العمل يسير آلياً، كان يسير قبل أن آتي، ومازال كذلك بعد أن أتيت! لا أحد يسألني إلا إذا كان المراقب غائباً، أو إذا كنت في جهة لم يكن فيها! حتى رئيسة المشروع لا أجد وقتاً للتحدث إليها، فهي دائماً مسرعة ولديها أمور مهمة في الفرع أو في الجزء الآخر من المشروع..

ليس في البراكة مخططات لأطلع عليها وحين سألت المراقب قال: كان لدينا نسخة هنا لكنها اهترأت لكثرة الاستعمال وأضاف:

لا داعي للمخططات حفظناها!

وقالت الآنسة: يمكنك أن تطلع على نسخة في الجزء الآخر «الشرشار الغربي» إذا كنت تود. لكن كما ترى لايوجد شيء معقد وهم يعملون دون الحاجة إليها.

وهذا أبو محمد يعرف كل شيء عن هذا الموضوع.

وهل أسأل (أبو محمد) عن التفصيلات؟! إنه ليس في حاجة إلى من ينفخه ليطير.. فكيف إذا سألته واستفهمت منه؟!

والأيام تمضي هكذا: أظل متنقلاً في المشروع بين كل ورشاته دون أن أغادره، مشغول من الصباح إلى المساء ولا عمل لدي! يأتي المدير والآنسة هدى، أذهب إلى جوارهما، أسلم عليهما، ينظر إلي الأستاذ عساف ويسلم بحرارة. ثم يمضي بعض الوقت في الاستفسار المكرور المفتعل:

في أي وقت نرسل (البيتون)؟! كم متراً مكعباً تريدون؟! أين الجرار؟! أين (الدنبر)؟! مرافقته لاتقول شيئاً إلا حين يسألها بتفخيم: مهندسة هدى هل هناك عراقيل؟!

الضاغط؟! اذهب يا أبا عساد احضره من معمل الاسمنت، أو من المجارير، أو أينما كان! ستستبدل لك هذا (التركس)! تأخذه إلى مشروع الطرق وتجلب الذي هناك. سأخبر رئيس قسم التنفيذ المركزي بذلك فورا.

ثم يسلمان ويغادران منشرحين.

* * *

يسلم علي بحرارة، ويكلمني بلطف لماذا؟!

يقول أبو عماد: المدير واثق منك لولا ذلك لما أتى بك إلى هنا. ولايسأل عنك كثيراً! لو كان غير ما أقول لاتعرف ماذا يمكن أن يفعل بك.

إذا كنت لا أعرفه ولايعرفني قبل أن طرقت باب مكتبه حاملاً قرار تعييني عنده فمن أين جاءت ثقته بي؟! وإذا كنت لا أعمل كما أحب وكما يجب، فلماذا يحترمني؟! وهل الثقة والاحترام لا علاقة لهما بالمعرفة المسبقة أو بالعمل الجاد؟!

صحيح أنه مشروع على درجة عالية من الأهمية والمردودية، لكن العمل لايتطلب جهداً فنياً خارقاً ولانشاطاً ذهنياً محموماً. إنه يمضي برتابة مملة! ثم إذا كان هو ورئيسة المشروع يشرفان على العمل شخصياً فما فائدتي أنا؟! حتى تسجيل الدوام مسؤول عنه المراقب ولا حاجة كبيرة إليه! فالإجازات شبه معدومة والتأخر غير مقبول، والهروب غير ممكن..! إذن لماذا هذه المعاملة يا أستاذ عساف رزوق؟!

حتى حين اعترضتُ على البيتون الذي كان يندلق في جدار مقولب، وكانا المدير ورئيسة المشروع واقفين ينظران بلا اهتمام إلى الخليط الداكن المصفر من غلبة نسبة الرمل والمياه فيه!

ترددت مرات قبل التعليق – وكانا يصران على الحضور وقت صب البيتون لأنه يكون غالباً في نهاية الدوام – وقلت في نفسي: أين أنت من الأستاذ عساف؟! عشر سنوات عمر شهادته الهندسية، وعمر إدارته. لو كان البيتون غير مناسب هل يقبله؟!

والآنسة هدى نفسها عمرها الهندسي يزيدني سنوات وخبرتها لاشك أكبر، فهل ترضى، وهي المسؤولة أولاً وأخيراً عن التنفيذ بدقته وسلامته،أن يكون البيتون المصبوب غير نظامي؟! ومخالفاً –جهاراً –للشروط الفنية؟!

ومع أني أشك في نظاميته بل ومتأكد من ذلك ولا أشك في المعلومات التي درسناها لسنوات... فقد كنت أشك أيضاً في إمكانية إبداء ملاحظتي، لكن في هذه المرة لايمكن أن أسكت، فهذا الخليط هو ماء ورمل وبعض الاسمنت وبعض حبيبات من البحص أقل بكثير مما يجب ..!

قلت لسائق الجبالة الذي يقف إلى جانبي: ماهذا البيتون ؟! قال: إنه من المجبل الثاني!

قلت: وما الفرق بينه وبين المجبل الأول؟! قال: العيارات..!

– وهل كل مجبل له عيار مختلف... البيتون عياراته واحدة؟!

– يتم الجبل في المجبل الثاني (بالتركس) تقديرياً ..!

– التفت مصعوقاً إلى المدير ورئيسة المشروع بعد أن تأكدت من الغلط الواقع:

- هل هذا يبنون يا أستاذ عساف أم شوربة.

فانتفض ونظر إلي باهتمام وكذلك فعلت هدى، ثم التفت إلى السائق، وقال بانفعال مفاجيء: ماهذا ياسليم؟! أليس معكم نظر؟! أوقف الصب فوراً!

عد إلى المجبل وقل لرئيسه أن يزيد البحص والاسمنت (ولو).. هل يجب أن نظل على رؤوسكم لتعملوا بشكل جيد؟! وتنيروا بالكم على الشغل؟! هذه الأعمال ليست لأبي إنها لكم للوطن..! قل للحمار (أبو عبدو) أنه سيعاقب وإن كررها سيرى أشد من ذلك وأقسى..!

ثم نظر صوبي وقال بلهجة لطيفة: معك حق يا أستاذ حسان يوجد أناس قليلو الضمير.. آه تذكرت أليست المواصلات إلى بيتكم صعبة، علمت أن قريتكم بعيدة كما قلت لي.. لابأس سآمر السائق مالك الذي ينقل العمال إلى القرب من قريتكم أن يتولى أمر توصيلك مساء، وسيمر عليك كل صباح أيضاً؛ سألت أنا عن الموضوع ووجدت أن هذا هو الحل المناسب حالياً على الأقل.. والآن اذهب..! لاتقلق على الصب نحن سنبقى هنا.. وقد نتأخر..!!

ماهذا اللطف..؟! وهذه الأريحية؟! وهذا الاهتمام؟!

صحيح أني لم أطلب شيئاً، وليست لي مشاكل مع أحد من العمال أو السائقين أو المراقب .. وصحيح أني لا أغادر المشروع حتى ان السائق (أبو عماد) قال لي ذلك مستغرباً.

لكن الأستاذ عساف لطيف معي أكثر مما توقعت وقد سمعت من تعامله مع غيري الكثير مما يختلف عن هذا إلى درجة كبيرة!

* * *

حديث النساء والجنس هو القاسم المشترك الذي يجمع بين عناصر المشروع التي لاتعمل مباشرة: السائقون والحراس والمراقبون! فسمير سائق الحفارة الآلية المهمة والمتطورة في الفرع يلاحق فتاة لاتزيد عن ثلاث عشر سنة. تقف قبالته وتزوره أحياناً وهو يبادلها الاهتمام والزيارات رغم أنه متزوج وأب. والفتاة هذه ابنة مستخدم مدرسة الحي الذي له النصيب الأكبر من أحاديث الخصب، وله عند عناصر المشروع اهتمام وإعجاب وربما حسد، فهو يملك ثلاثة طوابق وثلاث نساء: إحداهن معلمة في المدرسة نفسها، يقع بيته مقابل البراكة تماماً على الجانب الآخر من الخندق وذهابه وإيابه من جوار البراكة إلى الجسر الوحيد كما هي حال كل سكان العارة. حين يتقافز بقامته القصيرة التي لاتتجاوز المتر ونصف المتر إلى جانبه تدب زوجته أو زوجاته، تلاحقه العيون الشبقة ويبقى واقفاً طويلاً على الأفواه التي لاتستكين. خاصة حين تتعثر النساء في الطين اللزج ويهيّج الهواء الذي لايخجل المشاعرَ فتدق القلوب أكثر وتفتح العيون

لوسع، ويكثر التلمظ ولعق الشفاه ومد الألسنة، وتزداد حرارة الأجساد التي تنتظر مشاهد أكثر إثارة.!

أبو عماد لاينفكُّ يدور بعينيه من خلف السيارة التي يوقفها طويلاً جوار البراكة، فهذا هو المكان الآمن الذي يستطيع فيه أن يرى ولايُرى، حتى حين يجلس على كرسي أمام البراكة في أوقات الصحو القليلة، أو يتمشى على ضفة الخندق فهو ينظر باهتمام إلى السور والأبواب والأزقة ويتحدث بشبق:

– انظر يا أستاذ - اللهم زد وبارك.. ثلاث نساء لأنن!!

– انظر كيف يضمن قمصان نومهن تحت سراويلهن! سوف ترى اللحم أكثر في الربيع والصيف.. ما رأيك أليس صحيحاً إذا كان هذا يحدث في الشتاء؟!

أنت لم تكن في الصيف الماضي هنا! الله... الله ياأستاذ عينك (تشول) شيء يجنن مكانك في ساحة البرج في بيروت.. وأنت اقعد وتفرج..!!

ويزداد الشبق به وتتصاعد أنفاسه الحارة ويتحدث عن (معلمه) في لبنان، ذكر هذه الحادثة مراراً – كيف كان يُحضرُ عند كل أول شهر فتيات بعدد أيام ذلك الشهر ويرقصن له عاريات، وهو يشرب نخبهن ويتلذذ..! لم أسأله عن دوره في هذه الولائم لأن شهوانيته كانت تفيض على ملامحه ولاتتناسب مع وقاره الظاهري.

والحارسان يتبادلان الأدوار! فأبو معين لايمل من الشكوى والحديث عن السيارات التي تأتي في ساعات متأخرة من الليل، وتنزل ركابها قرب البراكة سكارى متعانقين يترنحون ويترنحون من الشراب والسهر وأشياء أخرى يغفل عن ذكرها حياء. وبخاصة حين يهطل المطر وتتحول الطريق الطينية الإجبارية المجاورة للبراكة إلى طبقات فسيحة من الصابون. ويقول باستطراد: أيام الخميس والسبت يا أستاذ سيارات كثيرة تقف وتعود كلها سيارات صغيرة أو أغلبها.

وكذلك يقول الحارس الثاني ولكن بإيجاز واقتضاب ولايخفي سيلان لعابه.

حتى أنت يا (أبو محمد)! المراقب النزق القاسي حين تجد فرصة مناسبة للحديث لاتقصر. يضحك مع سمير ويتحدث عن (أبو عماد) ويستقصي كل أخبار النساء اللواتي يستقبلن زواراً حتى ساعات متأخرة من الليل. وكان يطيب له أن يحكي بوضوح ودون حرج! فهو واثق من أن أحداً لن يجيبه أو أن جوابهم سيكون لطيفاً.

ثم بدأ يتحدث معي بصراحة أكثر فيما بعد، حين زالت الغيوم التي طافت في سماء علاقتنا، عن علاقات أكثر أهمية بالنسبة إلينا نحن عناصر مشروع (الشرشار) وأكثر قرباً منا..!!

* * *

- ٦ -

من المعتاد أن يبدأ شهر تشرين الأول عبوره برشة ماء مهمة ينتظرها الجميع ويحسبون حسابها، وتختلف غزارتها من عام إلى عام.

في هذا العام كانت الأمطار معتبرة في كل مناطق البلاد. حيث شهدتُها في العاصمة أثناء الدورة المركزية. وكنت غير محتاط جيداً للأمر، فنفذت برد الشام القاسي المبكر.

وفي أواخر الشهر ذاته أي بعد قرابة أسبوعين من التحاقي بالمشروع هطلت أمطارٌ غزيرة كما يحدث عادة في هذا الفصل، خلال وقت قصير تحول مسيل الشرشار إلى نهر مؤقت، حيث أعاقت المياه الجارية بغزارة أعمال المشروع خاصة قواعد الجدران حيث الانهيارات المتكررة للتربة الهشة المجاورة والتي تتطلب زمناً كي تتم إزالتها ويستأنف العمل في الأقسام المختلفة.

ومنذ بداية هذه الشهر / تشرين الثاني بدأت الرياح الشرقية القاسية غاراتها المتواصلة أياماً. هذا ماساعد على سرعة جفاف الأرض وزيادة وتيرة العمل بعد التخلص من آثار الأمطار الأخيرة.

بعد مرور ساعة على بدء دوام هذا اليوم السابع من تشرين الثاني، وكان الجو محشواً بغيوم سوداء توحي أن السماء عازمة على أن تقول أشياء مهمة، أخذت قطرات كبيرة تتساقط متفرقة ثم

تكاثفت، فأسرعنا جميعاً إلى البراكة اليتيمة المسكينة التي بدأت تهتز تحت وقع خطى العمال الثقيلة، التي تضرب أرضيتها الخشبية المؤلفة من ألواح مستندة على (موريتات) قوية ترتفع وتنخفض فيتكسر بعض ألواحها؛ (فالجزمات الكاوتشوكية) الطويلة الموحلة والأحذية العسكرية الثقيلة تضربها بلا رحمة، وتصبغها بالاحمرار الداكن /لون التربة الغالبة في هذه المنطقة.

جلستُ على السرير الوحيد/ سرير الحارس وجواري سائق العفارة وسائق التركس!

وعلى أكياس خيش ولفات من شريط التربيط ودواليب قديمة وأرض البراكة توزع النجارون ومساعدوهم والعمال.

لغط وأصوات بدأت هامسة احتراماً ثم شرعت تعلو مع ارتفاع صوت سقوط المطر على الصاج الذي يغطي جوانب وسطح البراكة.

كل المواضيع حاضرة: فائدة المطر في هذا الوقت، وضع المواسم، العمل الشاق في الخندق شتاء، الانهيارات والمياه الجارية، ومخاطر دخول الماء إلى القدمين والأمراض التي تنجم عنها وحوادث شاهدة: الرواتب التي تتأخر أربعة أشهر أو ثلاثة في أحسن الظروف؛ مشاكل المدرسة والأولاد والكتب والدفاتر والأقلام والنشاط وأصحاب الدكاكين الذين يسيل لعابهم أول كل شهر، وتتحرك ألسنتهم ولايصدقون أن الشركة لاتعترف ببدايات الأشهر.

معهم حق! (لماذا كل موظفي الدنيا يقبضون أجورهم في موعد محدد إلاّ أنتم؟! هل تنتمون إلى دولة أخرى أو قانون آخر أو كوكب آخر..؟!).

والمكافآت والإجازات معدومة. وأسئلة كثيرة غامضة تتسلل من بين الأحاديث المتصاعدة المحمومة: أين يذهب ربح هذا المشروع إذن..؟!

كل الشكاوى طرحت أمامي بأسلوب أو بآخر! كل مايخطر على بال. فالأمطار متواصلة والساعات تمر وتساؤلات آنية تظهر وتختفي من كل الجوانب: لماذا المكوث هنا؟! لماذا لايُرسلوننا الى بيوتنا؟! عيبٌ أن يجلس أحدنا مع أسرته بدل أن نسجن هنا..؟! لقد نسينا الأولاد الصغار! نذهب قبل الفجر وهم نائمون، ونعود عند العشاء وقد استسلموا النوم! ويأليت هنا مايستأهل التعب والشقاء.

لا ياعمي إذا ذهبنا الآن يحسبونها من الإجازات السنوية..!

العام الفائت فعلوها مرات: ثلاث ساعات اعتبروها يوماً كاملاً. الواحد منا يترك إجازته للمواسم أو لأوقات يستفيد منها. لا ليجلس في البيت! كل إجازاتنا أسبوعان فقط ماذا يمكن أن نعمل خلالها.

كانت الشكاوى عامة! ولم تذكر أحداً بالاسم لا المراقب الذي ذهب كمانه مع (أبو عماد) منذ بداية الهطول. ولا المحاسب أو

رئيسة المشروع أو مدير الفرع ولم يوجه أحد حديثه إليّ مباشرة سوى بعض التودد والتقرب.. ولكن كل الأحاديث كانت تخصني، كلها تخصني وقد سمعتها جيداً.

* * *

تخلل انتظار توقف المطر و نهـــاية الدوام طرائف ونكات محتشمة أول الأمر وفاضحة فيما بعد، وغمز ولمز من سائق الحفارة وابنة المستخدم الجار، وعلاقة أخرى لم يذكروها صراحة وإن قالوا أنها على مستوى عال!

وكانت صراعات خفيفة قد بدأت بالمزاح الذي أكثره جد أو كله، ثم تفاقمت بين السائقين اللذين يجلسان قربي على السرير (والمعلمين) والعمال الآخرين.

بدأ ابو جميل النجار الذي لاينقطع صوته قائلاً: نعم ياعمي! الاكابر يجلسون على السرير ونحن على الأرض واستدرك: عفواً يا أستاذ أنت على عيننا ورأسنا، أنا لا اقصدك طبعا. والاكابر يتقدمهم (أبو عماد).

واستمر الجدال وقتاً مهما امتلك كل الخبايا وكل المواقف:

فسائقوا المبيت لاتعرف لهم وقتاً محدداً. يمر الواحد منهم ولايكلف نفسه عناء تخفيف السرعة أو الالتفات للتأكد من أن أحداً من العمال لايركض غير بعيد عن الطريق.

يعتقدون أن السيارات ملكهم الخاص، ممنوع أن تأخذ معك حاجة، السيارة تتعطل، صياح وترفزة وغضب ، سباب دائم.

اذا كنا لاناخذ أغراضنا معنا من سينقذها لنا؟! وإن أوصيت أحدهم على أي غرض من السوق الذي يعبره عشرات المرات يومـيـاً. يرغي ويزبد : هـل أنا خـادم (أبوك)؟! وحين تطلب أن يتوقف لك في مكان لأمر ضروري: هل تظنون أن معي حماراً يمكن أن أوقفه في أي مكان؟! ألا تفهمون أن هذه سيارة.. سيارة لايمكنها التوقف كل متر أو في الطلوع القاسي أو النزول الشاق؟! في أوقات الدوام ينامون في آلياتهم، يتلصصون من وراء الزجاج، أو يستمعون للأغاني والأخبار أو يصطنعون الأسباب للذهاب إلى الفرع للإصلاح. والله يعلم متى يعودون! يشربون (المتة) في البراكة أو الفرع أو السوق والله أعلم.

وفي النهاية صياح وهياج: امسحوا أحذيتكم قبل أن تطلعوا! السيارة مثل العروس، قبل دقائق غسلتها، ليتني لم أفعل! ألا تفهمون... هل تهرب السيارة؟! أوباش... أوباش...!! وتضج أصوات مؤيدة:

السائقون هم المرتاحون، يلعبون على الجميع: إن كان سائق آلية ثقيلة فحركته بطيئة يعمل على كيفه، محترم، مهم، إذا حدث لآليته أي عطل تستنفر كل ورشات الإصلاح بينما ينام ساعات أو أياماً... حتى (تدوير) الآلية لايتم إلا بعد ساعتين من الدوام، تدور

ورشة كهرباء من الفرع على الآليات المنتشرة في المشاريع. الحمد لله كل آليات الفرع لاتدور من نفسها وإذا توقف المحرك بقدرة قادر يلزم إحضار ورشة (التدوير) ثانية وأين تكون ؟! الله أعلم! المهم أن أياً منهم لايعمل ثلاث ساعات في اليوم.

وفي هذا المكان لاتستطيع الآلية الدخول، وهناك لاتستطيع أن تناور.. أو خطر على الأبنية القريبة، وخطر على المجارير والطرقات.. أو على الآلية نفسها. وانزلوا ياعمال! اكملوا الباقي! في البرد أو الحرارة أو المطر أو في المجارير انزلوا واحفروا وعزلوا وصبوا!

يضحك السائقون، فقد انضم إليهم سائق (الدنبر) الصغير وسائق الجبالة الذاتية: الله... الله... عمال آخر زمن! يدور أحدكم حول نفسه عشرين مرة قبل أن يضرب معولاً في الأرض أو يرفع رفشاً مملوءاً، أو يقدم خشبة! و (المعلمون) ماشاء الله يتخرجون من جامعات العالم المعتبرة! كل واحد صار يعرف كيف يركب خشبة فوق أخرى ويثبتها بمسمار صار معلماً! إنكم لاتعملون بأكلكم! يقضي كل منهم (حاجته) عشرين مرة في اليوم! ثم هل تجوز المقارنة بين عملكم وعملنا ..؟! أين مسؤولياتكم ..؟! إن ضرب جدار بيت من يسألكم، إن انكسر مجرور من يعاقبكم أو يلاحقكم؟! إن أصيب خط توتر فوق الأرض أو تحتها، من الذي يمكن أن يموت نحن أم أنتم؟!

العمل كله على الآليات وأنتم لامحل لكم من الإعراب!! لو كنتم من ينفذ كل الأعمال. كنا ربحنا كثيراً ... وشبعنا ..!!

تطور الجدال، وتداخلت الأصوات، صاح المسنون: خلصنا .. اسكتوا ..! تزعجون الأستاذ وماذا يطلع من هذا الحديث؟! الدنيا حظوظ، وحظهم من الدنيا هكذا .. بعضهم كانوا عمالاً وصاروا سائقين وهؤلاء أصعب من سواهم بكثير ..!

* * *

الوقت يمر متثاقلاً وأنا ما أزال في مكاني جالساً على السرير ساهماً. نظري مصوب إلى الباب المقابل للسرير، أراقب حبات المطر الثقيلة التي تضرب الأرض بقوة فتخرج شرارات مائية من مكان السقوط، أو تحدث فقاعات لاتلبث أن تختفي بعد أن أشبعت الأرض وسالت المياه على سطحها ..! أسند ظهري إلى الحائط فيرتفع مستوى نظري إلى الحبال الفضية التي تصل السماء بالأرض وتكون شبكة خيوط بيضاء تمحي معالم العمارة المقابلة.

بينما لاتزال الرسائل تصل إلى مسامعي كأصوات قادمة عبر هواتف بعيدة!

أستمع وأرنوا، أبتسم أحياناً، أعبس أخرى. لكن ملامح حيادية تستوطن وجهي وحركات قدمي ويدي.

استعراضات المعرفة أيضاً كانت حاضرة ومبارزات الكفاءة بين (المعلمين) خاصة. وقد يشارك فيها مساعدوهم: كيف تصنع زاوية قائمة بالخشب ودون استخدام زاوية حديدية أو خشبية؟! وبدأت الاقتراحات والإجابات.. والنظر إلي والاستفسار مني.

تطورت الأسئلة إلى طرق التدعيم، وفي محاولات لكسر موقف الآخر، استعرضت كل الأخطاء التي حدثت، كل منهم يذكّر ندهُ بالجدار الذي انفلت من موقعه أثناء الصب، أو القاعدة التي انفتحت، والسقف الذي انحنى وأخطاء الوزن والشاقولية والأفقية والقياسات المحاورية.

كنت أستطيع قراءة الغرابة في عيونهم والدهشة على وجوههم لصمتي أولاً، وتواجدي هنا كل هذه الساعات ثانياً..! وعدم ملاحظة أي انقباض على وجهي أو امتعاض من أحاديثهم ولاحتى اهتمام كبير! على عكس مايرونني أثناء تجوالي بينهم زمن العمل..!

أما أنا كنت أحس بمتعة خاصة ولذة عظيمة..! فقد تهيأ لي في هذا النهار من الاطلاع والمعرفة والتميز مايلزمه شهور! كان يوماً عظيماً بكل المقاييس!

- عرفت فيه عناصر المشروع! من تكلم ومن لم يتكلم، من علا صوته ومن كان يهمس، من له شخصية معاندة مكابرة ومزاودة ومن يتحدث بصدق وألم ومعاناة! علمت أموراً كثيرةً كنت في شوق لمعرفتها. ولأول مرة عدت إلى البيت منشرحاً. لاحظ ذلك

والداي وإخوتي وفرحوا. ونمت طويلاً.. بعد ما استعرضتُ شريط اليوم الطويل المتنوّع!!

* * *

لم يكن ذلك اليوم وحيداً بل أضيف إليه بعد أيام قليلة صباح آخر.

كان ذلك الصباح ثريا، حمل إليّ أخباراً كثيرة مهمة. وإن كان بعضها متوقعا من خلال بعض الملاحظات التي لاتخفى على متابع يربط بينها، فإن بعضها الآخر كان غير متوقع بل بعيداً عن ساحة التفكير.

تأخرت سيارة (أبو عماد) التي ستنقلني إلى المشروع من مقر الفرع، وكنت واقفاً أنتظرها في الساحة الكبيرة حين بدأتْ قطرات من المطر تتساقط وتثير الغبار بعد مدة جفاف طويلة.

اتجهت صوب البراكات، كنا نجتمع في إحداها حين ننتظر، لكن رئيس قسم التنفيذ المركزي تأخر أيضاً.

شاب مليء الجسم كبير الرأس كان يقف على باب براكة طرفية عتيقة.

نادى حين لاحظ الحيرة على خطواتي ونظراتي: تفضل ياأستاذ حسان! تفضل إلى هنا! دخلت مستغربا مناداتي بالاسم، استقبلني باشا بوجهه الواسع وعينيه اللتين لاتبعثان على

الاطمئنان. ثم بدأ الكلام فور جلوسنا على كرسيين خشبيين حول طاولة قديمة.

– شمعون يوسف مراقب فني تابع اسميا لمشروعكم (الشرشار). أنت جديد على الفرع والشركة يا أستاذ.. كيف حال المشروع ورئيسته؟! والسيد المدير لايترككم تشتاقون إليه كثيراً أليس كذلك؟!

أجبت بإيجاز شديد... وحذر باد:

المشروع كما علمت مهم للفرع والمدينة والوزارة أيضاً وطبيعي أن ينال الرعاية والاهتمام..؟! وهل في هذا غرابة؟!

– مهم فقط؟! إنه شديد الأهمية! المشروع الوحيد في الفرع..!

كيف لا ورئيسته الآنسة هدى شعبان؟!

ثم توقف .. أطلق زفرة طويلة وعاود النظر في وجهي باهتمام وجدية أكثر:

الصحيح يا أستاذأن هدى خانم هي التي تهم الأستاذ عساف! لا المشروع، ولا الفيضان الذي يتهدد المدينة، ولا المردود الاقتصادي الهام الذي يؤمنه للفرع، مردودها هي بل مردودهما معاً هو المهم والأساس! ولم يتركني أستغرب ماذكره، ولا جرأته في الحديث وثقته بي بل أضاف:

نعم يا أستاذ.. هناك علاقة بين السيد المدير والآنسة المحترمة!

كل عناصر الفرع يعرفون هذا بل ونصف سكان المدينة!

ولم لايعرفون؟! هل يتصرف مديرنا المبجل سراً؟! إنه يرافقها كل ساعات الدوام وساعات أخرى بعد الدوام؟! لماذا يتأخر صب البيتون في مشروع (الشرشار) فقط إلى آخر الدوام؟! ويستمر وقتاً اضافياً؟!

لماذا تسحب الآليات وتوقف المشاريع أو تتعثر لصالح مشروع (الشرشار)؟! لماذا سيارتها أفضل سيارات الفرع بعد سيارته؟! وسيارات الخدمة لديكم أفضل من كل سيارات الخدمة في باقي المشاريع؟!

يضحك قليلاً بعد أن يعض على أسنانه ويتابع:

– لاتتعجب من حديثي! أنا مغضوب علي أتعرف لماذا؟! احزر لأني ضبطتهما في براكة القسم الغربي..! عوقبت وكلفت بحساب كميات المشروع عدة مرات وطلب مني الدوام هنا في هذه البراكة. من أول النهار إلى آخره ممنوع أن أغادر مقر الفرع، وممنوع علي الزيارات؟ والإجازات العادية والصحية.

كان يتحدث بتشف وحب انتقام وتجحظ عيناه وهو يحاول أن يكون واثقاً من نفسه غير منفعل وإنما يذكر أحداثاً يعلمها كل الناس:

وقد يكون كل عناصر الفرع قد انتشوا للأمر، وانفعلوا به، ثم أصبحت الحالة امراً واقعاً.

وأضاف أخيراً بنبرة أستاذ واضحة:

- يجب أن تنتبه لنفسك وتأخذ حذرك من كل تصرف أو حديث، إنه يؤذي ويعض من يتعرض لهذا الأمر. وله جواسيسه من بين العمال والسائقين والحراس بشكل خاص أما في غير هذا المجال؟! فلا بأس إذ إن كل أخطاء العمل مغفورة وكل هفوات التنفيذ موجودة المهم في الأمر أن تغمض عينيك وتمشي كحمار قبرصي..! والعبارة الأخيرة لم يقلها شمعون بل أحسست أنه يقصدها..!!

* * *

كنت أخرج من باب براكته لألاقي (أبو عماد) الذي يبحث عني حين مرت بسيارتها قاصدة مكتب رئيس الفرع. تجاهلتني وأنا متأكد أنها رأتني.

قال أبو عماد الذي اعتذر طويلاً عن تأخره لعطل في السيارة:

- أنت جديد في هذا الفرع يا أستاذ / حسان/ ماذا تريد من القيل والقال. ولاتصدق كل مايقال! شمعون ثرثار، يحب الأنية لايعرف الخير ولايحبه حتى لأهله! والمدير يكرهه، والآنسة كذلك!

وقد يغضبان لو يعلمان أنك تزوره..! أما رأتك عنده؟!

- أعتقد ذلك! لكنها تصرفت كأنها لم ترني-لابأس- هذه أول مرة أزوره فيها وكما تعلم لا أعرف أحداً هنا وأنت تأخرت وعطل المطر..! وجعلني قلقت..! هذا كل ما في الأمر..!

وقال المراقب: ماقاله شمعون حول العلاقة صحيح..! لكن مالنا ولهذا كما قال جحا: (المهم أن لا يكون فينا)!! وضحكنا معاً وبإيقاع واحد، وربما كان هذا الشيء الوحيد المشترك الذي اتفقنا عليه حتى الآن..

وقال أيضاً: شمعون إنسان فاشل يقضي وقته بتحريض العمال على الثرثرة والتمرد، أعرفه جيداً غير مهتم أبداً ولايصلح لشيء، أما قضية حساب كميات المشروع فهي طريقة لإبعاده من بين عناصر المشروع.

-لماذا لايتزوجان إذا كانت علاقتهما بهذه الحميمية..؟!

- ضحك أبو محمد وقال: يتزوجان... وأين يذهب بزوجته وأولاده!

- وهل هو متزوج؟!

-له أولاد ثلاثة يسكن...! وزوجته امرأة محترمة..!! إنها تساوي عشرين واحدة من الآنسة هدى خلقاً وجمالاً وتهذيباً.

وهي تعرف بالعلاقة لكنها آثرت الصمت بعد أن جربت حظها، وبعد أن تعبت من المشاكل والمشاحنات والوسائط التي لم تنفع!!

وهو كما ترى لايستحي، يأتيان إلى هنا وحين لايكونان في المشروع يكونان في المكتب أو في القسم الثاني حيث المكان أكثر سرية..!

وقال ابو محمد ربما لي وقتها أن أبوابه انفتحت:

إنها لاتفهم شيئاً.. لاتعي ماذا يحدث في المشروع حتى شروطه ومواصفاته الفنية لاتعيرها أيّ اهتمام تأتي وتذهب فقط تسأل وتمضي. وللحق فإنها شاطرة في توزيع الآليات التابعة للفرع في مكان واحد هو /مسيل الشرشار الاصطناعي/..!!

* * *

- ٧ -

ما إن توقف المطر بعد يومين من الهطول الغزير المتقطع حتى عادت الرياح الشرقية تصول وتجول بشكل لم تعهده المنطقة الساحلية في مثل هذا الوقت من السنة على الأقل.

ويمثل هذه الاستمرارية، أسبوع، أسبوعان، ثلاثة لم تتوقف.

برد غير عادي يقيم ماأقامت، بعد شروق الشمس وحين تخلو السماء من الغيوم التي تجرها الريح كيفما اتفق، تكون الحال مقبولة: سوى هبات قاسية باردة جداً. أما قبل الشروق وبعد الغروب أو حين تتغطى السماء بطبقة عالية من السحب التي

لاتمطر، بل يقتصر وجودها على إخفاء الكرة المشتعلة وتغييب إشعاعاتها؛ فيتحول الوضع كئيباً بارداً يصب بؤساً على الناس وحركتهم وتململاً وزفرة ويأساً. وعلى العمال الذين – من سوء حظهم وحسن حظ الشركة – يستمرون في العمل لأن الخندق محمي من الرياح، ولايوجد مايعيق العمل لا الصقيع ولا البرد القارس حين ملامسة المياه و(البيتون) أو مياه الغسيل والمجارير التي تصب مشرعة في الخندق، نافرة من كل البيوت التي تجاور الحفرة الطويلة من الجهتين مع الروائح العفنة التي توزعها بلا حساب ولا تنفع كل الشكاوى أو الاعتراضات من هذا العامل أو ذاك. فالحل هو أن يستمر العمل بوتائر أعلى وكل مايمكن عمله هو تحويلها عن مكان العمل الآني بقساطل معدنية أو بلاستيكية أو أقنية عابرة في أوقات الصحو غير المُطمئن.

أنتقل من ورشة إلى أخرى أتوقف قليلاً ،أسلم على عناصرها بتودد، أعلق على بعض الأعمال الصغيرة التي لاتستحق في معظمها التعليق. أسأل عن المشاكل وعن رئيسة المشروع ومدير الفرع، يجيبون إجابات ودودة في البداية ثم كلمات مقتضبة وموجزة على الأسئلة الأخرى.

منهم من ينظر الي مستفهما ومستغرباً أسباب أسئلتي ويصمت.

منهم من لايكترث بالأمر كأنما ملّ من التفاؤل والثقة بالمسؤولين. وآخرون يذكرون ملاحظات هامشية كتلك التي اعلق بها على تنفيذهم.

أسئلة عن قريتي وقراهم ، أوضاعهم العائلية ومواسمهم وقلة الأمطار والهواء الشرقي المقيت.

تساؤلات كثيرة كنت أقرؤها في نظراتهم وحركاتهم، لابد أنهم قالوا:

ماسبب اهتمام هذا الأستاذ بنا إلى هذا الحد؟! لماذا يأتي إلينا يومياً..؟!

ولاشك أنهم أجابوا سراً أو علانية: إنه يأتي لقضاء (الحاجة) بين أشجار الزيتون الكثيفة. هو المداوم طوال اليوم، أو أنه يسلي نفسه فلا عمل له، لم يتركوا له حلاً..!

ولابد أنهم اختلفوا في التصنيف: هل هو من أعوان المدير أو رئيسة المشروع..؟! يتجسس علينا أم أنه يستلطفنا لكسب تأييدنا له؟! ويضحكون سراً أو علانية..!!

وهل سيرشح للنيابة؟! وماذا تنفعه الشعبية وهو لاناقة له ولا جمل، وليس بمقدوره فعل شيء..؟! مثلنا مثله؟! ترى هل يخاف أم يخجل؟! أم أنه لازال جديداً على العمل والعلاقات والمسؤولية؟!

وتظل أسئلتهم معلقة في رؤوسهم. تهبط إلى مستوى الشمس حين نلتقي في الصباح قبل الانتشار، وعند التجمع في نهاية النهار، وأثناء تجوالي بينهم. كانوا يسألونها لأنفسهم ويتبادلونها فيما بينهم ويختلفون في الإجابة عليها. وصاروا يتنافسون بعدئذ بالمراهنة على التوقعات الإيجابية. هذا ماعلمته من الحجّارين فيما بعد!

* * *

كانت ورشة الحجارين قائمة تحولي عالم المشروع الموحد من كل الجهات بإحكام. فقد كانت جولاتي تنتهي إليهم بعيداً نحو الشمال الغربي.

خمسة رجال مكبون على الحجارة السوداء، يزيلون الزوائد ويجهزون وجوهها وحوافها لتصبح صالحة للرصف في أرضية الخندق.

بعد زيارات عديدة تعارفنا وكان ثلاثة منهم من قرية قريبة إلى قريتي.. وقالوا أنهم سألوا عن أصلي وفصلي..! فشكرتهم على مبالغاتهم المحتملة.

حين سألتهم عن الأنسة هدى، وكنت قد فعلت ذلك مراراً قبل ذلك، قالوا:

– اسألنا عن (أبو محمود) فهو مدير المشروع عندنا...!

– أبو محمود؟! من هو أبو محمود؟! هذه أول مرة أسمع به!

– أبو محمود ابراهيم العلي المحاسب وأمين المستودع مقره في القسم الثاني من الشرشار الغربي. إنه كعزرائيل سواء بسواء.. تصور يا أستاذ هو الذي يرفع التفقد حتى بعد أن يرسله (أبو محمد) يغيره ويبدله على كيفه.

كل شهر نجد حسميات لانعرف عنها شيئاً! كيف يتم ذلك ومن أين يأخذ المعلومات؟! الله يعلم! كثيرون يغيبون أياماً لاتعرف عنهم المديرة شيئاً، لكنهم يجلبون البيض و (الشنكليش)

و(المساري) فيتقاضى عنهم أما نحن فالتأخرُ خمسَ دقائق يعني غياب اليوم كله. يسجلنا المراقب، وأحياناً نسجل دون علم المراقب: بعض العاملين يملكون مشاريع ولديهم مواسم خيرة يمكن أن يحسبوا حسابه منها، أما نحن فمن أين لنا مثل هذا ؟! ياحسرة؟!

لاتؤاخذنا يا أستاذ نحن نملأ رأسك بهذه الأحاديث؟! منذ زمن بعيد تركنا الحديث عن هذا لأحد.. تصور يا أستاذ.. الأحنية الشتوية قال أنها للذين يعملون في الخندق في الوحل والمياه؟ وهل نحن نعمل فوق البلاط؟! الوحل يحاصرنا من كل الجهات والطريق من هنا إلى البراكة تعرفه، وهذا حذاؤك مغطى بالوحل.

طبعاً هذه حجة! من يرضى عنه يعطيه له ولأقاربه! ولديه مايبيعه أيضاً كما يبيع بذلات العمل، لدينا أكثر من شاهد إثبات ممن اشتروا منه وهم خارج المؤسسة!

– ولماذا لاتشتكون ؟! لماذا لاتحتجون؟!

– نشتكي ؟! لمن؟! للآنسة هدى؟! الله يخليها ، لاتترك أية فرصة لتتحدث إليها، دائماً مع المدير! مرة تحدثنا بهذا فعاقبنا المدير. إذ كيف نتجرأ ونتحدث عن أمور سخيفة، أمور مختلقة. (أبو محمود) رجل قديم و موثوق وصاحب دين لايعمل مثل هذه الأعمال.

أتعرف يا أستاذ كل عمال الشركة يكرهونه وبالأخص عمال هذا المشروع، إلا المستفيدين. يأتي الراتب ونفاجأ بالمسميات ويقولون: انتم غبتم، لاتذكرون.. تتناسون..! بعد أربعة أشهر من منا يتذكر إن كان قد تأخر أو لم يتأخر..؟! في الواقع قلّت زيارات المحاسب إلى هذه المنطقة بعد مجيئك، لكنه يسأل عنك يتقصى أخبارك. قال لنا ذلك زملاؤنا في القسم الغربي.

هناك شيء آخر يا أستاذ، نحن: عاملان نقوم بكل أعمال المعلمين. وهؤلاء أمامك اسألهم ..! ننجز عند الحجارة نفسه الذي ينجزونه، ونعمل معا يداً بيد، وإزميلاً بإزميل، مع هذا تسميتنا في الذاتية عمال، ورواتبنا أقل منهم بكثير.. قدمنا طلبات كثيرة لتغيير الصفة لكن كل الطلبات تتوقف عنده وتموت..! تقول أننا نقبض من جيوب والده!

بَعد هذا: كل مرة هناك نقص. كل شهر راتب مختلف، الفراطة لاتتحدث عنها. ليس هذا فقط أيام تلغي وعقوبات تفرض دون علم أحد.. ولا من يسمع ولا من يرى أو يحس..!

عدت مساء ذلك اليوم بعد أن وعدتهم خيراً. وقد شعرت لأول مرة بالمسؤولية تضع أوزارها على ظهري، وأحسست أن دماً جديداً بدأ يدور في الشرايين، ومسافات مهمة تمتد أمامي تغري بالجري والانطلاق مع كل ماقد تحمله من حجارة وأشواك..!!

* * *

— ٨ —

المراقب (أبو محمد) تنحنح وقال بلا اهتمام: لاتصدقهم، لا عمل لهم إلا القيل والقال، يثرثرون بلا مبرر، يستدرون عطفك لأنك لاتعرفهم، المصائب بعيدة عنهم، أنا من يسجل لهم الغياب بالحضور، ويوقع جداول الدوام، هم لايعرفون مايقولون ولا يحسبون التأخير ولايذكرونه، ينسى الواحد منهم ماذا تعشى مساء أمس.

أنا نبهتهم، والآنسة حذرتهم أن أي تأخير غير مقبول وأي تقصير يقابله حسم من الأجر.. إذا كنا سنترك المجال مفتوحاً أمامهم، ونستمع إلى اعذارهم، فإننا لن ننجز شيئاً: هذا ولده مريض، وهذا زوجته في أيام حملها الأخيرة، وذاك لديه عمل ضروري في دمشق، وآخرون يغيبون بحجة لدفن ميت في قريتهم إذن: كل الناس في وظائفهم، إذا لم يتغيبوا من سيدفنه؟! ومن سيقيم الطقوس النساء أم الأولاد..؟!

تصور هذا العذر كأننا نعمل في جمعية دفن الموتى... وما علاقتنا بهذا الأمر.. أنت يا أستاذ لاتعرف ولاتتوقع من أين يأتونك بالأعذار.

والموضوع بسيط ولايستحق أي اهتمام أرح نفسك منه.. هذا أحسن لك..

وقالت الآنسة هدى:

أبو محمود رجل آخرة لايسمح أن يقال عنه هذا الكلام، وهو أقدم محاسبي الفرع؛ صحيح انه لايحمل شهادة لكنه يدير مستودع المشروع باقتدار.. ومن يدير أمور المشروع، يمكن أن يسيطر على الفرع كله.. هذا مشروع كأنه فرع بل أعقد منه، وموادة لاتعد ولاتحصى. مع هذا فهو لايترك شاردة ولا واردة. وأنا أثق به كثيراً ولا أدري من دونه كيف كنت سأتصرف؟ أنا التي طلبته. واحد غيره كان يضيع بين طلبات العمال والسائقين: الخشب، الاسمنت، المعاول، الرفوش المهدات، ثياب العمل، الأحذية، كلها في رقبته يمكنك أن تقدر مدى جدارته إذا قلت لك أني لم أتلق اية شكوى منه أو عنه. أليس هذا مدعاة للإكبار والاحترام؟ مع أنه مسكين يسكن بالأجرة وله ستة أولاد وليس له مورد رزق إلا راتبه. الله يساعده!!

لذا أصرف له عملاً إضافياً ومكافآت أحياناً وهذا أقل مما يستأهل..

وأنا لا أتدخل في شؤونه وأحياناً كثيرة لا أدقق في جداوله إنه من أعمدة المشروع لولاه كنا دخلنا في مشاكل لاتنتهي، وحين أسمع ويخبرني الأستاذ عساف بمشاكل محاسبي المشاريع الأخرى أحمد الله على (أبو محمود) ويمتنني به ويقول: اضحكي يعيك أنت في نعمة..!؟

أي شيء تريده يا أستاذ حسان يمكن أن تطلبه من (أبو محمود) مباشرة بدون الرجوع إلي..! سألني عنك وحدثته ووجهت في هذا المجال وهو لايخالفني أبداً.

شمعون المراقب المتقي قال:

متفقون ثلاثتهم: رئيس الفرع ورئيسة المشروع والمحاسب يدخلون المواد ويخرجونها كما يشاؤون: لماذا مواد مشروع مسيل (الشرشار) لاتمر على مستودعات الفرع المركزية إلا عبر جداول؟ تدخل وهمياً وتخرج كذلك. مستودعات المشروع صارت أكبر من مستودعات الفرع المركزية.

كل شيء يمكن أن يدخل إليها؛ حتى المواد التي لاتستخدم في ذلك المشروع.

أنا أقول لك وأسألك: أنت مهندس مدني ومشروعكم خندق تحت الأرض: بيتون واسمنت والحديد لايستخدم إلا في الأطراف العلوية للجدران فلماذا تغص مستودعات المشروع في القسم الغربي بالحديد من مختلف الأقطار... وهي مرمية في الساحات خلف البراكات.

وماتدخل المواد الكهربائية والأسلاك؟! والمواد الصحية: الأنابيب والمنفيات؟ صدقني لا أحد يعرف إلا الله ماذا يدخل إلى المستودعات أو يخرج منها. العمال يترجون المحاسب من أجل (جزمات). يسلمهم واحدة في العام ويسجل ثلاثاً أو أربع.

صواعق ومواد تفجير تستخدم في الجزء الغربي ، من يعلم أين تذهب جميعها ... يصرف منها في الجداول مايكفي لحرب طويلة الأمد! ماذا أذكر لك لأذكره؟

سأقول لك شيئاً هاماً... خرج الى الباب تأكد من أن أحداً ليس في الخارج، عاد وجرَّ كرسيه إلى جواري أكثر وقال:

هناك باخرة اسمنت انتظرت طويلاً في البحر وتعرضت للرطوبة وفقدت الكثير من خصائصها وصارت غير مقبولة في الأعمال الهندسية؛ اشتراها الأستاذ المدير سراً وبسعر منخفض، ودخلت مستودعات المشروع واستهلكت على أنها اسمنت عادي وبسعر الاسمنت العادي نفسه.

كل الناس تحدثوا بهذا الأمر، فقد سحبت من المرفأ ليلاً الى مشروعنا في المرفأ ثم إلى مشروع (الشرشار)! كثيرون شاهدوا العملية لكن أحداً لايتجرأ على الكلام؛ خاصة أمام الموظفين الجدد الذين أغلبهم من أقربائه أو معارفه.

سأقول لك شيئاً آخر: أحد أقرباء المدير سائق خمسيني، باسمه سيارة بيك أب كبيرة، يذهب بها لوحده إلى قريته البعيدة ويأتي يومياً.

مئات الكيلومترات يقطعها كل يوم، بينما أنت مهندس تذهب مع العمال وتأتي معهم؛ تخرج من بيتكم قبل طلوع الفجر لتمر على القرى؛ وفي نهاية النهار تعود إلى القرى ذاتها لينزل العمال

في بيوتهم! والسيارة ليست باسمك، ولست سوى راكب كأي عامل في المشروع! الفارق أنك تجلس جوار السائق.

ليس هذا فقط يقولون أن صاحبنا يهرب بها؛ يأتي بمواد من لبنان، حيث قريته قريبة من حدوده، ويبيعها في هذه المدينة، ويقولون أنه متعاقد مع بعض التجار الذين يمولون الفرع عن طريق لجنة المبايعات

وأكثر من ذلك وهذا على ذمة عمال (الكازية) فقد ركب أسفل السيارة وفي مكان مخفي خزانا إضافياً يتسع لمئات اللترات من المازوت كأنما خزان طائرة..!

يملؤه كل يوم وتسجل الكمية على مشروع (الشرشار) وتصرف هناك... طبعاً الحجة أنه يذهب مهمات طويلة ومتواصلة.. والمشروع رابح كثيراً يمكن أن يتحمل.. ولكن كل السيارات تذهب مهمات ومسافات طويلة لماذا لايركب عليها مثل هذا الخزان؟

كان شمعون يتحدث ويحدق فيّ بعينين واسعتين تصبان نيراناً وفم كبير يقذف بصاقاً. كان يراقب كل حركة مني أو تعبير يظهر على وجهي يدل على دهشة أو مفاجأة أو استغراب كأنما تزيد هذه الملامح من هياجه الذي يتزايد باطراد. وبالفعل كنت مصعوقاً بما أسمع، كيف يمكن أن يحدث كل هذا وبكل هذه البساطة وتلك السهولة وذاك اليسر؟ أين الناس، أين المهندسون، رؤساء الاقسام، رؤساء المشاريع، العمال...؟

وحين يسمع تساؤلي ينشرح شمعون، يستوي في جلسته، يضع رجلاً فوق رجل ينظر إلي باستعلاء كأن بابا آخر انفتح أمامه ومجالا أوسع يمكن أن يطرح فيه سعة اطلاعه وخبرته ومعرفته ببواطن الامور:

اسمع ياصديقي، واسمح لي أن أناديك بهذه الصفة، صحيح أننا لم نتعارف إلا منذ أيام قليلة، لكني أحس أن بيننا شيئاً مشتركاً بل أشياء كثيرة.

رؤساء الاقسام، ياصديقي، ليسوا سوى دمى يحركهم الأستاذ عساف كما يريد، ومتى يريد فعند كل تغيير يحدث يأخذ صدى بين الناس والإدارة العامة والأوساط كلها في المحافظة وفي الفرع على أنه تغيير مهم في المناصب، بينما في الواقع هو ليس سوى حركة بهلوانية! فرئيس قسم المبايعات يصبح رئيس قسم الأمن الصناعي، ورئيس هذا الأخير يعين رئيس قسم الإمداد، الذي ينتقل رئيسه ليصبح رئيس قسم الخدمات. وهذا بدوره يذهب إلى قسم المبايعات ويدخل معهم أو يخرج مدير المحروقات وأمين المستودع المركزي.

المهم أن تبقى السيارة مع كل منهم، لذلك ياصاحبي لاداعي للمواجهة ولا داعي للشهادة أيضاً! فشهادة الثقة هي المعتبرة وهي التي تقنع المدير برؤساء أقسامه. وهي ثقة مطلقة لايعتريها أي وهن أو تعب ولا يفقد مفعولها بالتقادم إلا من تجاوز طمعه الحدود المقررة!

هناك رؤساء أقسام ياعزيزي مقيمون (ما أقامت ميسلون)! فمدير الآليات يحمل شهادة عليا في الابتدائية وشهادة سواقة عمومية، ورئيس قسم الإصلاح شهادته ثانوية، تجارية ومدير المجبل عامل موهوب، ومدير القلابات سائق لامع! كل شيء يجري هنا بالخبرة والعادة والمعرفة.

* * *

وهكذا.. دفعة واحدة أجد نفسي أمام أمور عجيبة لاتصدق وأقول أحياناً: إن هذا الرجل يكذب أو يبالغ كثيراً لأنه معاقب ومنقول ومغضوب عليه، وأقول أيضاً: لادخان بلا نار، والأيام قادمة، فعلي أن أكون حذراً.

أما هذا المراقب، فقد خرجت بانطباع كنت متأكداً منه لسبب أجهله. هو أنه يستحق العقاب حقاً، وتأكدت من أن أحداً لايزوره فكلما أتيت إلى مقر الفرع صباحاً أو ظهراً، على ندرة هذا، أجده وحيداً ويدعوني بل يلح علي ويجبرني على الدخول هو وتوقي لسماع المزيد..

يقول: لدي خبر جديد نسيته أن أذكره لك. ويقول: إن زيارته محظورة بؤامر من رئيس الفرع شخصياً.. ويتابع وهو يضحك ضحكة جحيمية:

«يبدو أنك لم تسمع بهذا القرار.. وأخشى أن أجدك مقيماً هنا ذات يوم...»

وعلمت بعد حين أنه مكروه من كل الناس، العاملين في الفرع والمشاريع وسكان المدينة الذين يعرفونه وأهل قريته وزوجته وربما أهله..

مع هذا فقد كان ماعرفته مفيداً، وبدأت أجد مبرراً للانقباض التي ارتسم أمامي من أول نظرة إلى مدخل الفرع في ذلك اليوم الخريفي القلق...

الفصـــل الثـــالث

— ١ —

العين الكونية تغذ سيرها في مسارها اليومي: هامش جحوظها يزداد مع ازدياد قساوة ملامحها وقد ابتعدت عن الجبال.

مستنداً إلى جذع الشجرة اللغز/، تتناثر أمامي بيوت (المصلّبة) متباعدة حيناً ومتكاثفة حيناً آخر، مجاورة الطريق مرة ومبتعدة عنه مراراً..

◆

(المصلّبة) تاريخ من الضياع والشقاء والخوف والأماني، حكاية دامية ونبض معذب وامتداد بعيد في متاهات السفوح والوديان والظلام، وانطلاق مدهش نحو الذرى والضوء والتلال.

إلى زمن قريب كانت (المصلّبة) بيوتاً واسعة قليلة متجاورة: كتلاً محدودة، متصلة سطوحها ومشتركة جدرانها بكوى ونوافذ صغيرة تلزم حين المرض أو الولادة أو الاستغاثة من مداهمة لصوص عتيدين.

الجدران حجرية مزموجة، والسطوح خشبية ترابية، والأبواب والشبابيك من الخشب السميك الثقيل بمغالق غليظة متينة. تتوزع

الفراغات الداخلية مغارات تحمل الأسقف والمرايا الصغيرة والأشياء العزيزة الكثيرة بصبر واستكانة، وحواف تفصل الأرضية إلى قسم للدواب وآخر للبشر: نساء قليلات يتدبرن بصعوبة شؤون الماء والطعام والدواب؛ ورجال يذهبون بعيداً للعمل في المدن أو للحصاد في السهول الموغلة في البعد والامتداد، أو للدّراس في الأماكن المطلوبة؛ عجائز مع بعض العائدين يجتمعون (وراء السطح) يتبادلون المسموعات والاقتراحات والرغبات والمزاح الفج والشجار الذي ينتهي على عجل.

العراج تحيط بها من كل جانب: سنديان وبلوط وزعرور وأشواك وآس وشيح وصنوبر؛ لا أراض للزراعة ولا أشجار مثمرة، لكأن هذه البيوت نبتت على غفلة من الطبيعة فحاصرتها، أو أنها هبطت من السماء عنوة فأطبقت الظلام عليها.

بيوت غائرة في حضن الجبل تستسمحه وتستجيرُ به، تُغالبُهُ وتتودد إليه، تفترشه وتستدفيه.

*

لم يكن انتقال القرية من أسفل السفح إلى الذرى أمراً عادياً، بل كان تغيراً يصل إلى حدود الانقلاب في كل شيء.

انفصال السطوح وابتعاد الجدران رافقه انفصال في المشاعر وابتعاد في القواسم المشتركة بين الناس الذين ازداد عددهم،

وتنوعت ميولهم وتعددت طرق تفكيرهم، وزالت حساسيتهم وغيرتهم ومشاكلهم وقسوتهم، بعدما غادرهم دفء أخشاب السقف، وإلفةُ حجارة الأرض وحُنُوُّ طينتها، وحاصرتهم قوانين الاسمنت وحياديتُهُ، بل وقسوتهُ في أحيان كثيرة.

وهكذا، غارت المصلبة العتيقة في القاع بيوتاً مهدمة وزواريب مقفرة وطرقات مهجورة، نبتت فيها الأعشاب ثم يبست، وغابت عنها الخطى، وظهرت بدلاً منها هذه المصلبة الجديدة شكلاً أخطبوطياً بلا خارطة أو وجه مميز أو لوحة مفهومة أو تفاصيل منسجمة.

تقذف المصلبة الجديدة أبناءها يومياً إلى صناديق معدنية متولبة، تكبسهم وتهيئهم للعصر في مكابس المدينة، لتعيدهم في المساء هياكل خشبية تأكل ماتيسر وتشرب كل أنواع الشراب الدافئة والحارقة والباردة. وتلعب الورق وتتشاجر لأهمّة وراء فوز أني، ثم تمارس طقوس اللذة الأسهل، وتنام لاتلوي على شيء. لتعود في الصباح إلى الصناديق ذاتها والمكابس عينها.

أما الأرض والزيتون والأشجار الأخرى فهي لبعض العجائز والنسوة ومن استطاع إليها سبيلا..

في المصلبة الجديدة حيوانات تجتر طعاماً ولاترعى.. وأحياء تجتر أحاديث وأقاويل وشجارات وصداقات وخصومة ولقاءات عرضية وأخباراً سياسية وحروباً مقيمة أو متوقعة. وتفتخر

بولادات كثيرة في غير مواعيدها وأطفال لايشبهون آباءهم، وتفاخرُ بدورها الحضارية سواداً وأشكالاً وألواناً، تلك التي قامت على أنقاض لهجات فتيات أخرجْن من المدارس واشتغلن في بيروت أو غيرها بكفاءة عالية، وعُدْن من هناك في عز الشباب، فضِعْنَ وَهُنَّ يبحثن في القرية عن ظلال ماضٍ وبقايا مستقبل. بينما عاد رجالها من هناك بخبرة عظيمة عن المقاهي والملاهي وأخبار الفنانات والفنانين، وقدرة كبيرة على التّفكه والمزاح الثقيل، والشراب والسخرية على أبناء القرى الأخرى الذين أضاعوا أوقاتهم في تعلم مهن كثيرة لازمة للمصلَبة الجديدة بالذات. بينما أهلها يحمدون الله كثيراً على أن عودة الكثيرين منهم كانت قبل الحرب المدمرة وإلا لكانت الكارثة!

هذه هي المصلبة الجديدة: أوقات تُسحق.. وجهود مجمدة أو ضائعة تحت حوافر المدينة، ومواسم تنتظر التحريض والترغيب، وأغنيات هجينة تعلو من آلات التسجيل الوافرة، وصور مشوهة وعلاقات متورمة من الحقن المضادة للذاكرة وأخرى مزينة بألوان العفن القديم.

تسيطر عليها عقدة نقص كبيرة تترك آثارها على كل النفوس، فهي على الرغم من الامتداد والعلو والأبنية الحضارية والطرق الاسفلتية والمياه الممددة إلى الدور، والعشرات من أبنائها وبناتها الذين يتعلمون في العاصمة والمدن الأخرى أو يعملون فيها. وعلى

الرغم من المسؤولين الذين أنشئوا في ترتيبها، وخرجوا منها، لم تحظ بشرف أن يكون اسمها (قرية المصلبة) بدلا من مزرعة المصلبة وأن يكون لها (مختارة) مستقلة، وهيئة اختيارية فاعلة. في حين أن عضو الهيئة الاختيارية الذي يمثلها حالياً مضربٌ عن التوقيع والاجتماع والعمل منذ زمن بعيد. أما الآخرون فهم يرون في أنفسهم الجدارة لأن يكونوا جميعهم أعضاء في الهيئة الاختيارية الحالية بدلاً من (أبو حسين) أو مخاتير في (قرية المصلبة) المستقلة..

* * *

— ٢ —

تطوّرات مهمة حدثت في المصلّبة قبل أن تخلع جلدها كاملاً، تطورات غيرت كثيراً من معالمها وشوّهت – على رأي العجائز – أو زينت – على رأي الجيل المتحضر – صورتها. اخترقتها الطريق المنحدرة بشدة من أعلى السفح من أولها إلى آخرها، مخلتها الآلة /الفول والتهمت الحجارة المرصوفة في حفافي عتيقة، والأشجار والحواكير والزواريب. طريق بعرض ستة أمتار دارت حول البيوت قليلاً ثم استأنفت سيرها إلى قرية أخرى.

لم تمر هذه الخطوة المتقدمة جداً دون ثمن: اعتراضات ومشاحنات، وترضيات، خاصة من المسنين الذين رأوا في هذا

العمل اعتداء صارخاً على كل منهم وإيذاناً بأفول شموسهم، وفألاً أسود تترنم به النجوم، فهاجوا وثاروا وسبوا وشتموا ثم هدؤوا وصمتوا.. و ماتوا!!

*

قالت جدتي: الحق على عمك، هو الذي جاء بالطريق إلينا. كنا نعيش كأسرة واحدة، يسمع الواحد منا أنين جاره أو تهدته أو صياحه قبالته.

كنت أتمنى أن تقلع عيني وتصم أذني، ولا أرى ذلك المنظر، ولا أسمع ذاك الدوي: آلة كبيرة كبر بيتنا، تهدر كما الرعد في كانون، جمحت إلى حاكورتنا، التهمت الحجارة واقتلعت اللوزة العزيزة والجوزة الغالية، وأزالت الجرن والتنور وقن الدجاج.

وماذا أفعل؟ كان عمك يمشي معها، هو الذي أتى بها. لو كان أي واحد غيره والله مارضيت. وفي الحقيقة أنا لم أرض وصرخت قبل ذلك وحين كانت تدور كالمجنونة قرب البيت، وبكيت ولم أستطع تحمل المشهد، فرميت نفسي أمام الجوزة ثم غبت عن الوعي. وحين أفقت، ليتني لم أفق.. ليتني مت أو عميت آه..

أنظر إلى بيتي الآن صار على حافة الطريق.. أي دابة يمكن أن تدخله وأي ولد شقي أو (حرامي) أو محتال. صحيح الطريق واسعة ومريحة ولكن هل يجوز أن تكون الدار مفتوحة على كل الجهات..؟ ومعرضة لما هب ودب..؟

وابنتي عمي داره فوق، ورفضتْ جدتي مرافقته مرات، وحين أجبرت على ذلك، ماتت بعد سبعة أيام فقط. لم تمرض ولم تعجز، فقط أصيبت بالصمت المطبق، لم تتكلم، ولم تبك، ظلت متجهمة كئيبة يائسة، لم تنم طوال ستة أيام. في اليوم السابع وكان يوم الجمعة نامت. وما أفاقت بعد ذلك أبداً.

*

– مالك يابرهوم؟ أمازلت تبحث عن (مصلبتك العتيقة)؟إلى الآن ماوجدتها..؟!

–لا ماوجدتها، ولكن سأجدها، أين تذهب؟ كانت هنا، غبت قليلاً، وحين عدت لم أجدها، أين تروح؟ لن تفلت مني..

– هذه هي (ياعمي القرد) هل جرى لعقلك شيء؟ أما ترى ابراهيم اليوسف وأحمد المحمود وأسعد العلي ومزنا ومارية وشفيقة..؟!

– لاتضحكوا علي. كلكم تقولون هذا، لابد أن عقولكم هي التي أصابها المرض أو أنكم ستحاولون أن تلعبوا بعقلي، أين حاكورتي؟ أين لوزاتي ورماناتي؟ أين السنديانة التي لا أعرفها إلاّ صبيةً؟، أين الصفافي التي عمرتها بيدي هاتين؟ بل أين الذين تذكرونهم؟ هه..المصلبة العتيقة ضاعت مني في غفلة وأنا الآن أبحث عنها.. أنا لا أستطيع العيش إلا فيها ولن أهدأ حتى أجدها..

– عقلك الذي ضاع.. وليست هي.. ولن تجدها لأنك لن تجده.

– هنيئاً لكم بعقولكم.. وأنا راض بعقلي، والله يهدي المحتاج!!

*

هذا هو برهوم العجي، حارس المصلبة الامين ومختارها غير المتوج، كما كانوا يسمونه، وعنوانها ورمز تاريخها ورايتها.

كل رجال القرية وشبابها سافروا للعمل.. خارج القرية فترة من الزمن تطول وتقصر، كلهم ذهبوا وعادوا مرات، لكن برهوم العجي وحده لم ينجب نصحوه ورغبوه وبخوه رفزئوا منه وأضافوه إلى قائمة نساء القرية. وأصر على أن يقضي كل وقته في الأرض يستخرج منها الحجارة، يصفها في سلاسل طويلة متعددة. أحاط بيته بسور عال ونظف أرض الحاكورة من كل حجر صغيرة أو كبيرة؛ زرع أنواعاً من الأشجار: الرمان واللوز والجوز والمشمش والعنب، صارت حاكورته مستظلاً وملتقى تحلو تحت أشجارها الأحاديث في الأصائل وفي ليالي السمر الجميلة، وتعلو منها المواويل والعتابا والميجنا والدلعونا بكل ألوانها. وقد تعقد الدبكة. وصار اسمه المختار..

جاؤوا وعرضوا عليه الأمر بهدوء وبكلام منطقي:

– ألا ترى يابرهوم أن ضيعتنا مقطوعة ومنفية، لا سيّارة تعبرها ولا أية آلية أخرى؛ نسافر منها ونعود إليها راجلين،

أغراضنا وحاجاتنا نحملها نحن والحمير التي تعبت. حتى الأطباء يرفضون أن يأتوا إلينا. ومن يرضى إنسانياً ننقله على الحمار أيضاً. أنت تذكر (الجرشة) ومن حصدتْ من الأطفال، أنت من عاني أكثر منا، أنت موجود دائماً في القرية وأغلبنا غير موجود. ومن لها غير العجي؟ باركه الله.

نحن سافرنا ورأينا الدنيا، الطريق هي الحياة: هل يمكن أن نظل بعيدين عن الدنيا بينما في القرى القريبة تروح السيارات وتجيء ونسمع زماميرها ونتحسر. والآن عندنا فرصة من ذهب، الجرافة موجودة قريباً من هنا والأستاذ يونس يساعدنا في هذا الأمر لماذا لا نستغل الفرصة؟ غيرنا استفادوا وهاهم ينعمون بنتائجها. الطريق هي مستقبل القرية بعدها تأتي المدرسة والماء والكهرباء. ليست حاكورتك المتضررة وحدها، الطريق ستعبر القرية، لن نقترب من البيوت فالبيوت مقدسة. لكن الزواريب الضيقة المعتمة يجب أن تتوسع. ستمر منها الطريق وتعبر حاكورتك، لن تأخذ إلا نصفها الجنوبي، جزءاً من الجدار وقسماً من الأشجار..

ويجن برهوم، يرفض بحدة، ويغضب ويثور، يصيح بأعلى صوته: لا.. غير معقول.. خذوا المدينة كلها بطرقها وساحاتها ودكاكينها ونسائها، سامحتكم بها.. تكلمتم عنها كثيراً ولم أجر وراءكم. أنا لا أريد كل ماتذكرون ، أريد حاكورتي: كل حجرة

استهلكت من عمري وقتاً، والشجرة هل تعلمون كم تكلف من الجهد والعرق والوقت والاهتمام. عمري كله نثرته هنا، تريدون أن تأخذوه مني وبرضاي، لا هذا غير ممكن، تريدون أخذ الحاكورة؟ لتدميرها لابأس خذوني معها، ادفنوني مع تربتها، ارجموا حجارتها فوق جثتي، والله لا أقول لا، لكن أن أترك أرضي يأكلها هذا الغول.. لا لن يحدث هذا أبداً.

عشرات الوفود جاءت اليه، قابل بعضها.. بعد تبويس شوارب ومسك لحى، ولم يقابل بعضها الآخر، أغلق باب الحاكورة الخشبي السميك وقعد يضحك ويقهقه، أو يتشاغل عنهم بالركش أو التعزيل، أو تشذيب الأغصان.

وحين هدرت الجرافة، وانحدرت تلتهم كل ماتجده أمامها من أشجار أو أكداس حطب قديمة أو حجارة مبعثرة أو مبنية. واقتربت من الحاكورة، ازدادت ثورة برهوم وعلا صياحه وزاد عناده، سب الأستاذ يونس والعلم الذي يُفسد النفوس ويكرّه الناس بأرزاقهم، وشتم المدينة والسيارات والجرافات، وقف في الحاكورة يحرك يديه وقدميه يهدد ويتوعد وكلما اقتربت الآلة المدمرة منه ازدادت ثورته وأفلت من كل من حاول تهدئته، ضرب الناس بالحجارة، وضرب الجرافة أيضاً، ازدادت حركاته، صارت رقصاً غير منسجم، حركات غير متسقة، ثم صارت أكثر انسجاماً حين انهارت زاوية الحاكورة، صفق بيديه، رقص،

ضحك ضحكاً مجنوناً، طار في الهواء، وارتمى على فم الآلة النهم فاقداً الحركة غائباً عن الوعي.

وحين أفاق بعد ساعات، لم يتعرف على أحد؛ وقف أمام منزله وصاح :أين أنا؟ من أنتم؟ أين بيتي؟ أين حاكورتي؟ وركض على الطريق الواسعة ينظر يميناً ويساراً: مناظر لم يرها من قبل، وواجهات لم تكن كذلك يوماً، أشجار اختفت، زواريب مظلمة أضاءت، وكرر الصراخ والعويل: أين ضيعتي؟ أين المصلبة العتيقة؟ أين إخوتي؟ أولاد عمي.. أهل المصلبة العتيقة..؟ آه ياويلي... ياويلي.. ياضيعتي الضائعة؟

ومنذ ذلك الحين وبرهوم العجي يدور باحثاً عن المصلبة العتيقة.

وبعد زمن طويل هدأ العجي وصار مسالماً. لكن ماانقطع عن البحث... يمر على البيوت.. ويسلم على أصحابها. يسألهم بهدوء عن المصلبة العتيقة، يحمل صرة فيها حوائجه الشخصية وثيابه الرثة وثياباً أخرى قديمة تعطى إليه، يَقْبلُها لأنها من ثياب أهل قريته الغائبة، الذين غادروا لايعرف إلى أين. لايعرف أيضاً أين كانت ضيعته ولا أين أصبحت، ولا من أتى به إلى هنا. حاول بعض المشاكسين أن يمثلوا دور أناس يُسألُ عنهم. لبسوا ثياباً قديمة: كوفية على الرأس، ستروا بها وجوههم أيضاً، وسترة (وشروالاً) واسعاً جداً بين الفخذين وضيقاً جداً عند القدمين.

وحزاماً سميكاً من الحرير في الوسط. وقيل له: لقد أتى رجال من ضيعتكم يابرهوم، يقولون أنهم من المصلّبة العتيقة جاؤوا لشراء بعض الحبوب.

ينتابه الضحك.. يتهلل وجهه، تتسارع حركاته عشوائياً، يقترب، يضع صرته على الأرض، ويجلس القرفصاء، ينظر صوبهم، وقد امتلأت عيناه دموعاً ثم يقترب منهم، يعانقهم بشوق، يربون على أسئلته متماسكين ثم ينتفض مزمجراً صائحاً شاتماً، هذه ليست رائحة ضيعتي.. أعرفها ليست هي، يضربهم بعصاه المميزة التي لم تفارقه، يضربهم بقسوة وضراوة وهم يهربون منه ويقهقهون، وبعد أن يتعب، يحمل صرته ويدب على عصاه، ودموع على خديه، ولهاث متواصل مسموع يخرج من كل فتحاته ومساماته.

لم يقتصر مسيره وتجواله على قريتنا بل تجاوزها إلى معظم القرى القريبة.. ثم يعود.

يمكن أن يسأل الأشخاص أنفسهم خلال دقائق. أصبح لايعرف الوجوه بل لايتفرس فيها كثيراً، وهي لاتعنيه إلا إذا كان فيها ملامح من الأشخاص الذين يعرفهم ويبحث عنهم، وزاد من ضياعه انتقالُ القرية من السفح إلى القمم وتغيّرُ المنازل، وتبدّلُ أشكالها وألوانها وصوانها وتباعدُ أسطحتها وتناثُرها، وازديادُ سخرية واستهزاء أبنائها بالعجي، «الذي جُنّ»...!!

* * *

الانتقالات التي حدثت لنا لم تكن أقل تأثيراً من انتقال القرية، بل كانت أكثر وأعظم، لأن بها محطة تخصنا فقط نحن الأسرة الصغيرة، دون أن تؤثر في القرية وأهلها أو أن يشعروا بها. فقد حدثت تغييرات مهمة في مكان إقامتي، أولها كان خروجي من رحم أمي ذات ليلة شتوية، في واحد من تلك الفراغات المظلمة، وفوق لبادة في جزء البيت الذي يعلو نحو نصف متر عن جزء التراب، وقرب الموقدة العامرة.

والانتقال الثاني كان من هذا البيت الذي يضيع بين جملة من البيوت إلى بيت آخر لايختلف من حيث الحجارة والخشب والتراب والأبواب والنوافذ، على الرغم من أنه أقيم حديثاً. لكن الذي يختلف هو استقلاليته التامة لوجوده في حارة بعيدة يفصلها عن القرية واد ومسيلان فظان بفيضانهما. والأشباح التي تستوطنهما: أحدهما (الشرشار) والآخر هو (الفوار).

هناك في تلك الأرض التي سلخ قسماً من جلدها الشباك أو الصخري والدي وجدي من قبله، كان لطفولتي معنى آخر: الحرمان من الأطفال الآخرين، والعزلة التي وجدت نفسي فيها ملزماً، والطريق الوعرة القاسية المتعرجة المحجرة التي تصل بيتنا بالوادي ثم بالقرية بعد عبور المسيلين: جبل الشموط الذي ينتصب

أمامي كابوساً ضاغطاً لايتزحزح: الحراج القريبة والأصوات الوحشية القادمة من قلب غابة السنديان والبلوط.

القرية أمامي لكنها بعيدة لأن الذهاب إليها يتطلب تصريحاً عصبياً من والدي. التفاهم مع أطفالها، حين تسنَحُ الفرصة ، على الألعاب وقواعدها وشواذها لن يتم بيسر وسهولة. العنزات ترافقني في النهار إلى (البكشة) القريبة وكذلك القطط والدجاجات. وتجاورني في الليل أحياء تأكل وتنام وتقوم وتتزاوج.

عزلة وفضاء وظلال أشجار وحرقة في النهار. وسراج واهن وظلمة وظلال أشباح وأصوات وخوف في الليل: بعوض وصراصير وعقارب وحياتٌ و (جلٌ) وتراب مقدس و (سنّوات) و (كتائب) في الصيف. وفيضان وبرد ورياح وتَقمُّص و(عرجلة) ومطر وبرق ورعد و(دلف) وخشب يحترق ودخان في الشتاء: همس وضحك وجدال وشجار وأغنيات ومواويل. صياح ومناداة بأسمائنا وتهديد ووعيد. هدهداتٌ ودعابات وطرائف وحكايات. مدرسة وذهاب وإياب. وأسئلة واستفسارات. هموم وإشراقات. ودفاتر وكتب وأقلام ومراويل (ومُشمَّعات). جلاءات وجلاءات.. وجلاءات..

طفولة وشباب. فقر وحرمان. تأمل وآمال وانتظار!!

الانتقال الثالث كان حاسماً هذه المرة فلم نعد إلى (المصلبة العتيقة) إلى ذلك البيت الذي يكاد يضيع بين كتلها. ولا إلى ذلك

السفح الذي بدأ يذوي مع انتقال الدور وسكانها إلى القمم. أغلب بيوت القرية صارت فوق، تنتصب على ذرى الهضاب المتصلة وفوق الريف الصخري الذي يُزيِّنُ ضهر الصنوبر ويرسم حدود (المعلقة)، وتمتد باتجاه الجنوب محاذية الطريق التي وصلت المصلبة من الأعلى وانحدرت بصعوبة بالغة حتى مشارف البيوت القديمة، ثم اتجهت أفقياً لتتصل بالفرع الثاني الذي لم يعرج على المصلبة: دارنا الجديدة صارت في أول القرية عند أول هضبة مسكونة في القرية.

كان الانتقال حلماً وصار حقيقة، حلماً عاش زمناً طويلاً في ذاكرتي ومر بمراحل صعبة. فقد عارض والداي الفكرة بشدة، ولم يوافقا إلا حين قلتُ، وكنت قد استنفذت الأسباب المقنعة الأخرى، بعد سنين وحين تهرمان ستموتان هنا دون أن تزورا أحداً أو يزوركما أحد. ويكون كل منا نحن أولادكم في جهة.

كان فرحنا كبيراً أو من المفترض أن يكون كذلك، فبعد أن كان كل الناس يصلون إلى بيوتهم قبلنا، وكل حاجاتهم تنزل عند أبواب منازلهم بينما يتولى ظهر أمي مسؤولية إيصالها من الوادي إلى البيت الذي يتوسط السفح، صرنا نصل أولا إلى أقرب البيوت من الطريق. كان البقاء في القرية يحمل احتمالات مخيفة كثيرة: غضب والدي وربما عقابه وخوف والدتي وخوفاً من أشباح الوادي أو الضبع التي كنت أفترض وجودها الدائم.

رغم أنني لم أرها أو أحس بوجودها إلا ظهر أحد الأيام، وقد كانت تطارد من قبل عشرات الرجال. كل هذه الأمور طويت من سجل حياتنا. مع هذا كان الفرح ناقصاً.. وإذا كانت هذه حالتي دائماً فلماذا لم ينم والداي أول ليلة؟! أبي يتقلب على الفراش، يخرج إلى الهواء، يمشي قليلا ويعود، ليشتكي من أمور كثيرة: الحر والبعوض وأشياء أخرى لم يفصح عنها.

ووالدتي التي اعتادت أن تسهر على العين ساعات عديدة من الليل في حارتنا تلك، لاتستطيع أن تغمض عينيها. رغم أن الحنفية الملأى بماء نقي قادم من منطقة بعيدة تنتصب قرب البيت.

أما أخي وأختي الصغيران فقد بدا من حركتهما أنهما فرحان، لكن كلا منهما كان كأنه أضاع شيئاً.. كذلك كان أخي الذي يصغرني بقليل.

أما أنا فقد مرت ساعات الليل الحزيراني القليلة وطلع الصباح دون أن أنم، كان الصمت موحشاً واستواءُ السقف مُملاً، واستقامةُ الجدران حادةٌ، وملمسها مُنفراً.

لقد تحقق حلم الانتقال.. ولكن!!

* * *

– مات الشيخ عبد الكريم، خلص مفعول حبس «التابعة» يابني!

– «التابعة»؟ ماهي هذه «التابعة» يا أمي؟

– «التابعة» ياولدي شيطان يلاحقك، يزعجك في الليل خاصة، كنت قد حبستها عنده دون أن تعلم. لكنه مات: فعادت «التابعة»، سوف أحبسها لك عند أخيه الشيخ محي الدين، صحيح أنه ليس بقوته، لكنه يقوم مكانه في الأعياد والنذور والوفيات والزواج. قالت أمي ذلك بعد ليلة مزعجة، لم تتركني الكوابيس لحظة لأنام: كلما أغمض عيني أشعرت أن جبالاً صخرية هائلة تجثم فوق صدري، وأصابع شيطانية تعبث بأنفي وفمي وفتحات أخرى ويديّ مربوطتان إلى صدري والحبل فوقهما، حتى عيناي لا أستطيع أن أفتحهما، وصوتي لايخرج! أحاول جاهداً الصراخ، أحاول أن أمد يدي، ان أحرك أي شيء في السرير، لكن عبثاً: أشعر أني مستيقظ لكن دون قدرة على القيام بأية حركة، وتلك الأيدي تتحرك في أكثر الأماكن حساسية، وربما سمعت أصواتاً غير طبيعية قهقهة أو عويلاً، أو رأيت وجوهاً تتطاول بتفاصيل مشوهة: أنف كسيار الجبل، عيون حمراء مشتعلة أقوى من الشمس الصيفية، وحواجب كغيوم شتوية سوداء، ثم يمتد ويتعرج

Bibliothèque-Discothèque
COURONNES

كمسيل (الشرشار) الاصطناعي، وأحاول أن أصرخ مجدداً.
تغيب وجوه وتظهر أخرى، وجوه لأناس يبدو أني أعرفهم، منهم الأستاذ عساف والآنسة هدى والمحاسب (أبو محمود) والمراقب (أبو محمد) والحارسان و (أبو عماد) والمستخدم القزم ونساؤه بسمير وفتاته، ووجوه العمال أيضاً.

وجوه تأتي وتروح، وخنادق تنفتح وتنغلق، وأنا واقف على حافتها ينهار التراب من تحت قدمي أكاد أقع، أتشبث بحواف الخندق الناتئة من الحجارة والتربة أو أنابيب المجارير، تتفتت تحت يدي، أسقط قليلاً، يغمرني التراب، وتغسلني المياه الآسنة: تنسكب فوق رأسي، في فمي وأنفي وعيوني. أفقد القدرة على الرؤية والتنفس وأنا عالق بين القاع والسطح، أمسك أخيراً بجدران بيتونية هي ذات الجدران التي نفذناها، لكنها تنكسر، غير معقول، البيتون ينكسر تحت يدي..؟! يداي معلقتان في الهواء، ثم... أسقط من علو شاهق إلى قاع سحيق، قاع أعمق بآلاف المرات من قاع الخندق، وأصرخ صراخاً عالياً بينما أعبر الممرات المظلمة سريعاً إلى المجهول.

يد أمي تهزني، صوتها ينادي: حسان... حسان.. أفق ياحسان، بسم الله عليك وحواليك. أفتح عيني بصعوبة، لا أصدق أني حي، وفي داري: هذه أمي إلى جانبي تقول: كنت تئن أنيناً مكتوماً. كنت تحاول أن تصرخ ولا تستطيع: سمّ باسم الله

ياولدي، اقرأ الفاتحة، وقل هو، وأعوذ... ويملأ صوت أبي من الغرفة الأخرى: ماذا هناك ياحليمة؟ فتقول أمي: ابنك ياتوفيق، لا أدري ما أصابه، كان صوته يقطع القلب! ينهض والدي يغادر الفراش: مالك ياحسان؟، هل أنت جائع..؟! هل أنت منزعج في العمل، هذه الأيام أنت لاتعجبني؛ تعود مكفهر الوجه، نزقاً على غير عادتك، تأكل وتنام لانسمع منك كلمة واحدة، هل هناك مالايسر في العمل ياولدي..؟! نسألك عن عملك تجيب باقتضاب، كل الناس يحسدونك – ويحسدوننا – على هذا العمل، السيارة تأخذك من البيت وتعيدك إليه، بينما الآخرون ينتظرون السيارات التي تأتي ولا تأتي، تتأخر وتتعطل. لابأس، ضع المصحف تحت رأسك، أنا كان يحدث لي مثل ذلك، صرت أقرأ سوراً من القرآن، ووضعت المصحف تحت رأسي، لم أشعر بعدها بشيء، نم الآن ياولدي، غداً ستفيق باكراً، وأنت ياحليمة، نامي دون ولولة، فالأولاد نائمون، لانريد أن يفيقوا أيضاً.

يعود أبي، وتعود أمي بعد أن يسميا علي أنتقل بصري بصعوبة إلى الصندوق الخشبي الذي ينام فوقه أخواي وإلى الفراش الممتد على الأرض حيث تنام أختي اليافعة جوار والدتي التي تسحب الغطاء فوقهما.. وتنام..

أنظر الى السقف والجدران والأرضية، لا لون إلا الاسمنت الأسود- يزيده ظلاماً الضوءُ الشاحب الذي يخرج من سراج

وأمن فوق صندوق عرس والديّ الذي فقد إحدى قوائمه الأربع؛ وظلال الأشياء الكثيرة التي تغص بها هذه الغرفة تتكوم أو تتنصب في الزاويا فوق الكراسي والطاولات الخشبية المفخخة، حيث تسقط أحياناً بلا سابق إنذار. مرة كدنا نختنق تحتها أنا وأخي الذي يصغرني مباشرة لولا حضور والدتي مذعورة بعد أن سمعت صوت السقوط والصراخ المكتوم.

كل شيء كئيب إلى درجة البكاء الخافت: غرفة طويلة للنوم والاستقبال والطعام والاستحمام والقراءة والكتابة، وغرفة صغيرة مجاورة أو مستودع لكل الأشياء والمعدات المنزلية: المعاول والرفوش والمهدات وأكياس الطحين والحبوب والثياب البالية والدلاء الكثيرة والأواني المختلفة ومقر للطبخ وسرير الزوجية، ينام فيه والدي دائماً وأحياناً أمي التي ضُبطت مرات هناك حين تصرخ أختي الصغيرة: ماما أنا عطشانة أريد ماء... وتهرول أمي قائلة: كنتُ أسقي والدك هو أيضاً طلب ماء، ألا تتركوني أنام..؟!؟

هذا هو بيتنا الجديد الذي انتقلنا اليه بعد عناء طويل وبفرح لايحد، هذه هي دارنا الاسمنتية التي حلت محل الحجارة والأخشاب والطين.

فرح والديّ بعملي بدأ ينتقض، عادت الكآبة الى وجهيهما بعد موجة الانتشاء التي لم تعمر طويلاً. لماذا أظهر لهما هذا؟ لماذا لا

أخفي منهما عنائي هناك..؟! لكن هذه الكوابيس بدأت تلاحقني يومياً وتفضحني إن حاولت إظهار الانشراح، صحيح أنها ليست جديدة، كانت تزورني أحياناً قبل الامتحانات الكثيرة التي مرت. وفي أوقـات أخرى مـتـبـاعـدة. لكنها لم تكن بهـذه الحـدة والاستمرارية. لاشك أنها الحساسية الزائدة، الحساسية التي لاتترك أمراً صغيراً تافهاً يمر دون أن تقلبه على كل الوجوه وترى خلفيات ومقاصده، وهي على الأغلب غير مريحة، فكيف إذا كانت تلك الأحداث كبيرة وأساسية وتمس جوهر المبادىء والأفكار الكبرى والأصول المحفورة في مكان ما من الذاكرة..؟

ربما كنت مغالياً في أفكاري وحساسيتي، لكنه أمرٌ ليس بيدي، فذهني لايتوقف لحظة عن جرد الأحداث وتعريتها وتقويمها، حتى في أكثر الأوقات راحة، وقد تعود حادثة مرت عليها أيام أو شهور أو سنون، وهي مزعجة بالتأكيد، تعود لتترك ظلالها السوداء مخيمة على كل شيء... صحيح أنها لاتخترع شيئاً، ولاتقدم أية تحليلات شاذة، لكن عملها مرهق لأعصابي، ونشاطها مربك لكل النشاطات الأخرى لحواسي وغرائزي.

ألوم نفسي كثيراً وأحاول إلهاء ذاكرتي بصور مختلفة لكن بلاجدوى، فأجد مثلاً أني أنظف أسناني يومياً، وأضغط الفرشاة على الأسنان واللثة بشدة، وأعيد العمل مرات كثيرةً، تآكلت اللثة وابيضت الأسنان ولكن الأمر متواصل.

وحين أحلق ذقني أستعمل أدق الشفرات، وأكثرها تنظيفاً للشعر، وأعيد إمرارها على ذقني في كل الاتجاهات. وأمرر يدي بعدها، فإذا شعرت أن هناك أي أثر أعيد الكرة، رغم صعوبة ذلك على ذقني الدقيقة وغدتي النافرة وخدي الغائرين، لكنها (سوسة)، وأترك ذقني مهشماً؛ جراح كثيرة في أماكن مختلفة ودماء تنزف وتسيل، لاتجف إلى أن أعيد فتحها في مرات تالية .

وحين أستحم، يلزمني وقت يزيد مرات عن أخي الذي يصغرني قليلاً، فكلما فرغت أعود من جديد، أبسمل في البداية وأعيد البسملة عشرات المرات، وأذكر أسماء كثيرة لا أعرف عن قدراتها شيئاً، حفظتها كالببغاء من أمي. بعضها مسبوق بـ «الشيخ» وأخرى أسماء مجردة من الألقاب لكنها مهمة أيضاً.

كم أتعبتني هذه العادة وأضاعت مني درجات كثيرة في الامتحانات، لتدقيقي في الأسئلة والمعطيات والعودة مراراً للتأكد منها ومن عمليات الجمع والضرب والقسمة وغيرها، وهذا يستهلك وقتاً كان يمكن استغلاله في أسئلة أخرى.

وأبقى دائماً إلى آخر الوقت المسموح وتظل أسئلة أو أجزاء منها بلا إجابة.

*

في الصباح، يوقظني والدي قبل موعدي بنصف ساعة، يجب أن أكون جاهزاً تماماً قبل أن تصل السيارة، إذ عليَّ أن لا أدع

السائق ينتظر لحظة واحدة، لم يحدث هذا أبداً إلاّ حين كنت أظن أن السيارة معطلة فأجهز نفسي لسيارة الأجرة. حدث هذا مرة أو مرتين ثم صرت أستعد لكل الاحتمالات.

ولم يحدث أن غادرت المشروع إلى السوق حتى الآن، وبعد أن مر على مباشرتي هنا شهور. قال ذلك مستغرباً (أبو حماد): عجيب أمرك يا أستاذ حسان أليس لك عمل في السوق، في الفرع، في البيت؟! أليس لك أقرباء في هذه المدينة؟! هل تخجل مني؟ أنا مثل عمك، وفي خدمتك دوماً. لماذا لاتطلب مني شيئاً؟ وأين تقضي (حاجتك)؟ وحين تطرتُ باستغراب أضاف على الفور. ألا ترى أن (أبو محمد) يذهب ثلاث مرات في اليوم إلى البيت أو الفرع. يأتي إلى السيارة، يفتح بابها، يجلس ويقول: إلى البيت. أتمنى أن أذهب معك أنت. ولا أذهب معه، إنه يزعجني بهذه الطلبات.

تصور أنه يسخرني والسيارة لقضاء (حاجته)!!

ولم يحدث أن تركتُ العمل قبل نهاية الدوام. حتى أن سائق البيت الذي يوصلني إلى البيت قال بامتعاض وبقالب مزاح هش: أنت لاتغيب أبداً، لاتهرب أبداً. أإلى هذه الدرجة تحب العمل أم أنك خائف؟ كاد يقول «جبان» لكنه أحجَمَ وفهمتُها. وقال زملائي

الذين يلتقون نصف أوقاتهم في الفرع، يتنقلون من مكتب لآخر، يتشممون روائح مشاريع جديدة، أو في السوق يشترون ويزورون: قالوا حين كنا نلتقي في المشروع أو مصادفة: أين أنت يارجل؟! لماذا لانراك؟ نسينا أن لنا صديقاً هنا، ألا تأتي إلى الفرع؟! قلت وأنا أحاول إقناع نفسي قبل أن أقنعهم: أنتم تعلمون المشروع مهم والعمل لايتوقف وأنا أحب العمل، ضحك أحمد وردة وغمز بعينه: أم أن حكم النسوان صعب؟

وأضاف مفيد: مصيبتك بدأت منذ الآن، وستستمر عند الزواج.. الله يعينك! هذا انتهى ترحمّوا عليه!

بينما اكتفى أسعد بالابتسام والصمت!

*

لماذا يحدث كل هذا؟

أنا لا أعرف سبباً مقنعاً وقد فتشت عنه طويلاً. فأنا أعرف مثلاً أنه كان علي ألا أترك سطراً واحداً في دفتر الكتابة قبل أن أشتري آخر. وكان علي أن أحافظ على أية قطعة ثياب ألبسها. لأن وقتاً طويلاً يجب أن يمر قبل شراء قطعة أخرى. وأعرف أنّ عليّ أن أحافظ على حيّزي من السرير الذي أتقاسمه مع أخي الأصغر كيلا ينتقل الحوّار إلى ثيابه، وأن أحفظ لساني وعيني

يديّ وأن أحافظ على ثمن الأشياء التي سأشتريها. وأتفقدها مرات كثيرة في الطريق.

كانت هذه وصايا والدي، يضاف إليها الحرص على الهوية والأوراق والأدوات التي أحملها في أية سفرة.

أعرف كل هذا وأعرف أني كنت أنفذ وصايا المعلمين والمدرسين بشكل يدعو للعجب والضيق.

أعرف كل هذا... وهل هذا يكفي لتبرير كل هذا الحرص وكل هذه المحاسبة والمراقبة والتحريض التي يقوم بها أشخاص عديدون في رأسي، لدرجة أنهم لايتركوني لحظة صفاء واحدة في العمل او خارجه، في اليقظة أو حتى في النوم.

* * *

لاأستطيع أن أجزم أن هذه العادة المزعجة بدأت في مشروع المسيل الاصطناعي أم كانت سابقة لهذه الفترة. لكن ما أنا متأكد منه أن عصر «الشرشاره» ساهم في زيادة سلطاتها وتحكمها.

صحيح أني كنت حريصاً على إزالة الشعرات التي تستعصي على آلة الحلاقة، وأحس بعد كل مرة أن عملي مازال ناقصاً، فأقضي وقتاً أقتلع كل مايبدأ منها تحت الجلد أو فوقه بملقط معدني، لايصلح في أغلب الأحيان، فيكمل حفر الجروح وتشكيل الندوب. لكن الأمر الأكثر غرابة أو إزعاجاً هو أن يدي اعتادت أن تمتد إلى أسفل ذقني كما اعتادت إبهامي وسبابتي أن تبدأا عملهما دون وعي أو إحساس، كثيرا ما انتبهت بعد مرور وقت، فأشعر بالخجل والتوتر أيضاً، فأسحبهما بسرعة وبحركة تلفت انتباه من لم ينتبه وتعلن صراحة عما أنا فيه من أحاسيس داخلية قاتمة، ومن أمل ضئيل لايكاد يخفي نفسه أو يدل على مكانه. وربما استكمل هذا العمل بعمل آخر لايقل عنه إزعاجاً وقلقاً وتأنيب ضمير وهو تنظيف الأنف بالأصبع.

وإذا كانت هذه الحالة سابقة لهذه الفترة فإني لا أشك أن القلق والفراغ والتوتر والغيبة كلها أمور تزيد من هذه الحالات أو مايشابهها. وما أغنى عهد «الشرشاره» بها، خاصة في ذهابي إلى العمل أو إيابي منه، وحيدا في مقدمة السيارة إلى جانب السائق الذي لم يعد يستجد في حديثه شيء. إضافة إلى الأوقات الأخرى الكثيرة خلال ساعات الدوام.

بعض المقربين يتحدثون صراحة عن هذا المنظر المقيت، ويعلقون ساخرين: أما طلع البترول بعد؟ هل بدأت الحفارة عملها؟

كا ن هذا يغضبني من نفسي فأثور عليها مجدداً شاملا ترددي وعدم رضاي عن كل مايجري لو قناعتي به.

وفي محاولة للتبرير أو التكفير ربطت بين الألم الذي أشعر به وأنا أشد شعرة مستعصية أو أستخرج واحدة تقلقلت تحت الجلد، حتى حين تسيل قطرات حمراء من مكان الجرح الذي تسببه آلة الحلاقة الحادة، أو الملقط المعدني حين يلتقط اللحم أو الجلد، أو إصبعاي المظفوران؛ وبين المتعة أو اللذة التي تصاحب ذلك.

كيف يمكن أن يتوافق الألم مع المتعة؟ بل السؤال الاصح فيما بدا لي هو :هل يمكن إلا أن يكون الألم مصاحباً للمتعة؟ وهل يمكن أن يوجد ألم صرف أو متعة خالصة؟ وسواء أكان الألم ذاتياً أم خارجياً، فإن الأمر لا أعتقد أنه يختلف كثيراً، بل يبقى الألم ألماً والمتعة متعة وهذا ماهو متوفر عندي والحمد لله.

فإذا لم أجد لدي مايؤلم يكون الزاد وفيراً؟ إذ ألملمُ الآلام من على جباه الآخرين القريبين أو الذين لا أعرفهم، من حكاياهم، من خصامهم وثورتهم وخضوعهم، من الأخبار التي تبث عبر مذياع سيارة البيت صباحاً ومساء وعبر مذياع والدي الذي لايفارقه،

من الشمس الحارقة والريح العاتية، من الحر الشديد أو البرد القارس؛ من اصفرار الخريف وأزهار الربيع التي كثيراً ما تضحكُ بلا مبرر.. ويكون ضحكها وقحاً إلى درجة الفضيحة! وحين لا أستطيع فعل شيء أتكفّيء على ذاتي، وتهرب أصابعي لتفرك جبيني أو تشد شعري، ثم تستقر أسفل ذقني. لتحقق انتصاراً على شعرات نبتت متعزلة أو شكلت نتوءاً لتحاكها المستمر مع أظافري أو المعدن. أو لتؤمن متعة آنية وإن كان عبر مزيد من الألم والتبكيت.

راودتني كل هذه الأفكار حين ضبطتُ إبهامي وسبابتي في ذلك المكان، وشعرتُ بالمفاجأة وكدتُ أصرخ لكني وجدت أنه ليس ضرورياً الصراخُ ولا بأس من استبداله بأنة طويلة متباطئة متلاشية.

* * *

الفصــــل الــرابـــع

- ١ -

الأيام تمر دون حساب، ودون أن يتغير شيء كأنها لاتمر، وصار الإحساس بأني عديم الفاعلية، وأني زائد عن الحاجة يزداد يوماً بعد يوم. وعلى الرغم من بعض الاستشارات القليلة، وطلبات الاستئذان للخروج من المشروع أو الغياب، وبعض الأحاديث الودية والمديح المجاني، لم أشعر أن لي كياناً أو شخصية معتبرة، أو بأن الشهادة التي أحملها لها علاقة بما يجري هنا، فالأعمال تسير في وجودي كما كانت تسير قبل أن آتي. وكثير منها يحدث دون ضرورة لتدخلي وبعضها دون معرفتي. حتى البراكة الجديدة التي جاءت إلى هذا الجزء من المشروع لم أعرف من طلبها ولا لماذا استقدمت.

صحيح أننا طالبنا ببراكة ثانية لكن لكي تكون داعمة للأولى اليتيمة والتي لاتتسع لنا جميعاً، إضافة إلى الأدوات والمعدات خاصة حين يهطل المطر. وقلنا أننا سننصبها في القسم الشرقي العلوي الذي يجري فيه العمل الرئيسي الآن.

لكن أن تأتي البراكة وتعبرنا إلى الغرب فأمر غير مبرر، ولا نملك جواباً لمن يسألنا من العمال أو السائقين.

ففي تلك المنطقة تكاد تنتهي الأعمال المتممة؛ أي صب الأرضيات ورصفها وتركيب البلاطات المسبقة الصنع فوق الخندق. وقد تجاوزت هذه الأعماق المنطقة التي أعطيت الأوامر لتركيبها فيها، واقتربت من موقع البراكة القديمة.

أما مكان التركيب فيغص بأشجار الزيتون ويبتعد قليلاً عن الخندق، وكثيراً عن أقرب البيوت السكنية.

حسبت في البداية أن في الأمر خطة وقع فيه السائق الجاهل والعمال الذين يرافقونه، لكنه أجاب بثقة: أنا أنفذ أوامر القيادة العليا. ولا دخل لأحد في هذا.. وأخرج من جيبه ورقة موقعة من رئيسة المشروع ومدير الفرع وقال: نعم حددوا لي هذا المكان بالذات وبين هذه الأشجار.

– ومن الذي حدده لك؟

– المحاسب (أبو محمود) حضرت معه أمس إلى هنا ودلني على الموقع.

وقال الحجارون أنهم رأوا المحاسب في سيارة الخدمة وبصحبته سائق الجرار، وقد قدما من الطريق الترابية وقفا هناك ثم غادرا بالسيارة من الطريق ذاتها، دون أن يمر ليهددهم ويتوعدهم. سكت المراقب وكان مندهشاً ومتحمساً وهو دائماً هكذا: يعرض ولايقول أو يتصرف شيئاً.

انتظرت لأستفسر من رئيسة المشروع لكنها لم تحضر ذلك اليوم واليوم الذي تلاه، وكذلك الأستاذ عساف. وكان الجو بارداً غائماً والهواء رطباً يوحي بعاصفة قريبة.

وحين سألت الآنسة هدى بعد يومين. وكانت مد رقة وفرحة تكاد تلتصق بالأستاذ عساف قالت:

المشروع واسع ومهم وطويل، والأعمال منتشرة على طول الخندق. وأنتم؛ وأنت بالذات طالبتم ببراكة أخرى، ومعكم حق، وها نحن أحضرناها.

– ولكننا انتهينا من تلك المنطقة يا آنسة. لم يبق إلا أعمال عزل البلاطات والخيش والزفت وهذا لاينفذ في الشتاء، كل العمل صار قريباً من براكتنا هذه ونفذ السير نحو الأعلى. ثم من سيذهب إلى هناك في المطر ليحتمي بها أو ليضع أدواته أو مواد العمل أو يأتي بها منها. والطريق إليها موحلة ولا يمكن للسيارة الوصول إليها؛ حتى (الدنبر) صعب عليه تجاوز بركة الوحل الكبيرة.

– لا بأس، لابأس؛ المكان مناسب سوف نحاول أن نحضر براكة أخرى لكم، أما هذه فقد ركبت وانتهينا منها ولا يمكن أن نفكها.. أليس كذلك يا أستاذ عساف؟

كان المدير يحاول أن يتشاغل عنا بالسؤال عن الصب وأحواله وأخطار الانهيارات إذا أمطرت السماء، ولكنه حين أحس أن الآنسة هدى في ورطة ولا تعرف بماذا تجيب أو كيف تُقنعُ تدخّل وقال كلمات متداخلة غير مفهومة:

– نعم... نعم.. كما ترين صنفتي باخرى، وهذه تلزمكم. عيشوا بهذه النعمة.. اضحكوا (بعبكم) عندكم رئيسة مشروع نشيطة.. ومهتمة، لو طلب غيرها ذلك ما أعطيناه. لكنكم محظوظون.

وحول الحديث إلى جهة أخرى ونادى المعلم (أبو جميل): كيف الحال يامعلم (أبو جميل) كيفك مع زوجتك؟ أما زلت عازماً على الزواج؟ لماذا الطمع؟ ألا تشبع من النساء يارجل؟! ألا تستحي على شيبتك..؟!

رد (أبو جميل) من قاع الخندق وقد انتشى لأن رئيس الفرع خصه بهذه الدعابة اللطيفة وهذه السيرة المحببة:

– تعرفون جنابكم أن الشرع حلل لنا أربعة فلماذا نقنع بواحدة؟ ألا يعرف الشرع حاجتنا..؟! لو كانت واحدة تكفي ماقال لنا مثنى وثلاث ورباع. والهمة كما ترى قوية فلماذا نقلع في أرض تعبت من البذار والأسمدة والمواسم المتعددة..؟! الفلاحة في أرض جديدة مغرية وجذابة وممتعة وتبل الريق أليس كذلك ياأستاذ؟!

قهقه رئيس الفرع وضحكت الآنسة هدى بلا وقار ونظرت الى المدير بانشراح. وضحك العمال جميعاً. وفي سره قهقه أبو عماد كثيراً وكذلك فعل المراقب وأظهر القليل منه. وضحكتُ أنا أيضاً لكنها ضحكة باهتة ناست بعد قليل من ارتسامها، فقد صارت الصورة واضحة أكثر!

- ٢ -

سرى خبر قبض الرواتب كالنار في الهشيم، وظهر قلقاً وحركة زائدة وتباطؤاً في العمل منذ الصباح. وحضرت سيارة المالية قرابة الظهيرة، تقل رئيس القسم المالي وموظفة أخرى في القسم كان معها محفظة كبيرة تحوي أوراقاً مالية متنوعة بجداول الرواتب. وضعت كلها على الطاولة الوحيدة في البراكة وبدأ العمال يتوافدون.

استلم الحارس راتبه أولاً وكذلك السابقون الحاضرون والمراقب، وجاء دور العمال. هذه أول مرة أحضر فيها مثل هذه المناسبة هنا في هذا المشروع.

منذ فترة ليست بعيدة قمت بهذا العمل في مشروع آخر لمؤسسة أخرى استلمت مبلغاً كبيراً لأول مرة في حياتي، مبلغاً كنت أسمع به فقط وكان ذلك مرعباً أن تحمل قرابة مائة وسبعين ورقة من فئة الخمسمائة وأوراقاً أخرى أيضاً. وأقصى ما كنت أحمله فيما مضى ورقة واحدة من هذه الفئة! وقمت بتسليم العمال مستحقاتهم وحرصت على إعطائهم أجزاء الليرة. مع هذا فقد بقي معي مبلغ ضئيل جداً وفكرت عند ذلك: إذن من يحجم عن إعطاء الليرات القليلة كم سيبقى لديه؟ ولماذا تكون كرماء بالمجان؟!

ليس هذا هو الأمر الذي استوقفني مع أنه يحدث أمامي، لكن الأمر الأهم هو التزمر وعدم الرضى الذي ظهر جليا على عدد كبيرمن العمال كلمات وشكاوى وغضباً وتبرماً . هذا لم يحدث معي في تلك المرة، فمن بين ثمانين عاملاً تقريباً لم يشكُ أحد إطلاقاً إلا واحداً كان قد استلم مرتب آخر، لتشابه في الاسم والكنية، وانتهى الأمر كما يجب. أما هنا فشيء لايصدق.. كانوا يتناقشون بصوت عال ويتمانّون ويشاطون ويقولون. ثم اجتمعوا حولي وبدأ مسلسل الشكاوى: الراتب كل شهر يختلف عنه في الشهر التالي.. ينقص على الغالب، القراطة لايعطونها، حقَّنا يتكلونه، أنا لم أتغيب ولم أتأخر، لماذا حسم بعض الراتب؟ فلان أزيده في الدرجــة ويزيدني في الراتـب. ولا أدري بماذا أجـيـب لاسيما أن هذا الراتب هو عن شهر أيلول ونحن في نهاية كانون أول. حولتهم إلى المراقب الذي يعرفون رأيه ورده: أيلول ثلاثون يوماً وآب واحد وثلاثون لذلك بدا لهم النقص ألا تعرفون أنكم متعاقدون والراتب يحسب وفق عدد الأيام وغياباتكم لاتحسبونها وإجازاتكم المرضية تتناسونها، وتأخيراتكم، تظنون أننا لانعرف بها، الأمر مضبوط ولا يوجد غش.. هيا إلى العمل وكل واحد إلى شغله..

تريدون من الله حجة لتتقاعسوا وتتكاسلوا.. (حارتنا ضيقة ونعرف بعضنا).

مشوا ببطء وتثاقل وقد فرغت خطواتهم وملامحهم من أية حيوية، بل إن كلا منهم بدا أكبر عمرا مما كان عليه قبل قليل، ولم يُنجز عملٌ مهم في ذلك اليوم.

بروه المراقب لرئيسته، وبدورها بررته للمدير، بتساقط المطر خفيفاً، بينما كان السبب الذي يعرفونه جميعاً غير هذا تماماً.

واجتمع كثير من العمال في البراكة وكان المراقب قد غادر مع (أبو عماد) كعادته.

وبدؤا يقدمون مسلسلاً طويلاً من العناء والشقاء وعدم الرضى، بدأ بالراتب حيث أعادوا ماقالوه قبل ظهر اليوم وأضافوا أشياء كثيرة إليه: إنهم متفقون فيما بينهم، المحاسب ورئيسته ورئيسها، يبالغون في المسميات، يفترضون غيابات وهمية ويعاقبون عند أي اعتراض أو مناقشة، وعقابهم أيضاً حسم من الراتب. فتقل صرفيات المشروع ويزداد ربحه. وهذا هو السبب في صرف النظر عن تسليم بذلات العمل والأحذية الخاصة بالمياه، والبيض والحليب؛ يزداد الربح ويزداد شأن الآنسة هدى وقربها من السيد المدير وتصبح مثلاً يحتذى.

أما نحن الله يعيننا على هذا الراتب ماذا يمكن أن يشمل؟ الأولاد والمدرسة والدكاكين.

وقال (أبو حمدان) وكان أشيب الشعر طويلاً ناحلاً يقترب من الستين ويشبه والدي كثيراً: لو اقتصر الأمر على الراتب لهان ياولدي. انظر إلى شيبتي، أنا في عمر والدك ووالد الآنسة هدى... ومع هذا لاتحترم هذه الشيبة.. تقول كلاماً لايصح أن تقوله امرأة متعلمة واعية في عمر بناتي، ولايصح أن يقال لنا نحن العجائز،

تصيح وتصرخ، وعلى ماذا؟ لاتعرف؛ لأشياء سخيفة وتافهة، وكذلك المحاسب؛ للحق المراقب (أبو محمد) لايقول مثل هذا الكلام، هو يغضب ويعبس ويأمر لكن لاتطلع منه أية كلمة نابية.

كانت علامات الأسى بادية على وجهه، وكل ملامحه تذكرني بأبي، ورحت أتصور والدي مكانه، أمام الآنسة، وهي توجه له تلك الكلمات؟ أبي الذي حدثني مرات عن مثل هذه المعاملة الفظة في بيروت أيام شبابه. ولا داعي لسؤاله عن السبب الذي يجعله يتحمل هذه الإهانات.

– إننا نشتغل كالعبيد، أو كالخدم عند الأغنياء والأغبياء. وهكذا كانوا يتصرفون معنا ولكن كنا أولادا وشباباً يمكن أن نتحمل، أما الآن فنحن على حافة القبر وصار الواحد منا أكثر حساسية. ليتك تعلم يا أستاذ القهر والغصة والكآبة التي نشعر بها؛ تصبح الحياة سوداء قاتمة. سأتقاعد قريباً وقد بلغت الستين، يطلبون مني أن أمدد.. الآن عرفوا قيمتي.. لا والله لن يحدث هذا.. سأخرج من هذه البركة الموحلة وأستر آخرتي.

ثم إنك تعلم ياأستاذ، الأمر ليس سراً، الأعمال التي تقوم بها شانتال لو كانت محترمة لهان الأمر وقلنا عصبية ولا تقصد ماتقول. أما أن تكون بهذه الصفات وتصفنا بأوصاف وضيعة فأمر لايمكن أن نقبله.

كم مرة قلت سأترك العمل، لكن ستضيع سنواتي الماضية وأخرج بلا تعويض فأضغط الألم على الدم وأقول: اصبر يا (أبو حمدان) لم يبق إلا القليل.

مر علينا بإرادي كثيرون من المهندسين ورؤساء المشاريع، لايزالون يترددون على بيتي، ولم يمر على وقت مثل هذا الوقت، المشكلة أنك لاتستطيع أن تشتكي فالذي ستشتكي إليه غارق إلى شحمة أذنيه وهو معها (سيف ماضي)، أحياناً ترسل لنا قليل الدين (أبو محمود) إنه أتاني دني، فعلاً ولولاي لقتله عمال ورشتي منذ زمن، لكن أنا أهدئهم ولا أسمح لهم بذلك.. وهم يلومونني. والحق يا أستاذ يستحق القتل، يستحقه فعلا لأنه نذل، لكنه نذل بعض، كنا نقول في البداية: إنسان مأمور، لاذنب له، لكنه زادها كثيراً، ويزداد شراسة يوماً بعديوم، ويزداد شراهة أيضاً إنه يقوم بأفعال خسيسة: يطلب المواد من العمال ويحضرهم وهم غائبون، ومن لايستجيب له يخلق له المتاعب كالغياب، أو يتصيده فيعاقبه.

أنا أتحدث باسم كل هؤلاء العمال، لقد توسمنا فيك الخير، وملامح الطيبة بادية على محياك. أخبار أهلك طيبة أيضاً، لذلك نقول لك هذا ومن زمن لم نقل أو نشتكي لأحد. إذا كان الكلام ضائعاً ولا فائدة منه لماذا نلقيه في الهواء..؟!

غاب صوته عن مسمعي صارت شفتاه تتحركان ثم غابت صورته وعادت صورة والدي، بعد هذا العمر الذي غص بالنكبات

والشقاء والعذاب، هل يمكن أن أقبل أو يقبل إنسان أن يهان والده؟ كيف يمكن لبشر يُفْتَرَضُ أن يكونوا بشراً واعين، أن يستهزؤا بالأخلاق ويدوسونها بحجة النشاط والعمل الجاد. ألا يمكن أن يتأمن هذا إلا بهذه الطريقة..؟

لاشك أن بين العمال الكسولَ والمراوغ والمناور، لكن لايمكن أن يساق الجميع بعصا واحدة، ثم إن البعد عنهم وعن مشاكلهم وفي أحسن الاحوال رؤيتهم من فوق ضفة الخندق وهم في قاعة الملي، بالقانورات، لن يسمح بالتعرف عليهم تماماً. بل ربما يزيد التفوق المجاني غروراً وتعالياً وصلفاً.

احسست بضيق شديد ومسؤولية كبيرة؛ إنهم يريدون شيئاً مني، فعلاً ما، بل ربما لايريدون وهذا أصعب بكثير..؟ فقد قال(أبو حمدان): نحن نعلم أنك لاتستطيع بمفردك أن تفعل شيئاً. يحقدون عليك على الفور ويتقلونك ويعاقبونك. نحن لانريد هذا، ولكن نريد أن نعرف الحقيقة.

وها أناذا أعرف الحقيقة شيئاً فشيئاً، فماذا يمكن أن أفعل؟

إنهم كثيرون وأنا وحدي، مع هذا يجب أن أفعل شيئاً.. وإلا!!

قررت ذلك" سأتحدث الآنسة هدى بهذا وإن استدعى الأمر سأكلم رئيس الفرع. غدا عندما يأتيان هنا، سأحدثهم وسأطلب منهم أمراً محدداً، أن أكون مسؤولاً مباشراً هنا ومسؤولاً وحيداً وليحاسبوني على النتائج.أو أترك هذا المشروع.

* * *

- ٣ -

ماحدث في هذا اليوم لم يكن متوقعاً من أحد، حتى أنا نفسي لم أتوقع أن يحدث، فبعد جولة اعتيادية تتكرر يومياً على الورشات، وبعد لقاءات وأحاديث قيمة وجديدة لاسيما بعد أن صارت العلاقات تتوطد مع عناصر المشروع، وبعد أن توفرت الثقة بيننا، وبعد مزيد من الشكاوى والانفعالات اليائسة والعاجزة، شعرت بأن صدري يمتلىء غيظاً، وأنه لاقدرة لي على الاستماع الى المزيد أو تحمل أعصابي المتوترة، عدت مع ذلك – إلى البراكة هادئاً، لكن ملامحي عابسة وحاجبي مقطبان؛ هذا ما قاله الحارس فيما بعد.

دخلت البراكة الخالية ففاجأني منظر غير مألوف. منظر غريب ومهين: طاولة المكتب الخشبية مقلوبة وسيقانها مرفوعة في الهواء، والمخطط الذي كان فوقها مرمي فوق السرير بلا اهتمام. ظننت أول الأمر أن أحداً من أولاد الحارة عبث بالبراكة بعد أن لم يجد مايسرقه. لكني استبعدت الأمر فنحن في عز النهار والحارس غير بعيد من هنا، فقد حييته منذ لحظات؛ ثم فكرت أن أحد عناصر المشروع الغاضبين انتقم من المكتب وهو يقصدنا، أنا والمراقب، بل ربما يقصد رئيسة المشروع ومدير الفرع. وقبل أن أستبعد الفكرة دلف الحارس، وحين رآني واقفاً وسط البراكة واضعاً يديَّ في خصري. قال على الفور:

أبو محمود مرّ من هنا، سأل عنكما وعن مفتاح الدرج، قال أنه يريد دفاتر الإنتاج ثم حاول استخراجهم، لم يفلح. انظر يا أستاذ كيف فعل، قلب الطاولة، وتركها كما ترى وعاد بسرعة.. دون أن يأخذ شيئاً. وأضاف: تركتها كما هي لترى بعينك كيف يتصرف المحاسب معنا ومع كل عناصر المشروع ومع أدواته أيضاً.

لم يكن الحشيش اليابس يحتاج إلا إلى شرارة ليحترق، ولم تكن النار بحاجة إلا إلى قليل من الكاز لتلتهب، ولا المياه المحتجزة خلف السد إلا إلى ثقب صغير لتتدفق. حدث هذا كله الآن وما علي إلا أن أقصد الجبهة. أين (أبو عماد)؟ قال الحارس بسرعة وارتباك: إنه هناك قريب هل أناديه؟ أومأت برأسي دون ان أتكلم ولازالت عيناي معلقتين بالسيقان المرفوعة! سمعت محرك السيارة يدور وصوت الحارس ينبهني، فتحت باب السيارة وقذفت جسدي بقوة داخلها، وأغلقت الباب بعنف، ودون أن أنظر إلى السائق قلت: إلى إدارة المشروع في «الشرشار» الغربي.

لا أدري إن كان قد قال أبوعماد شيئاً أو سألني، فلم أسمع أية نأمة. بل انطلق بسرعة لم أعهدها من قبل، حين كان يمسح الأرصفة بعينيه، يفتش عن النساء، ويثرثر: طويلةقصيرة، سمينة، نحيفة.. بل كان وجهه للأمام فقط، عيناه محدقتان وشفتاه مزمومتان وعلى وجهه علائم الجد.

استطعت أن أرى هذا وأنا أنظر إلى الإشارة الحمراء اللعينة التي طال انتظار اخضرارها. لم تكن سيارتا الآنسة أو الأستاذ موجودتين. لا أدري إن كان هذا لحسن حظي أم لسوئه لكن الأمر على الأرجح كان سيصبح مختلفاً فيما لوكانا هناك.

دخلت براكة المكتب، لم أجد أحداً، انتقلت إلى البراكة الأخرى، وهي براكة مزدوجة في أحد أجزائها المهندسة نجوى وفي الجزء الثاني المحاسب، لكن مدخلها واحد. دخلت سلمت على الآنسة نجوى التي ابتسمت بلطف، والمحاسب (أبو محمود) الذي ضحك بخبث، وشاب آخر عرفت فيما بعد أنه المراقب جعفر الذي حل مكان المراقب شمعون في هذا القسم. جلست وعلائم الانقباض بادية رحبتْ الآنسة وكنت قد رأيتها مرتين فقط، واحدة هنا وأخرى فوق في القسم الشرقي وكانت بصحبة رئيستها وهي لطيفة ناعمة، ولعل وجودها وبشاشتها ولطفها خففت حدة التوتر، لكن التعريض الذي بدأ به (أبو محمود) أعاده إلى ذروته حين قال: أين تذهبون؟ كنا عندكم فوق، بحثنا عنكم وماوجدناكم وماوجدنا مفتاح الدرج.. وقبل أن يتابع انطلقت مني كلمات عنيفة قاسية، صيحات، وصراخ، تأنيب وتوبيخ وتهديد شديد.

حاول أن يرد في البداية بأن هذا من حقه وهو المحاسب وأمين المستودع في المشروع، لكن صراخي أذهله، فسكت وتكوّم على نفسه باندهاش، وكذلك فغرت المهندسة فاها والمراقب والسائقون

الذين تجمعوا على الباب ليروا ما يحدث. وخرجتُ تاركاً ورائي دوامات كثيرة سريعة أصابت البعض بالدوار.

كانت المفاجأة بحجم تصورات الضعف والاستكانة والعجز التي تجمعت لديهم عني، وكان هجومي بحجم الكبت الذي ملأ خلاياي جميعاً.

لم يكن المحاسب هو المقصود الوحيد، بل كان المدير أولاً والآنسة هدى ثانياً ثم المحاسب وأخيراً العمال جميعهم والفرع بكامله. أردت رسم صورة جديدة تغطي التشوهات القديمة، وموقفاً يمحو خيالات المواقف السابقة، وسبيلاً لوضع جديد يجب أن يقوم.

لقد أصابت الطلقة الحلقة الأضعف، لكن صداها أصاب كل الحلقات الأخرى. وتوقعت أن يحدثني أحد عن هذا الأمر، أو يعاتبني أو يناقشني في كلام قلته.. وحين جاءا معاً لم يقولا شيئاً وكذلك حين أنت منفردة.

أما أنا فقد شعرت براحة عجيبة، وعدتُ إلى البيت يومها في قمة الانشراح. فرح أبي وكانت أمي تزغرد وتقول: انشاء الله لاقيت عروساً؟ ضحكت وقلت بمرح: نعم.. حضّري حالك.

قالت: أذهب على رأسي لو يكون الأمر صحيحاً..؟

وقضيت أياماً أكثر انشراحاً، ورحت أتلقى نتائج وتفاعلات ماحدث برضى واستعداد لمعارك أخرى قادمة، ربما ستكون أكثر مواجهة وشراسة، وأقل حظاً من النجاح...؟!

صار للبراكة الجديدة نصيب أساسي وحيز واسع من أحاديث عناصر المشروع، بل أصبحت المحور الرئيس للحديث والتعليقات والتكهنات والتوقعات، وتركت ظلالا من المتعة والحيوية في الهياكل التي كانت تتصلب من البرد والاكتئاب والتكرار الممل لكل شيء: الطقس، والعمل، والأشخاص والحديث والمواقف والتساؤلات والانتظار البليد. وصارت الحلقات الصغيرة واللقاءات الثنائية العرضية والمبرمجة تقوم أكثر من المعتاد. وأصبح الوضع الآن مشابهاً للوقت الذي تلا قدومي إلى المشروع؛ كان يحدث كل هذا همساً مع ضحكات مكتومة شبقة، أول الأمر، لكن سرعان ماتحول إلى همز ولمز وتعليقات مسموعة ومفهومة. كنت أغض النظر والسمع عنها كي لا يجرونا الحديث إلى أمور ليست في الحسبان. خاصة، بعد حادثتي الشهيرة تلك مع (أبو محمود)، وامتناع أي من الأنسة والمدير عن ذكرها أمامي أو الحديث معي بشأنها. وهذا ماجعل موقفهما غامضاً ومحيراً بالنسبة إلي ومدعاة للحذر والترقب.

وصارت قضية البراكة مسلسلاً لاينتهي؛ عيّن حارس جديد فيها، رغم أن ماتحويه لايتجاوز عدّة الحجّارين البسيطة، وأدوات أخرى كان وجود البراكة والحارس مبرراً لوجودها وليس العكس؛ وكان بادي الملل والامتعاض، ظاهر الخوف من وجوده وحيداً في

تلك المنطقة (المقطوعة)، كما قال عنها، وفي هذه الأيام الكانونية القاسية. كما أظهر دهشته وعدم اقتناعه بوجوده أصلاً. وطلب أن يكون الأمر مبادلة بينه وبين حارمينا، ولكن حين صار يُسْمَحُ له بالغياب متى يريد، بل متى يريدان، وهذا كان أكثر مما كنا نتوقع، أصبح أكثر مرحاً وفرحاً بعمله ذاك، ولم يعد يرضى بفكرة المبادلة.

كانت السيارتان تعبرانا نحو الغرب صوب البراكة الجديدة، على الرغم من عدم وجود عمال هناك . ثم بعد وقت يطول أو يقصر، تعود السيارتان إلينا، وتتكرر المواقف السابقة نفسها: حديث عن أهمية المشروع وضرورة بذل الجهد!! ومداعبات فظة مع السائقين أو (المعلمين) وكلام قليل غير هام معي. ثم يغادران فرحين. واستمر الوضع على هذه الحال، حتى غدا واقعاً لايثير الكثير من الاهتمام، حتى ذلك الصباح: حين وصلت، كالعادة، قبل وصول أحد إلى المشروع، واجهني الحارس فور دخولي إليه:

– أكلناها يا أستاذ..!

– صباح الخير أولاً: ماذا هناك يا (أبو معين)..؟! خيراً إن شاء الله..؟

– أمس بعد ذهابكم بقليل، جاءني رجل بدين، والشرر يتطاير من عينيه. وقال: من هو صاحب السيارة الزرقاء؟!

قلت مستغرباً: أية سيارة؟؟!

قال: السيارة التي تأتي إلى هنا كثيراً.. من هو؟! ومن أين ؟! وماهي وظيفته؟!

قلت: لاأدري عمن تتحدث؛ ولكن ماذا هناك..؟! ماذا جرى؟!

-ليس مهماً من يكون، ولكن أخبرهُ أن عاقبته وخيمة؟ هل يظن أن أولاد الناس لعبـــة بين يديه؟ هل يظن أنهم بلا أهل مسؤولين عنهم؛ ليطاردهم بالسيارة داخل أزقة الحارة؟

- ماذا تقول ياسيد؟ من الذي يطارد أولادكم ولماذا ومتى؟

- منذ وقت قصير. كان يطاردهم بالسيارة. قال أنهم كانوا يتطلعون من نوافذ البراكة! وماذا يعمل هناك ليخاف من الأولاد؟ وإذا كان هناك أمر مهم فليأت إلينا ونحن نربي أولادنا . أما أن نتركهم لدواليب سيارته، فهذا بعيد عنه ولن نرضى به ولن نتركه يمر هكذا! أبلغه هذا وقل له أننا نرى ونسمع مايجري ولسنا مغفلين، ويمكن أن نفعل الكثير لنوقفه عند حده..!

وقال الحارس الذي كان يضحك كما لو كان سعيداً: أنا سمعت منذ أيام أن أولاد الحارة يأتون بعد الدوام إلى البراكة الجديدة ليتفرجوا على ما يجري فيها، حين تأتي السيارتان إليها! وأنا لم أخبركم بذلك يا أستاذ ولكن كل سكان الحارة يتحدثون عنه. ثم تنوس الضحكة ويحل مكانها ذهول وكآبة وحزن: أترى يا أستاذ صرنا مضحكة بين الناس؛ مالهم سيره هنا غيرهذه السيرة، ماذا نفعل؟ ومازال الوقت طويلاً؟ أنا أستحي من البشر، كأننا نحن جميعاً نقوم بهذا العمل؟ إذا كان الذين على هذا المستوى يقومون به فما العتب بعد هذا على السائقين أو العمال؟

وأضاف وقد لاحظ الوجوم الذي خيم على وجهي والانقباض الذي ظهرت ملامحه بوضوح: كأنما يحكي بالنيابة عني.

–والله يا أستاذ شيء لايصدق صارت وجوهنا في الأرض.. أتمنى أن تدبر لي أمر النقل من هنا، هم يأتون ويذهبون وأنتم كذلك، أما أنا فأبقى وحيداً أواجه نظرات السخرية والاحتقار والتعليقات التي لاترحم، أرجوك يا أستاذ أريد أن أنتقل من هنا، أن أترك الحراسة، ساعدني أرجوك!

وانتشر الخبر بين العمال: الحارس قال لأبي عماد، وفتاة سمير قالت له، والسمان حكى لأبي جميل، وأبو جميل قالها بالصوت (المليان). أنا قلت للمراقب الذي علق: ليتهم يكسرون السيارة، أو يشتكون عليه والله أتمنى من أعماقي.

وقال: هل تقول للمدير ذلك؟ قلت لا والله. هذا الأمر ليس لي علاقة به. واتفقنا أن يقوم الحارس الذي تلقى التهديد بإخبارهما.

وقال الحارس بعد ذلك: غضب المدير وطلب مني أن أدله على الرجل أو على بيته، وأمرني أن أذهب معه إلى هناك ليؤدبه، ويعلمه كيف ينتهك حرمة البراكة والمشروع والفرع والشركة والدولة. أو سيحضر له الشرطة. طبعاً أنا قلت لا أعرفه.. مالي وهذه العلقة.. بنتقمون مني في الليل وأنا وحدي هل سينفعني سيادته أو جلالتها.. والله ورطة.. كيف الخلاص ياربي..؟! وضع يديه على رأسه وأطرق طويلاً..؟!!

* * *

الفصل الخامس

- ١ -

لم أر المصلبة بأطرافها هذه، التي نبتت ونمت في اتجاهات، عدة بمثل هذا الوضوح يوماً من الأيام التي مرت. ماهي بيوتها المتناثرة والمتنافرة واضحة جلية في هذا الضحى الذي تغشيه شمس ضارية.

بيوت ونساء مشغولات بالغسيل وإعداد الطعام وشرب المتة أو القهوة الطويلة والأحاديث المتواصلة. ويلهو فيها الأولاد الذين لم يشبعوا إلى الآن من الأيام التي مرت من عطلة الصيف. بيوت بلا رجال، سوى عجائز منهم من لم ييئس بعد طقوس الهوى فيدورون محاولين استرجاع علاقات بادت بعد أن طوتها السنين، أو بثّ الروح والحيوية في عروق علاقات تكاد تجف، غير معترفين بكل إنذارات الزمان، ومكابرين على لوحات الاستسلام التي رفعت فوق رؤوسهم. ولا منصاعين للسياط التي حفرت في وجوههم أثلاماً عميقة. أما من لايستطيع أن يدور يرخي العنان لذاكرته، ويختبيء بين تلافيفها، وحين يعود من خيالاته الخصبة إلى أرض الواقع القاحلة، يثور على الزوجة التي لاتتركه لحظة دون (نقّ)، أو الأولاد الذين لايتركون أحداً يرتاح حتى في بيته، أو

الدجاج الذي لايترك شيئاً دون أن يخربه. أو (العصبي) أو الروماتيزم أو السعال أو وجع الظهر، ولا تُنسى الحرارة التي تحرق ذنب العصفور أو الهواء الذي لايعبر من هنا...

بيوت بأشياء ورجال، هذه هي الصورة الحقيقية، وهذا هو الواقع الذي ينكشف أمامي الآن جلياً لالبس فيه ولا غموض، الواقع الذي لايغير منه كثيراً عودة الذكور من المدينة بعد الظهر، بل على العكس ربما يزيد التعبير صحة: وماذا يفعل العائدون؟ أكل ونوم أو بحث عن لقاء عابر أو مسبق التصميم.. لماذا تكون العلاقات بهذا التنوع؟! ولماذا يكون من الغباء الاستمرار في علاقة واحدة؟! وإن كانت علاقة زواج؟! لماذا يحرص الناس على التغيير؟ وفي جو محصور نسبياً كهذا؟ لماذا تلغى العلاقات وتعاد مرات عديدة؟ ولماذا تُتبادل الأدوار؟ ولِمَ أشعر أن هذه الصورة التي تبدو أمامي الآن بتفاصيلها المادية والنفسية، غريبة عني؟ هي الآن كذلك. قد كانت أيضاً في كل المراحل التي مرت..

قبل قليل من الشهور والأيام كنت وحيداً أو كنت أحس هذا رغم وجود كثيرين حولي بمجاملاتهم الفجة ولقاءاتهم الفارغة، وأحاديثهم المكرورة، ومواقفهم المتذبذبة ومشاعرهم المجانية؛ حين أعود من العمل عند الغروب شتاء، وقبله بقليل صيفاً، كنت أشعر بحاجة ماسة الى الناس إلى علاقات أكثر صدقاً وإلفة، أو أكثر وداً وانسجاماً وحميمية لأنسى برودة العواطف هناك.. وهموم

الإنجاز وتأمين المواد والكشوف، لكنني كنت أرى الناس هنا مشغولين عني وعن بعضهم ببعضهم، مشغولين برتق خيوط وقطع أخرى، وباصطناع سباقات واستجرار نجاحات هزيلة.

كان يبدو لي أحياناً أني أتوقع ماء في سراب قديم، وكنت ألوم نفسي على تلك الآمال؛ لكنها الحاجة التي تلح على النفس، الحاجة إلى مشاعر نقية وعواطف سخية، الحاجة التي لاتنتهي إلى مايملأ فراغ روحي؛ هل هي الحاجة إلى المرأة؟ المرأة التي لازالت صورتها غير واضحة المعالم لدي، ولازالت مخلوقاً مجهولاً رغم مخالطته، وبعيداً رغم قربه؟!

المرأة التي خبرت كل علاقاتها في المصلّبة حباً أو زواجاً أو خيانة، خبرتها مراقباً حيادياً غالباً ومشاركاً عن طريق أصحاب العلاقات مرات ومجرباً بتجارب شخصية هشة لاتصلح أساساً للتقويم.

كيف كان هذا؟ كيف عشت تجارب الكثيرين كأصحابها، وقست نصائح واقتراحات واستنتاجات وتقويمات، رغم أن خبرتي في هذا المجال معدومة؟

هل ألهتني علاقات الآخرين واهتمامي بها إيجاباً أم سلباً، فرحاً أو حزناً، استحساناً أو استهجاناً، عن علاقات شخصية؟! وهل كان توقي بحاجتي إلى علاقات مع المرأة لايتجاوز حدوده النظرية؟ وهل كان ذلك خوفاً أو ضعفاً أو غروراً أو مكابرة.؟!

هل كان لطفولتي البعيدة عن القرية وأطفالها ذكوراً وإناثاً علاقة بهذا الأمر؟ فالوقت القليل الذي أقضيه هناك لايكفي لإقامة علاقة تقتضي القرب والمواظبة والإلفة والتودد؟ وهل كان لانشغال زميلاتنا في الاعدادية بأساتذتهن وصرامة هؤلاء ومراجيتهم السبب في اجتناب منافسة مكفولة الخسارة؟ وهل لكون الثانوية التي درست فيها ذكورية صرفة سبب في توهم علاقات واجترار لحظاتها القليلة ونسج صور زاهية واهية.؟

وبعد، ألكل هذه الأسباب مجتمعة ولأسباب أخرى تتعلق بالتناقضات الكثيرة والفروقات الكبيرة والهموم المتزايدة استمر الوضع هذا في الجامعة وبعدها؟ أم هو الخوف الكامن، أو الخيبة المنتظرة خلف كل أكمة وعند كل معبر.

أم أن الحاجة كانت تقتصر على مثل هذه العلاقات، التي كثيراً مابدأت بنظرة، قد تكون عابرة وعاشت على أساسها وانتهت بعد فترة طويلة بحزن وأسى ودموع على فقدها؟ وهل كانت حاجتي تشبع عند حدود التعلق وهذا كان يكفي..؟

أم هي النهايات غير السعيدة التي آلت اليها علاقات كثيرة سواء حدث الزواج أم لم يحدث؟ لا أدري!أسئلة كثيرة كانت ولازالت تلح وإن أضحت الآن أقل نظرية وحيوية وأكثر واقعية. خاصة وإن تيار الاقاويل الذي لايفتأ يعبر القرية لاينجو منه أحد! يلاحقك حتى تنتهي دراستك أو الخدمة الإلزامية وخلال هذه المراحل يراقب التحركات ويخمن العواطف ويوجه الأحاسيس.

وحين استلام العمل أو الوظيفة أو تنخرط في سلك ما، لاحديث بعدها سوى الزواج. متى تتزوج؟ ماذا تنتظر؟ غداً يفوتك القطار.. شيء لابد منه، عليك وعليك.. ثم يبدأ هذا التيار بتفصيل القرينة التي تناسب المستوى التعليمي أو الوظيفي أو الأخلاقي أو المظهري أو العائلي، كل فرد يجرفه هذا التيار.

وإذا كان هذا الأمر يمكن اجتنابه أحياناً خارج البيت، فإن الأمر داخله أفظع.. وأشد ألماً

فوالدي يشير باختصار، يلمِّح من بعيد، عن السنين التي تمر والعمر الذي يفوت بلا رجعة وأمي التي لاتني تُذكر وتسأل وتلح وتولول.

مع هذا فإن الأمر لازال بعيداً، فهو مرهون بنتائج صرامة التفكير ومدى الاقتناع بالإجابات على أسئلة كثيرة.

لماذا ينتهي عسل الزواج باكراً؟ لماذا تنتهي كل هذه العلاقات الزوجية إلى جحيم من الجدال والنقار المحض والصراع الفاضح أو البرودة القاتلة أو الخيانة أو التفكير بها والذي لايقل آثاماً عن فعلها؟ هل هو الملل؟ هل هو الوصول؟ هل هو فقدان الانتظار؟ وهل هذا هو السبب الذي يجعل الصياد يفقد شهية أكل طريدته التي أمضى في اصطيادها وقتاً، وصرف جهداً ، وواجه مشقة التضاريس والصخور والأشواك؟ والحر أو القر؟

التفكير في هذا الأمر ليس جديداً والأمثلة كثيرة:

اسماعيل وفاطمة، إعدادي وأمّية، قصة حب عنيف مقاوم عنيد، ثم زواج فشل بشكوى وركض وراء علاقات جانبية!!

فواز وحميدة معلم وقارئة، سنوات من الحب السعيد وسنوات من الجحيم وحاجة ملحة للصبر..!! حامد وعزيزة مدرس ومعلمة، حب وتفاهم واتفاق وزواج وعلاقتان جنبيتان. علاقات أعرفها كأصحابها. أو أكثر قليلاً، أليس هذا كفيلاً بأن أعد كثيراً قبل الإقدام على أمر كهذا..؟! وهذه المشاهد التي تترى أمامي، الأستاذ عساف: المدير والزوج والأب والآنسة المتعلمة المسؤولة (الناضجة)!.

لماذا يحدث كل هذا؟ وإذا كان السبب الذي يجعله يبحث عن علاقة خارج أسرته؟ من ضمن أسباب كثيرة أحدها أن هذه العلاقة للجاه والمنصب والمسؤولية والسيارة والإدارة، فإن الأمر الذي يدعو للعجب، وربما التقزز والقرف، تلك الجرأة، وربما الوقاحة، في المجاهرة بها أمام أناس مختلفين في مستوياتهم وفي علاقاتهم، وطبقاتهم ومداركهم، هم الذين يجب أن يروا في رئيسهم القدوة والمثل. وأمام بشر آخرين لاعلاقة لهم بالمشروع أو الفرع إلا كمراقبين حياديين أو متطفلين أو منتظرين نهاية العمل في خندق خلّق لهم مضايقات واختناقات في المواصلات والتنقل وتأمين الحاجات. وهؤلاء جميعا يشتركون في رفضهم العلني لهذا الأمر على الرغم من أن كثيرين منهم يحومون أو يتمنون أن يقوموا بمثله..؟

* * *

الفصل السادس

- ١ -

كان شهر شباط شهراً شتائياً حقيقياً، لم تكن تظهر شمسه حتى تختفي وراء الغيوم السميكة المليئة بالأمطار التي هطلت بكميات كبيرة، وهذا ماجعل الإنتاج في المشروع ينخفض عن مستواه العادي وعن شهركانون الثاني الذي كان يعتبر لوقت قريب عاصمة الشتاء لكن أموراً كثيرة تتغير مع مرور الزمن حتى عواصم الفصول!

صحيح أن سقوط المطر يؤدي إلى التوقف عن العمل لاسيما في المشاريع التي جُلُّ أعمالها حفر وترحيل ردم على سطح الأرض أو تحته كما مشروع (الشرشار). لكنّ هذا يتوقف على العمال والسائقين والمعلمين. أما مسؤولياتنا نحن فانها لاتنتهي ولاتتوقف؛ إذ أن أموراً أخرى وهموماً مغايرة تستجد في مثل هذه الظروف؛ فالكشوف الشهرية إن انخفضت قيمها أو تأخرت تسبب عدم استقرار في واقع الفرع المالي دربما أدى هذا إلى زيادة في التأخير للرواتب التي تُنتظر بفارغ الصبر. لهذا كان لابد من استراق بعض أوقات الصحو للقيام بأعمال لاتتأثر كثيراً بالمياه الجارية في الخندق أو بالانهيارات الترابية، كبناء الجزء

العلوي من الجدران وتركيب البلاطات الضخمة المسبقة الصنع فوق الخندق العملاق، إذ لايحتاج هذا العمل إلا مقطورة ورافعة تقوم بالتحميل والتركيب.

كما أن من الأمور الهامة التي لم تأخذ حيزاً مهماً من التفكير قضية تلافي الأضرار الناجمة عن مياه الأمطار المتجمعة خلف الردميات الهائلة عل أحد جوانب الحفرة، أو المياه الهادرة من الشوارع منسكبة بقوة في المسيل.

فبعد عدة أيام تواصل فيها الهطول نهاراً وليلاً، تجمع خلف الردميات من جهة الأبنية السكنية كمية كبيرة من المياه التي شكلت بحيرة واسعة امتدت إلى الأقبية والطوابق الأرضية، عن طريق المجارير والبالوعات أو من خلال الأبواب والمصارف وسبب هذا غضباً وتهديداً وشكاوى عاجلة تجاوزتنا إلى البلدية والمحافظة. مما أوجب زيارات ميدانية لمسؤولين فنيين مع مدير الفرع وجهة الإشراف التي كانت مفرطة الثقة بإدارة الفرع والمشروع إلى درجة مجهولة الأسباب ومتكهن حولها.

كانت شخصية الأستاذ عساف حتى تلك الساعة محافظة على بعض توازنها الفني، أو كانت غير مختبرة بل كان متوقعاً أنها خبيرة، لاستلامه إدارة مؤسسة قوامها العمل الهندسي بكل أشكاله ومن صلب اختصاصه وشهادته التي يحملها، وإن كان التغاضي عن بعض جبلات البيتون واضحة الرداءة، غير مبرر إلا

من وجهة النظر المادية التي تخص الفرع. لكنه في هذه المرة كان ضعيفاً إلى درجة تدعو للدهشة والأسى، فلا هو ولاجهة الإشراف ولا رئيسة المشروع كان لديهم أي تصور عن الحل! فَتْحُ الثغرات في الردميات كي تمر المياه المحتجزة يحمل خطراً كبيراً على الجدران وأساساتها نتيجة السقوط الشلالي المحتمل للمياه، وترك المياه في مكانها يحمل أخطاراً تتعاظم مع مرور الوقت على الأبنية وأساساتها وسكانها. كما أن عملية ضخها إلى الخندق – إضافة إلى أخطار الجرف ستبقى عملية مؤقتة وحلاً آنياً لايفي بالغرض، خاصة وأن العمل هنا متواصل شهوراً أخرى عديدة. كان موقف الشركة ضعيفاً جداً وكانت حلولها مرتجلة، وقد تعرض المدير ورئيسة المشروع الى إهانات واضحة تشمل التفكير الهندسي والمنطقي والإنساني.

كان لهذه الواقعة أثر كبير في نفسي، وتمنيت لو لم أكن قد شهدتها، فبعد اهتزاز الصورة سلوكياً وأخلاقياً على مدى الشهور الماضية جاء الاهتزاز الآخر ليتركه شخصية هزيلة وهيكلاً فارغاً أو فزاعة في حقل ذرة بعيد..!!

*

القضية الأخرى الأهمُّ التي سببها شهر شباط وأمطاره الغزيرة، جاءت من استمرار تدفق مياه الشارع الذي يجلبها من

حارة سكنية مرتفعة ومكتظة، ويلتقي بها في الخندق، حيث تتركز ورشاتنا الرئيسية، بعد أن تتجمع خلف الجدران التي بنيناها والتي ترتفع عن منسوب الشارع قليلاً، هذا الشارع الذي حوّل السير فيه إلى شوارع أخرى حين المباشرة بحفر الخندق التي يقطعه في هذا الجزء من المشروع.

فقد أحدثت المياه هذه انزياحات في بعض الجدران وانجراف التربة الساندة للأساس نتيجة لسقوط الهادر، كما أحدث هذا ميلاناً في جدران أخرى وانكسارات في مناطق متفرقة من المسيل، حيث ضغطت التربة المشبعة بالمياه والتي عجزت عن تصريف مياهها عبر الفتحات التصميمية التي أغلقت بالتربة أو بالبيتون أو تمّ تجاهلها أحياناً تحت وهج السرعة والركض وراء الربح.

وحين حضر الأستاذ عساف والآنسة هدى لتفقد المشروع، لم يقولا شيئاً وقد خطر لي أن أذكّرهما بأن هذه التصدعات حدثت في جدران حضرنا جميعاً تنفيذها واعترضتُ على رداءة مجبولها البيتوني، لكنهما لم يكونا بحاجة التذكير، فقد أدار المدير وجهه بعيداً، وركب سيارته الزرقاء وغادر، وأرسل بعض الآليات والمعدات لتأمين تصريف المياه بسرعة، وأوصلت لنا الآنسة بعض التعليمات الخجولة التي تطلب فيها مراقبة الوضع بدقة وهدم وإعادة تنفيذ الأجزاء المتصدعة، وتدعيم الأجزاء الأخرى.

وحدث أن كنت أشرف على أعمال التدعيم، حين مرّ مسؤول الخدمات في المحافظة، وتوقف قليلاً لتفقد الجسر الذي وصلته حوله شكاوى كثيرة. ورأى بأم عينه الجدران المائلة والمتكسرة. وأخذ بعض المعلومات حول الموضوع والموعد التقريبي لإنهاء العمل. وفيما يبدو فان مدير الفرع أعطاه معلومات تتناقض مع مارآه وسمعه في موقع العمل. جاء هذا في مكالمة هاتفية أجراها هذا المسؤول مع المدير لاشعاره بمسؤليته واهتمامه. علمت هذا حين قالت الآنسة بعد قليل من وصولها:

- الأستاذ عساف (زعلان) منك يا أستاذ...؟ قالت (زعلان) ولم تقل غاضباً رغم أنها تقصدها.

- مني أنا؟ وماذا فعلت لأغضبه.

- أنت قلت للمسؤول في المحافظة أن هناك خللا في الجدران وأنه يجري تدعيمها وقلت له أن الانتهاء من إنجاز الجسر سيتأخر.

- وماذا أقول له اذا كان يرى بأم عينه التصدع والانزياح؟

- هو لايفهم في الهندسة والأمور الفنية. يمكنك أن تقول له أي شيء ويصدق.

- بهذه البساطة؟ وما أدراك أنه يعرف وأن تقارير كثيرة وصلت إليه وأعلمته وشرحت له بالتفصيل ماحدث..؟!

نظرت إلي باستغراب واتهام:

– تقارير؟ من أرسل هذه التقارير.؟

– من أين لي أن أعلم؟ أليس في هذه الحارة عشرات الموظفين في الدوائر المختلفة وفي المحافظة بالذات أو في الخدمات الفنية؟ وهم يلاحظون مايحدث ويراقبون كل تقدم في الإنجاز أو تأخر.

ردت بسرعة كأنما وخزتها عبارة «مايحدث».

– وما علاقتهم بنا... ليبلطوا البحر إن أرادوا..؟

– مهلاً يا آنسة، علاقتهم ليست بنا نحن، علاقاتهم بحارتهم وبيوتهم وشوارعهم.الأمر يهمهم أكثر مما يهمنا.؟ هل الوضع الآن مقبول؟ إن من حقهم أن يشتكوا إلى أية جهة يريدون. وأنا معهم إن أوصلوها الى العاصمة؟

– ماهذا الكلام يا أستاذ حسان؟ هل أنت مع الشركة أم مع الناس الثرثارين المغرضين؟

– وهل يوجد اختلاف في المصلحة بيننا نحن في الشركة وبينهم؟ لو كان بيتكم هنا هل كنتم تقبلون أن تستمر هذه الحال؟ اذا أراد أحدهم أن ينتقل من حارته، عليه أن يمشي مئات الأمتار حتى يصل إلى نقطة عبور. هذا غير الوحل والمياه والتراب الأحمر اللزج، أنتِ لاتلاحظين حوادث الانزلاق التي تحدث يومياً.. ولا تسمعين الشتائم والكلام الذي يصيبنا جميعاً.

هزت رأسها بصلف وقالت بكثير من الاعتداد بالنفس والاستهتار بالناس جميعا:

– نحن لسنا لجنة حقوق الإنسان، إننا متعهدون ومن

مصلحتنا أن نفكر بالطريقة التي تؤمن لنا الربح، صحيح أننا قطاع هام ولكننا متعهدون، ونحن نعمل تنفيذاً لعقد واضح، وهناك جهة تشرف علينا وتراقب التنفيذ، لانرد إلا عليها. ولا نستمع الى كل متفلسف يريد أن يجعل من نفسه فهيماً عارفاً ومدافعاً عن المواطنين. كل واحد قعد وراء مكتب ظن نفسه قادراً على تحقيق مايريد ويفهم العلوم والقوانين. نحن لسنا فارغي أشغال لنشغل وقتنا بهم أو نرد على كلامهم. ولا علاقة لنا بأحد.

– ولكن ليس هناك من عقد يسمح بأن يكون في تنفيذه ضرر للمواطنين أو للمصلحة العامة.

نظرت إليّ بعينين جاحظتين، وكأنما أحست بأن النقاش ربما يتصاعد إلى غير مايُرجى. فتوقفت عند هذا الحد، بعد أن رأت في عيني تصميماً على المضي في الكلام إلى آخر الشوط. أو ربما لم يعد لديها ماتتحدث به. فالذي قالته هدى حفظته من المدير وطلب أن تنقله إليّ. ركبت سيارتها بعد أن قالت:

– انتبه لنفسك! قلت لك المدير غاضب عليك وأنت لاتعرفه، وتخليك على جنبك.

وفي المساء عند نهاية الدوام، أوقف المدير سيارته المسرعة حين رآني وقال:

– أهلا بالمحامي العام، أنت أخطأت بدراستك الهندسة، كان يجب أن تدرس الحقوق. لا ولماذا تدرس، أنت ضليع بها.

– أنا يا أستاذ... ولم هذا الكلام؟

- سمعت أنك حامل لواء الدفاع عن المصلحة العامة..؟ أنا أحذرك..(شوف) ياحسان أنت هنا لاتخطط لنا ماذا يجب أن نعمل، بل لتنفيذ مانطلب منك، أما مشاكل الناس وشكواهم فاتركها لنا.. انتبه للعمال والآليات والبيتون ولاتتدخل في الذي لايعنيك! ها أني أوصيك للمرة الاخيرة..!! لاتنس أنك تلعب بالنار، لاتظن أننا لانعرف ماذا يجري هنا أو هناك.. كل صغيرة أو كبيرة تصلنيْ حتى المكتب. أعطيت الناس عندك قيمة لايستحقونها، صاروا أقل طاعة وأكثر كلاماً، اغمضتُ عيني عن أحاديث كثيرة، ولكن يجب أن تعلم انك مهندس جديد وانك في بداية عملك الهندسي وعليك أن تهتم بهذا الأمر فقط.. وتدع ماليس من شانك لاصحاب الشأن. احذرك.. وقد أعْذرِ من أنذر..؟

ثم أدار محرك السيارة ، شخرتْ ثم قفزتْ، وانطلقت بسرعة كبيرة لم يترك لي مجالا لأتكلم.. ولم يدع لي أية فرصة لأقول رأيي الذي يبدو أنه يعرفه تماماً.

وبقيت وحيداً في ساحة الفرع، نظرت حولي، العيون كلها تراقبني، كل موظفي المقر وسائقي المبيت والعمال؛ بعضهم أدار وجهه مع ضحكة فاترة، وآخرون بدا الاستياء واضحاً على وجوههم، ومنهم من كانت نظرته حيادية بليدة فارغة من أي معنى، ومنهم من اهتم بالأمر للتسلية والتطفل والتندر..!

وحين عدت الى سيارة المبيت، كانت ملامحي غير واضحة، فقد قال سائق المبيت الذي ركبتُ جواره أنني كنت مسوداً ومحمراً في آن واحد، أو خليطاً من ألوان كثيرة..

وقال (أبو عساف) الذي كان قريباً في انتظار الدقائق الأخيرة من الدوام: بدا أنك كنت مهزوماً، فقد كان رأسك منكساً!

أما أنا فأظن أني كنت غاضباً بل كنت أصطلي غيظاً. لأنه لم ينتظر أكثر. ولأنه لم يترك لي فرصة الدفاع أو الهجوم، أو الرد على أقل تقدير. ولأن هذا المكان بالذات وهذا التوقيت جاء في صالحه وإن لم يكن قد اختارهما. حينها قال سائق المبيت الذي إلى جانبي مواسيا:

– هذا الأستاذ عساف يا أستاذ حسان لايرحم، ولا يقدر أحداً، احمد الله لأن الأمر انتهى على خير.. اشكره لأنه كان مسرعاً..!! لابد أن لديه عملاً مهماًكما يبدو..!! وأرفقها بضحكة خجلة..

– كنت أتمنى ألا ينتهي الأمر هكذا، لكنه أسرع خارجاً. بالتأكيد لديه أعمال إضافية هامة أو سيطلع على أعمال مهمة في (الشرشار)..! وسيمر – لابد أنه سيمر– على البراكة الجديدة ليتفقدها ويتأكد فيما ذا كان الحارس اللعين يداوم أم أنه يهرب كعادته..!!

* * *

- ٢ -

قال مساعد المحاسب: (أبو محمود) لاينسى أبداً.. والمدير والآنسة لايردان له طلباً.. صبروا حتى جاءت الفرصة المناسبة، ونقل الاستاذ حسان.

وقال (أبوصالح): كان يضايقهما، زادها كثيراً، عبد المشروع وفتح أذنيه للثرثرة والشكاوى.

قلنا له: انتبه لنفسك يا أستاذ، أنت في أول الطريق، اغمض عينيك يا أخي وسد أذنيك كما يفعل أبو محمود والآنسة نجوى وجعفر (وفخار يكسر بعضه)! قلنا له: انظر (النسوان) حولك من كل جهة، تفرج على الأجسام واللمم والتضاريس، وانسى مايفعله المدير والآنسة، وقد تبرر لهما ذلك. لكنه لم يفعل، إيه كل واحد يأخذ نصيبه، والذي يحرمه الله، لايستطيع أحد أن يعطيه.

وقال (أبو محمد): مسكين الأستاذ حسان، درويش! ظن أنه المسيح المخلص، لم يكن له عمل إلا فلان مريض، فلان ابنه مكسور، فلان عنده عمل ضروري، فلان راتبه ناقص، لاتعاقب! حرام كلهم مساكين، وتغاضٍ عن التأخير. أعمال المشروع كلها في رقبتي، قبله وأثناء وجوده، حتى قياس المناسيب لايعرفه، انشاء الله يتعلم.. هو خامة جيدة ولكن عليه أن يهتم بنفسه،

ويدير باله على حاله، ويترك الناس ومشاكلهم وثرثرتهم.. العلم غير الممارسة، النظريات شيء والتطبيق شيء آخر.

وقال سائق الجبالة الذاتية: المراقب دبر له هذا المقلب، (أبو محمد) لايحب أن يرى أحداً فوقه، يعتبر نفسه أفهم من كل المهندسين، هكذا فعل مع الأستاذ خليل، وهذا ماقاله عنه أيضاً. والآنسة هدى تصدق ويهمها أن يكون مرتاحاً، في الحقيقة هو فهم طبيعة العمل وقواعد السلوك المطلوب، وأسلوب التعامل المجدي، والذي لاينتج عنه مشاكل! (أبو محمد) والمحاسب ركنان أساسيان في المشروع، لايمشي من دونهما أبداً. والأستاذ عساف يعرف هذا الأمر جيداً ويضحي بكل شيء، في سبيل أن يبقى على ماكان عليه قبل أشهر..!

وقال سائق الميبت: أنت طيب ودرويش، لايطلع منك شيء، والمدير ينفش ريشه على أمثالك.. أما الذين يرفعون أصواتهم في وجهه لأنهم مدعومون، هؤلاء لهم مايريدون.. انظر إلى الأستاذ مفيد حمود، ألم يستلم مشروعاً مستقلاً وسيارة خاصة؟! والأستاذ أحمد وردة كذلك أليس من دورتك وأتيتم سوية.. لم يبق غير الأستاذ أسعد، ذلك الدرويش الآخر، لكن أموره سهلة لأنه يسكن في المدينة.. وليس مثلك أنت المعلق بثلاثين عاملاً، توصلهم ثم تصل إلى البيت، وتفيق قبل طلوع الفجر، وفوق هذا ينقلونك حيث يشاؤون إذا بقيت هكذا. ستظل بلا أهمية، وستظل مضطراً لإيصالك إلى البيت وصرف وقت شاقي مجاني صباحاً ومساء.

وقال الحارس (أبو معين):كان يأتينا باكراً، ونتسلى كثيراً قبل أن يحين موعد العمل، مع أنه كان لايحب الثرثرة، ولكن كان يستمع إلي باهتمام، وكان لايجيب على كثير من التساؤلات حول المشروع، ويسأل في أوقات متفرقة، أحياناً يشرد وقتاً طويلاً ويظل كئيباً على كل حال الله يوفقه كان يحترم الجميع ويحترمه الجميع.

وقال المعلم (أبو حمدان) والله خسرناك يا أستاذ حسان، كان يعاملنا بلطف، لن نسمع منه كلمة واحدة تزعج، كان بيننا دائماً.. يستمع الى شكاوينا، كان يَعدُ أول الأمر، ثم صار يهز رأسه ويشرد فيما بعد- يد واحدة لاتصفق.. إيه... نحن لانستأهله.. فهذا المشروع لايعيش فيه إلا الساقطون، هذا المشروع مزبلة وحرام أن تلقى الوردة على المزابل، هذا المسيل لاتجري فيه إلا مياه المجارير..!

أما نحن الذين نرى ونتألم لسنا سوى حجارة في طريق تلك المياه.. كل يوم تغسلنا القذارة ولانفعل شيئاً- والأستاذ حسان كان حجرة كبيرة، قاومت لكنها بمفردها ماذا تفعل؟ إنهم شبكة قوية الأسلاك يمكن أن تصطاد كل من لايعجبهم ولايوافقهم على أفعالهم أو يؤيدهم في مطالبهم الله لايوفقهم! الحمد لله أيامي هنا قليلة، كنت أفكر أن أمدد عقدي بعد الستين، الآن لا... لن أبقى دقيقة واحدة زيادة.. إلى هنا يكفي..!

وقال شمعون: لاتؤمل يا أستاذ.. هؤلاء لايتركون أحداً بخير، لايريدون أن يكون بينهم واحد فهيم أو مخلص أو نشيط، توقعت لك هذا المصير، أنا كنت مثلك، وشرحت لك ماذا حلّ بي، إننا من الطينة ذاتها. وطبيعي أن تكون لنا المكافأة نفسها، لماذا لم يحصل هذا مع نجوى و(أبو محمد) وجعفر؟ في الواقع.. أهنئك..هذا أفضل لك.. انظر اليّ سلطان زماني! يريدون أن أجلس في البراكة ولا أزور ولاأزار.. ليكن! ها أنا قاعد هنا.. ومن يريد مني شيئاً فليأت إليّ..!!

وقالت الآنسة هدى: أنت تعرف يا أستاذ حسان أن مشروع الوحدات الإرشادية مشروع مهم، والعمل فيه بطيء، فهو يضم /٢٠/ عشرين رقعة ارشادية موزعة في القرى البعيدة. العمل يحتاج إلى أكثر من مهندسَينْ. وقال لي الأستاذ عساف:الأستاذ حسان نشيط ومتابع جيد.. ماراًيك أن تسمي به لنرسله إلى المشروع ذاك. وتيرة العمل منخفضة جداً هناك. وأنا لا أثق كثيراً بالأستاذ نصار فهو فوضوي ومتكاسل وغير مهتم. وأسعد ليست لديه روح المبادرة. مضت أشهر ولم يبدأ العمل إلا في أربع وحدات. وأنا وافقتُ من أجل ذلك فقط، ومن أجلكَ أيضاً لأن العمل في البناء يفيدك للمستقبل.

من جهتي أنا لم أفكر في الاستغناء عنك إلى أي مكان لو لم يطلب مني المدير ذلك وبناء على مصلحة الفرع ومصلحتك أيضاً!

وكانت عيناها تظهران ذلك الزيف الذي لايفارقهما! تحسب

وأنت تنظر إليها أنها تقصد شيئاً آخر غير الذي تتحدث عنه؟ حتى حين كانت تتحدث عن المشروع، كانت عيناها مشغولتين بأمر آخر، أما الآن: فإني أرى الزيف فيهما واضحاً وهما يبتعدان عن عيني بجهد واضح. لكن فيهما الآن نشوة السكر وغبطة المنتصر وسعادة الفائز. كان فيهما شيء قاس، سكاكين أونصال تنغرز مباشرة في العين وفي أماكن أخرى عميقة.

وجاء في الأمر الإداري:

إن رئيس فرع الشركة العامة للمشاريع الهندسية بناء على المصلحة العامة يأمر بما يلي:

ينقل المهندس حسان يوسف من مشروع (الشرشار) الاصطناعي إلى مشروع الوحدات الإرشادية اعتباراً من ...

أما أنا فقد كنت متوقعاً حدوث أمر ما، عقوبة أو نقلاً خارج الفرع، وكنت أجهز نفسي لصراعات أخرى كبيرة. لذلك، كان انتقالي أمراً جد عادي. وإن كنت أظنه نفياً أو نقلاً تعسفياً ولم أكن قادراً على تحديد مشاعري! هل أفرح لانتقالي من بين الكوابيس والأشباح التي لم تتركني مرتاحاً؟!

وهل أحزن وأنا أفكر بهذا النفي وهذا التصرف..؟! أو هل أفكر بالأوامر التي تعطى بسهولة.. وهذه المصلحة العامة التي تُجرُّ ببساطة إلى الأوامر الإدارية والقرارات المرتجلة، تتصدر واجهاتها، وتكون السيف المشرع فوق رؤوس العباد والسوط الجاهز للجلد.

القسم الثاني

الفصـــل الأول

- ١ -

كان صباحاً كئيباً، غيوم تظهر فوق البحر وغيوم تحتل الشمس في الشرق.. والساحة مليئة بالمياه المتجمعة في أماكن منخفضة كثيرة وبعض الوحول تصل حتى عتبات البراكات فتلونها بلون الطين.

وكان وحيداً لايزال، متشائماً عابساً كئيباً كعادته. وقال الأستاذ أسعد حمدان:

ليس الوضع هنا أفضل من مشروعك القديم ياصديقي... فالأستاذ نصار محظوظ غيرهم ولاشيء يثيره أو يشغل باله. سواء سار العمل أم لم يخطُ، لايستمع إلى أحد. ومن جهة الفرع فإنك تحسب أن ليس عند الأستاذ عساف مصيبة إلا مشروع الوحدات الإرشادية. يتصل دائماً، يؤنب ويصرخ، في كل مجلس يقول:

كيف يقضون أوقاتهم إذا كانوا لاينتجون شيئاً..؟! ماذا يفعلون في مشاريعهم المتواصلة إذن؟ مع هذا، الأستاذ نصار غير مبال، يركب سيارته ويمضي منذ الصباح ولايعود إلى المساء. أقول له: المتعهد فلان لم يف بوعده ولم يباشر العمل،

يقول: اذهب إليه وانذره، أقول: ذهبتُ وتشاجرتُ معه، وأنا لايمكنني العمل معه. يقول: طول بالك عليه! من أين نأتي بغيره؟! ويذهب إليه ويراضيه ويعود ذاك رافعاً رأسه، لايرد علي إن كلمته، بل يهددني أنه سيترك العمل إن وقفت فوق رأسه وأعطيته الأوامر..! وقال لرئيس المشروع والمدير أنني أنا من يعيق العمل! تصوروا بعد كل هذا التعب والعذاب الجسدي والنفسي! تتفق مع متعهد، وتظل وراءه حتى يباشر العمل، وتقف معه أثناء التنفيذ لكي تكون المواصفات والشروط محققة، طبعاً بعد أن تؤمن المواد الكافية والملائمة.. وأين تذهب..؟! وأياً منهم ستتابع إذا كان لديك عشر وحدات كل منها في قارة..؟!

بعد هذا كله تطلع أنت من يعيق العمل وأننا مهملون ومتكاسلون وها أنت سترى بعينيك وتحسُّ كم نعاني، ومع ذلك أقول: انتبه من الأستاذ نصار فهدوءه لايريح وهو لاشك يخفي شيئاً تحت برودته!

على كل حال: أهلاً سهلاً بك .. لقد فرحت بقدومك إلينا.. على الأقل اثنان أفضل من واحد.. ويمكن أن نتفق ونتعاون وإنشاء الله خير..!

أما الأستاذ نصار- حين تقدمت منه وعرفته بنفسي – فقد نهض واقفاً باش الوجه وسلم بلطف وتهذيب وعرض على مسامعي حال المشروع الصعبة وخصوصيته كونه موزعاً في

عشرين قرية في اتجاهات مختلفة، وأكد ماقاله أسعد من أن صورته في الفرع غير ناصعة وخاصة عند رئيس الفرع. وأوضح لي طبيعة العمل: نحن نؤمن للنجارين العقريات والمواد، وهم يقدمون اليد العاملة للبناء والجبل والصب. لهذا لايمكن تسميتهم بمتعهدين ولا ضرورة لعقود موثقة، تكفي عقود ثنائية بيننا وبينهم. إنهم نجارون من خارج المؤسسة. بعض الوحدات بوشر العمل فيها وبعضها الآخر مازال بانتظار من يتقدم إليها. إن مهمتنا جميعاً البحث عن نجارين موثوقين، ومتابعة العمل في الوحدات الأخرى. سوف تطلع اليوم وغداً على مواقع العمل جميعها، ثم نحدد لكل منا، نحن الثلاثة، محوراً يكون مسؤولاً عنه مباشرة..!

كان يتحدث بهدوء يبدو طبيعياً، وباقتصاد ووضوح، وكان يبدو متفهماً لمسؤوليته، ولأوضاع المشروع على عكس مافهمت من أسعد.

كانت الوحدات تنتشر على ثلاثة محاور: محور شمالي وفيه سبع وحدات، ومحور شرقي وفيه ست وحدات، ومحور جنوبي وفيه سبع وحدات إرشادية.

ولما كان العمل في المحور الشمالي قد بدأ منذ فترة يقوم به بعض أصدقاء الأستاذ نصار ومعارفه فقد كان طبيعيا أن يكون المحور الذي يخصه..! أما المحوران الآخران فقد خيَّر الأستاذ

أسعد بينهما. مع ذلك فقد كان الامتعاض بادياً على وجهه.. إنه تشاجر مع متعهدين في كلا المحورين.. وبالتالي هما محوران أحلاهما مر.. وحين لاحظ انزعاج الأستاذ نصار من تردده وخوفه اختار أهون الشرين. الأقرب إلى المدينة، وكان المحور الشرقي. كان الأمر سيان عندي فكل المحاور جديدة عليّ وكل الناس جديدون، وهذا النوع من أعمال التعهد لم أعهده. مع ذلك فقد أحسست برهبة من تخوف أسعد.. ومن التعامل مع التجاريين.. ومع الأستاذ نصار رئيس المشروع؛ أهو هم التعامل مع زميلين متناقضين: أحدهما عرفته منذ زمن لكنها معرفة لم تتعمق، رغم مانشترك به من بساطة وحرص وهموم.. واكتئاب..؟! والآخر جديد علي تماماً..؟! فكل لقاءاتنا السابقة كانت سلاماً عابراً، وأعتقد أنه لم يستطع أن يطابق الاسم الذي جاء في الأمر الإداري على شكلي غير المميز. لذلك فقد ظهرت دهشة ما على محياه حين استقبلني هذا الصباح..؟!

أم هو إثبات الوجود الذي لابد منه كي تزول القطيعة التي بدأت منذ قليل بيني وبين الأستاذ عساف لأسباب لاعلاقة لها بالعمل كما يعرف هو؟! ولكي يزال التقييم الراسخ في ذهن مدير الفرع عن جدارتنا أنا وأسعد باستلام مشروع مستقل. كما أوضح أسعد.. مبديا غضباً وحنقاً ورفضاً غير معلن..؟!

أم هي رهبة البداية الجديدة التي لابد من وجودها عند كل خطوة مغايرة لما قبلها لاختلاف وعورة الطريق أو انحراف الاتجاه، أو هذا وذلك معاً.

أم هو الخوف الذي يلازمني بداية ونهاية ووسطاً؟! أم هي أشياء أخرى غامضة بعيدة قديمة أو قادمة..؟!

* * *

-٢-

على الرغم من كل الإرباكات والإشكالات التي رافقت بدايتي المتعثرة في هذا المشروع، بدءاً من التعامل مع سائق مرافق ساعات طويلة، ومروراً بالبحث الدائب عن تجارين المشاريع وتأمين مواد مختلفة لأمكنة وعرة ومتباعدة، وانتهاء بالإعياء الشديد الذي ينتهي به اليوم بعد سفر متواصل عشرات الكيلومترات، كثير منه بلا فائدة أو نتيجة؟ على الرغم من كل هذا فقد شعرت ببعض المتعة والرضى؛ ففي هذا العمل بعض الاستقلالية. أذهب في الصباح مع عمال قليلين لتحميل المواد أو إنزالها أو للقيام بعض الحفريات اليدوية، أمرّ على كل وحدة، أتفقد سير العمل أتوقف في الأماكن التي تقتضي إشرافاً مباشراً حيث توجد أعمال صب، أو آلية تحفر أو تسوي.

أعلم جهة الاشراف أولاً. صحيح أن مواعيد كثيرة كانت تتخلف، ولقاءات عديدة كان متوقعاً لها أن تتم لم تتم. وأعمالاً متنوعة يتوقع لها أن تنفذ في أيام محددة لم تنفذ، لأن الآليات لم تأت أو مادة أومواد لم تصل، أو بسبب الأمطار التي تحول الحفريات إلى برك من المياه والتراب، والطرق إلى مزالق يغدو التحرك فيها مغامرة. هذا عدا ثورة السائقين التي لاترحم. والمراجعات بشأن أي عمل من هذه العراقيل ليست أمراً بسيطاً فهي تتطلب العودة إلى مقر المشروع في الفرع وغالباً ماكان يرجأ اضطرارياً إلى اليوم التالي، إذ إن رئيس المشروع مثلاً، لايتواجد إلا صباحاً وقبل نهاية الدوام بقليل.

وصحيح أن مشاحنات مع بعض النجارين، ومشادات وتهديدات تحدث خاصة حين التخلف عن موعد عمل مهم، أو حين التنفيذ في غياب أحد منا أو من جهة الإشراف، أو حين استخدام خشب سيء أو حديد تسليح لايكفي.

وصحيح أيضاً أن مدير الفرع لم يتوقف عن رشق المشروع والعاملين فيه بشتى التهم، مع ذلك كله، فقد كان في العمل متعة لم أجدها في مشروع (الشوشار). على الرغم من أن أحاديث السائقين اللذين تعاقبوا على مرافقتي لم تكن أقل شبقاً من أحاديث أبي عماد أو ثرثرة سائق الجبالة الذاتية والمدحلة ولا شكاواهم من السفر الطويل، وأعطال السيارات واتساخها

وتعبها، أو حين تقطع الطرق المنحدرة والوعرة، والموحلة والمحفرة مرات عديدة في اليوم كانت أقل حدة وإزعاجاً.

لكن علاقات جديدة أقيمت مع بشر آخرين من نوعيات مختلفة خارج نطاق الوظيفة؛ هذا الرباط الراضي الذي يشكل – كما فهمت أخيراً – عائقاً أمام عمق العلاقات وصدقها ودوامها.

فهؤلاء لايخافون من أحد، ولايتعاملون مع أحد ولايلتزمون إلا بما أقوله لهم. أو هكذا ماخمَّنته وقتها. وكم كنت أجد من المتعة والنشوة حين أجد أحدهم ينتظرني في قرية بعيدة، أو يقصدني في الصباح. أو ينتظرني في مكتب المشروع حتى عودتي ليسألني عن أمر ما ، أو عن تفصيلة فنية أو ليخبرني عن شيء مهم منجز.

بقدر ما كان هذا يسعدني كانت أشياء أخرى تشقيني، فالأسفار الخائبة والأعمال المخططة التي لم تنجز وبعض التَّمردُة التي كان يظهرها عبود الصالح أحد المتعهدين في البداية، حين قام مرة بتمزيق إنذار موجه اليه من رئيس المشروع نقلته إليه مباشرة، والذي لكتشفت فيما بعد أن للأستاذ هساف الذي غضب وهدد وتوعد علاقة به. كما كانت له علاقات أخرى سرية مع كثيرين من المتعهدين علاقات تتوطد في السهرات والولائم والليالي الملاح.

وربما أنت المتعة من عدم الرتابة في الأعمال اليومية في

الأماكن المتنوعة، فمن الممكن أن يكون العمل في الوحدة الأولى حفريات، وفي الثانية ردميات وفي الثالثة صب أعمدة أو سطح، أو بناء بلوك كما يمكن أن تكون المتعة في التناوب بين السرور والكآبة: سرور من انجاز مهم في وحدة ما، وكآبة من خواء في وحدة أخرى. ربما كان في الترقب والانتظار والتنوع ما يعطي ألواناً متحركة، تجعل الساعات الطويلة تمر دون علم بها، وكثيراً مافاتتني الوقت لولا تنبيهات السائق اليقظ دائماً والذي سيلحق الكازية ليملأ خزانه بالوقود، فأمامه مسافة مبيت طويلة، أو سيجهز سيارته قبل انتهاء الدوام.

وربما لأن العلاقة مع الأستاذ نصار رئيس المشروع ممتازة. لم يحدث أي خلاف إطلاقاً وكان يتقبل الهفوات أو الأخطاء الفنية أو الإدارية بكثيرمن التفهم والتسامح والهدوء على عكس علاقته مع الأستاذ أسعد التي لم تتحسن، بل كانت تزداد سوءاً مع زيادة الشك وانعدام الثقة بينهما.

* * *

- ٣ -

كان خليقاً بمحسن مهنا، محاسب مشروع الوحدات الارشادية أن يكون حلاقا أو حكواتياً، فلسانه لايهدأ فمه إلا لماماً. يتكلم في كل شيء يعلم كل شيء، ولا يعلم شيئاً. لكن الذي يعلمه بالتأكيد، ويعيده دون أخطاء هو قصة حياته، وزواجه، وبيته الذي يتابع بناءه، وأولاده، وزوجته وكل مواصفاتهم. فلم تمض أيام على تواجدي في مشروع الوحدات الإرشادية حتى كنت خبيراً بكل هذا. فلسوء حظي أني أصل المكتب في الصباح أولاً. ثم يأتي محسن ونبقى معاً دقائق قد تطول، ويبدأ الحديث بلا استئذان، ولايتأثر بنعاسي الذي يظهر لاني أفقت باكراً وسهرت كثيراً كعادتي، ولايتأثر أيضاً بمقاطعاتي التي لاتتعلق بما يقول. لكنه يعود ويتابع، ويلومني أحياناً لشرودي أو لعدم تعليقي على مايقول أسئلة أو موافقة أو استغراباً. ووجّه ملاحظة مرات أنه ليس من اللائق أن أغمض عيني وأنا أنظر إليه يحرك شفتيه ويضحك ضحكاً مبالغاً فيه وبلا سبب وجيه. لكن هذا لايعفيني بل علي أن أضحك.. وقد يعيد الكلام أمامي للأستاذ أسعد أو الأستاذ نصار أو يعيده لي أمامهما. غير عابئ بالتململ، أو الاستياء أو حتى الخروج من البراكة. فحين يشعل سيجارته يبدأ محاضرة عن أنواع الدخان خفيفه وثقيله، وعن

مضار التدخين المزعومة وفوائده المتنكر لها. ومن تجاربه الأولى، وسعاله حين ذاك ودخانه وارتمائه على الأرض، ثم استشرت العادة. وحين تمر موظفة من موظفات الفرع القليلات يتذكر الزواج وهو يلاحقها بعينيه اللاقتين ثم يبدأ محاضرة أخرى عن محاسن الزواج وجمال الأبوة والأولاد ونعمة الاستقرار، ولاينسى أن يعرج على فضائل العزوبية وخلوها من المسؤولية والهموم البيتية المضنية. ثم لايلبث يتحدث عن تاريخ هذه الموظفة أو تلك أو ذلك الموظف أو سواه، والعلاقات المزرية القائمة بين الموظفين والمنافسة على المناصب الإدارية القليلة التي يتنازعونها، وعن جامعته التي تركها بعد السنة الثانية، وهو ينوي كل عام أن يتابع الدراسة ليستلم ربما القسم الاداري الذي لايليق بأحد غيره، فإجازته المتوقعة في الحقوق وعمله في القسم الاداري قبل تعيينه محاسباً لهذا المشروع يخولانه ذلك بل يحتمانه.

ووجوده هنا ليس عبثاً، ولولا ثقة المدير به، ماكان زجه في هذه العلاقات غير - المحدودة - والعقود الكثيرة مع أناس من خارج المؤسسة. إننا محظوظون به والمشروع محظوظ أيضاً وكل المتعاقدين وأبناء القرى التي تُبنى فيها الوحدات الإرشادية وربما الأجيال القادمة..!

إن مشكلتي تكمن في الاستماع. فأنا أستمع الى كل شيء وأتابع كل حدث ولو على مضض وإن كان مملاً وسخيفاً وهامشياً.

أحياناً كثيرة ألوم نفسي لأنها تقبل الإهانة كي توفر للآخرين متعة الحديث فكيف أتحمل الوقت كحصى صلبة ترتطم برأسي، وجسدي كله؟! فأخرج بعد جولة ثرثرة ناجحة مضعضعاً خاوياً من أية رغبة في العمل أو الحديث أو الكتابة أو الحسابات.

منذ صغري وأنا أحب أن أسمع ، أجلس مع مختلف الضيوف والزوار وأنصت باهتمام إلى أي حديث يقال، وأشعر بألم عظيم حين أُرسلُ في مهمة لإحضار شيء للمائدة أو للقعدة. والأمر الأشد إيلاماً تَهربي المتواصلُ من والدي، وتأنيبي على حبي للاستماع، أما الذهاب إلى القرية لإحضار خبز أو عرق أو متة أو أدوات أخرى فهذا الطامة الكبرى، لأن جزءاً كبيراً من الأحاديث سيفوتني ولامجال لتعويضه.

وكم كنت أحب أن تأتي جدتي إلينا لأفرغها من الحكايات الطويلة، وأستمتع بها حتى وهي تعاد وتتكرر، وتُستقطعُ لإخبار أمي بولادة جديدة، أو قران سعيد، أوحمل ظاهر أو علاقة مشبوهة وكلام كثير عنها.

مع هذا كانت متعة الاستماع لاتنقطع حتى أثناء هذه الأخبار..!

كنت أرهف السمع إلى والديّ يتهامسان في ليالي الصيف المقمرة. أو في الشتاءات القاسية. كان همسهما عذباً جميلاً دافئاً تتخلله ضحكات خافتة يزيد من متعتها محاولتهما ألا ترتفع كي لا يُفسِدَ رقادنا السعيد لهوُهما المائع.

كنت أحس بالخجل حيناً، فأطمر رأسي تحت اللحاف السميك المصنوع من ثياب ممزقة بالية؛ وأحياناً بالسرور، فأرى أحلاماً سعيدة وأمارس لعباً لاوجود لمتعته في"الواقع. وفي أوقات أخرى تحلُّ عقدة الذنب فتحل الأحلام المزعجة والزملاء الأشرار.

وكثيراً ماكان يتطور الهمس إلى جدال ثم شتائم، يرتفع بها صوت والدي واحتجاجات أمي التي تتراجع. حينئذ تداهمني الكوابيس وأشعر أن حبالا تقيدني وصخرة فوق صدري وليلاً وظلاماً وأصوات رعود وعواصف وجنيات وحيات تتدلى من أخشاب السقف. وأشجاراً تتشابك ومياه السيلين تتلاطم تحوي حتى تصل إلى عنقي وأكاد أختنق.

وأصرخ، أحاول ذلك، وأفيق على يد أمي، وصوت والدي، ونور السراج الضئيل. وكنا نتصت في الأصياف من على سطح دارنا الترابية إلى الأصوات التي تأتي من القرية شحيحة ضعيفة غير مفهومة إلا بعضها: فنتحاور من يكون أصحابها وأصحاب الضحكات المجلجلة والصياح والعراك والسباب والشتائم. لم يكن هذا الأخير عصياً، فهي لأشخاص معروفين رجالاً ونساء، ومعروفة طريقتهم في إطلاق الألفاظ النابية والعبارات القاسية الوقحة التي تتكرر وتتوالد عند كل جولة.

كان في إنصاتنا لذة الاصطياد، وهاجس وعذاب الحرمان والبعد، ونهاية شوق ورغبة وأمنيات، أو شكر وحمد وارتياح.

وكانت أصوات الضفادع والجنادب تعيق الإنصات أو تشكل خلفية موسيقية يختلف موقفنا منها باختلاف الأصوات القادمة من بعيد. لكنها كانت دائمة، ولها قيمة المشاركة في الأحلام والخيالات والأفكار، حين نتلمس بين تقاطعاتها أصواتاً تقترب، أو خطى تصارع المصى، آملين أن يكون هناك قادم يسلي وحدتنا في هذه المنطقة القصية.

أما أصوات الرياح العاتية وهدير المياه في (الشرشار) أو الفوار، فكانت تصل إلى الزاوية الداخلية من البيت، ونستمع اليها بخوف ضاغط حين يكون أحدنا لازال في القرية، وبرهبة وخوف بعيدين، ونلتمس الأمان والدفء حين نكون جميعاً قرب الموقدة العريدة.

وفي المراحل المدرسية المتعاقبة كان يتحدث إليَّ الكثيرون من زملائي، كانوا يقولون أي شيء، يعترفون بخطاياهم الصغيرة والكبيرة، بعلاقاتهم الغرامية القديمة والجديدة، بمشاكلهم الصبيانية، في القرية، كانوا يتحدثون دائماً وكنت أستمع إليهم دوماً وباهتمام. ولم أتحدث إليهم بأي شيء عني، لم يسألوا ولم أفعل إلا لأمر مفرح طارئ، أو حزن كبير قريب.

كانوا فرحين بحديثهم وكنت سعيداً بالاستماع: مستودع هائل من المشاكل والهموم في رأسي، ونشوة كبيرة في معايشتهم انفعالاتهم، كنت أفرح لهم أكثر مما أفرح لنفسي، فقد

كان فرحي منقوصاً دائماً، وأحزن لهم مثل مايحزنون لأنفسهم أو أكثر قليلاً، وأستمتع بمغامراتهم وأندهش لغرابة تصرفاتهم أو حكاياتهم أو مبالغاتهم. وفي الأصياف الكثيرة أنصت باندهاش وأراقب بغرابة مايقوله لداتي العائدون للتو من بيروت. بيروت التي امتلكتني: السيارات المجنونة والأبنية العالية والشوارع الاسفلتية الواسعة، والأنوار الساحرة والجسور، والأنفاق، والليرات الثمينة، والسينما، وكم كان صعباً تصورها، والشراب الوفير بكل أنواعه، والبحر والسفن والشاطيء، والصبايا الفاتنات بلباسهن المختصر وزينتهن وسهولة الوصول إليهن - هكذا كانوا يقولون - وكيف لي أن لا أصدق؟! إنهم جدُ صادقين، كانوا يتحدثون باستفاضة وبلا تركيز وكذلك كان استيعابي..

وكانوا فرحين بفمي الفاغر وانشدادي إلى كل كلمة، متعالين حين أستفسر منهم عن شيء لم أفهمه، وهل فهمت شيئاً؟!

إذا كانت صبايا المصلّبة يذهبن مع آبائهن إلى بيروت ويعود هؤلاء وحيدين أما اللواتي تُركْنَ هناك فلديهنَّ أعمال مهمة، هذا ماكنت أظن، خاصة حين يرجعن بلغة غريبة، وألفاظ غير مفهومة، وزينة ولباس وأشياء كثيرة جديدة..! بيروت التي قصدها الكبار إلا من بقي ديكاً على دجاج كثير...! بيروت الحضارة، المدنية، الحياة، الجنة، الحلم المستحيل. ومن أين لي تحقيقه وبيني وبينه والدي؟!

دائماً أحب الاستماع وأتقن الإنصات؛ أو أن الصمت هو الذي يعرض بضاعته ويجرب حظه في مراحل متعاقبة وفي ظروف مختلفة... وقد نجح...!!

وفي مشروع، الشرشار الاصطناعي، استمعت كثيراً: شكاوى وهموماً منزلية ومشاكل وظيفية، وإشاعات وملاحظات متنوعة. وكنت أستمع إلى أحاديثهم التي تدور فيما بينهم حين يظنون أني لا أسمعهم، أو حين يقصدون إسماعي. وفي هذا المشروع، الوحدات الإرشادية، فالسفر الطويل يعرضني لأحاديث متنوعة مستمرة من السائقين الذين يتغيرون وتختلف أحاديثهم لكنها تشترك بشيء واحد: الجنس -!

لم هذا الشبق الذي يعم السائقين، كل السائقين: الذين أعرفهم داخل الشركة وخارجها في القرية والقرى الأخرى المجاورة، في المدن القريبة والبعيدة، يتحدثون باطراد عن الجنس وعن النساء برغبة ومتعة واشتهاء. يضاف إلى السائقين العناصر التي لاتعمل مباشرة ولا تبذل جهداً عضلياً كان هذا في الشرشار وفي الفرع كله، الموظفون والإداريون والمراقبون وها أنا أقع تحت رحمة محسن، ليشبعني ويصد نفسي عن المزيد، هذه مشكلتي، نصار وأسعد ومراقبان جديدان لايستطيعون الاستمرار، ويقطعون استرساله ويوقفونه في أي مقطع من الحديث، أما أنا فلا أستطيع ذلك.

لماذا؟! تساءلت كثيراً: ألأنه يزهل حين لايجد من يسمعه؟! أم لأني شخصياً أستمتع بذلك؟! لست متأكداً.. ولكني متأكد من أني أحياناً كثيرة لا أعرف مايقول... وأحياناً أخرى أجره الى الحديث.

هل هي مشكلة الاستماع وبالتالي مشكلة عدم الكلام هذه التي لا أعلم إن كانت نعمة أو نقمة. لكن حبي للإنصات وحب الآخرين للكلام يجعل منها أمراً واقعاً ومهما.

صحيح أن هذه القدرة على الاستماع أو الرغبة به تدعو للتفكير والتعجب، لكن الذي يدعو إليهما أيضاً تلك الرغبة في الكلام وتلك القدرة على ذلك عند معظم من قابلتهم وعايشتهم. إن عند بعضهم القدرة على وصل الحديث بالحديث، القديم بالجديد الحكاية بالطرفة بالمأساة. دون فواصل ودون تنبيهات كي أغير الملامح فوق وجهي أو تتغير أوضعا. كما أن لدى آخرين الجرأة على (نشر غسيلهم) كاملاً، وشرح خصوصياتهم وتفاصيلها بمتعة أو أريحية. ربما كان هذا لأني مستمع جيد أو مثالي، لكني اكتشفت أن كثيراً من الاسرار، لم تكن أسراراً وكثيراً ماسمعت بأمور كنت أظن نفسي هاماً لأني خصصت بها، أو حوادث كان يطلب مني أن أكون لها البئر الأعمق وكنت كذلك. ترى لماذا هم هكذا؟! ألأن الكلام يريح بعيداً من الفضيحة والعتاب، هل صحيح أن التحدث مجلبة للانفراج؟ كانت تقول أمي ذلك وكذلك أبي حين

يراني متجهماً: احك يابني بماذا تحس؟! هل أنت مريض هل هناك مايزعجك ؟! إذا كان هناك من أمر قله تنفرجْ! لاتجعل مافي رأسك يمرضك.. أقلقه بأولادي.. احك! لكن ماذا يمكن أن أحكي وهل ما أفكرفيه من الأحاديث التي يمكن أن تقال؟!

وحين أكون وحيداً أستمع إلى أصوات قادمة من أعماق سحيقة أو من فضاءات لاتنتهي.. أستمع، شارداً ساهماً، الى أسئلة غريبة غير معتادة واحتمالات ناشزة وأحكام جديدة. كانت تأتيني وحيداً وأرددها بيني وبين نفسي، أسئلة تغوص في البعيد، إلى أعمق حكاية عن المصلبة وأهلها والكون وحواء، وآدم، والتفاحة.. وتتجاوز الفضاء المرئي بنجومه، ودربِّ التبان والقمر والشمس وحرائقها الهائلة.

أفكار عن الكروية والمدارات والإشعاعات، وقد يصل التفكير إلى حدود مرعبة، إلى الموت وسببه وغايته، والجدوى من الحياة، وماذا يحدث إن تغير هذا النظام الكوني.. ولماذا كان أصلاً.. ومن فجر ذلك النجم الهائل وهل ستنفجر نجوم أخرى؟!

وهذا مازاد صمتي لكنه صار صمتاً من نوع آخر صمتاً يتجاوز الانذهاش والاستغراب والمشاركة الوجدانية في الانفعالات.. إلى مشاركة خارجية لاتتجاوز الهز الآلي بالرأس أو التصديق أو رفع الحاجبين أو تحريك الشفتين أوقلب إحداهما.

كان استماعاً وصار صمتاً، كان إنصاتاً وترقباً وصار سكوناً.

كان تجميعاً واختزاناً للحوادث والمواقف والمعلومات، وصار تساؤلاً وانشغالاً وابتعاداً. كان مشاركة وصار عزلة، كان حاجة ورغبة وصار أمراً مفروضاً لا أملك مقاومته.

كان متعة أو استمتاعاً وصار قلقاً أو اكتئاباً.. لايتقضيان..!

* * *

الفصــل الثــاني

- ١ -

المسلَبة الجديدة، بضاعة مرمية بفوضى، قدور وأدوات (لتور) مرّوا!

أشياء مبعثرة لرجل فاته زمن المراهقة دون أن يراهق فقرر أن يعيشه ثانية؛ ولكن هيهات..!

هدوء واسترخاء، كسل وتكاسل، وتثاؤب تكاد قسماتها لاتكفي له. نعاسُ العاجزين واليائسين والكسالى ينهمر دفعة واحدة على جسدها المسترخي دون تَمَلْمل أو تَحَرُك إلا للحك أو كش الذباب أو الزحف وراء الأفياء..!

ضاعت الأصوات والتجأت الحشرات إلى جحورها ترتاح من جولة صباحية تدريبية مع بعض الأفعال الحقيقية، إلى جولات جديدة طويلةصاخبة ومضنية لكنها ممتعة، أو هكذا يُظَن، استراحة المحارب الذي يحارب على جبهات كثيرة وليست لديه دراية بالحرب أو أية أسباب وجيهة لها أو تكهن بنتائجها أو جدواها، لكن لديه رغبة بها..! رغبة لايستطيع مقاومتها، ولايحاول ذلك.

لايَعلمُ متى بدأت أو كيف استمرت. ولايعرف قائداً لها أو مخططاً. ولاخططاً ينبغي مراعاتها. ولا قدرة العدو وامكانياته ومواقعه.

ولايعلم من أين تأتي الأوامر: من داخله؟! من أي جزء منه؟! من خارجه؟! ممن ومن أين..؟! لاشيء غير الحرب لا انتصارً محتوماً. ولا هزيمة متوقعة أكيدة، لكنها انتصارات آنية مفتعلة وهزائم يومية. نشوةٌ تُنسي الضحايا والخسائر، وخيبات تنقلها الحرب الى جبهات داخلية، فاستراحةٌ فاستعدادٌ فحربٌ..!

هذه هي المصلّبة في دورتها العابثة التي تحياها بلا تساؤل أو استغراب أو غاية! ماهي المصلّبة الآن في استراحتها البليدة. في هذه الظهيرة القائظة وتحت هذه الحرارة الشديدة! خضرة هزيلة، جمر واحتراق بلا ضجيج.

المسافات تتمدد، والأمداء تنفتح. رقص حائر غير مستقر ولا منتظم، يطوف فوق البيوت والحارات رقص أشبه بالهذيان ينهمر من سماء تشع نيراناً فوق المصلبة الجديدة التي لم يثلمها العلو والارتفاع، بل صارت مكشوفة وأكثر عرضة للسياط. خيوط تتشابك وتنفلت، تتطاول وتتقطع. خيالات ترتسمُ وتمّحي، تبتعد وتقترب. لكنها تحافظ على مسافة مهمة مني! مما يجعل تمييزها صعباً أو ربما مستحيلاً لكنني رأيته..! أو هذا ماتراءى لي: وجه هائل الحجم، عملاق المناخر، متراقص الملامح، فم كالكهوف

الأسطورية، أسنان متباعدة كصخور سيّار فمهر الصخور، وعيون جاحظة واسعة بلا رموش، ودون حاجبين، وجه يشع ويتلألأ فوق الصلّبة التي تبدو كأنها تحترق. لازال يبحث عن ضالته! منذ زمن بعيد وهو يبحث عن الصلبة العتيقة، ولكنني أرى فمه مفتوحاً، وسيّاري فكيه متباعدين، وصخورهما مشرعة.

لابد أنه يلهث! فأنا أسمع جلجلة ودوياً خافتاً. أصوات تتردد أصداؤها، كما لو أن عاصفة تنذر وتتوهد وتتوعد.

إنه وجه برهوم العجي، إنهما عيناه كبحيرتين نضبت منهما المياه. إنه وجهه كما أتذكره، وملامحه التي لا أعتقد أني رأيت شبيهاً لها بعد أن رأيته في مستهل رقاده الأبدي..! في ذلك اليوم الذي لاينسى، وذلك المكان الذي لايضيع في زحمة الواجهات والخرائط والخطوط المستقيمة والمنحنية في ذلك الركن القصي الوحيد الباقي من الحاكورة. الركن الذي يحميه جداران متقاطعان من سورها الذي فتح مرة واحدة ووحيدة... ولم يُغلق بعدها! حجارة نافرة وأخرى غائرة سوداء، نبتت فوقها الطحالب وماتت! وضافها الغبار فصارت معه سطحاً آخر طرياً، وملتصقاً بقوة على السطح الأصلي وأعطته لوناً جديداً ضائعاً بين الرمادي والقاتم مختلطين مرة ومتجاورين مرات. وأحياناً تتوزع النقاط القاتمة على مسافات (كنَمش) أو (شامات) فوق وجه قديم أو كأنها قطع صغيرة من الفحم على سطح الرماد الذي انطفأ منذ وقت بعيد.

حجارة تتقاطع وتتجاور بحواف مدببة أو مخيفة، نتوءات تزيد وتنقص، ركن وحيد بقي منتصباً في الجهة الشرقية من الماكورة، ركن يتيم بعد أن التهمت الآلة/ الغول الأركان الأخرى جميعها. ركن كان مقيلاً ومستوطناً للعجي، زرع بين حجارته أغصاناً من بقايا اللوزة الكبيرة والجوزة العملاقة، وفرش فوقها حطباً وغصون لوز وجوز ورمان..، وتحتها افترش قطعاً من لباد وخيشاً وسترات قديمة ممزقة.

هنا صار بيت برهوم العجي بعد أن حدث ماحدث. ترك البيت الترابي الذي لايميّز هذا المكان جودة، ورفض الانتقال إلى البيت الأسمنتي الذي بناه أخوه سلمان قريباً من الماكورة.

مضت بضع سنين قاوم فيه صقيع الشتاء ومطره وحر الصيف وهجيره.

وقضى بعدها في ليلة شتوية باردة لامطر فيها ولارياح. لم يعلم بوفاته أحد إلاّ ظهر اليوم التالي. لم تعرف ساعة الوفاة أو سببها. ولا مقدار العذاب والأنين ولا مدة خروج الروح من الجسد البالي.

لكن كثيرين شاهدوا بريقاً عجيباً يلف الأفق الشرقي، حسبوه أول مرة برقاً لعاصفة قادمة لكنه من الجهة الشرقية التي لاتأتي منها العواصف عادة.

واستمر ثوانٍ كثيرة حتى تلاشى. وقالوا في الصباح: إن النور قد نزل على مقام الشيخ (يوسف القلم) ،هذا يحدث أحياناً وليس أمراً كبيراً على منزلته وقَدْرِه.

لكن أشياء كثيرة غريبة لم يجدوا لها تفسيراً، فالعواء البعيد المتواصل وامتناع الكلاب عن النباح، أو مغادرة الأبواب، والعجل الذي قعقب، والدجاج الذي قلق وأصدر أصواتاً كثيرة وباض.. والكوابيس التي أيقظت نصف أولاد القرية، والخوف الذي كان القاسم المشترك لعدد كبير من سكانها الذين سمعوا دقات غير منتظمة على الأبواب ولم يجد من تجرأ على فتح بابه شيئاً سوى ذلك البريق العجيب.

وولولت النساء وبسملن ونذرن نذوراً استفاد منها الشيوخ كثيراً. واستعاذ العجائز بالله من الشيطان الرجيم، وقرؤوا ماتيسر لهم مما يحفظون وقالت «الدليلة» التي يحتفظ بها الشيخ أحمد عن جده ديحل الجدب وتغور الينابيع ويعم الفقر والمرض..» كان جالساً مستنداً إلى ذلك الركن رأسه الملفوف بكوفية وكنزة قديمة متكئٌ على حجر كبيرة كانت عيناه مفتوحتين وأسنانه العليا ضاغطة على الفك الأسفل، والشفة السفلى مطوية تحتها. ووجهه جامد خالٍ من أية تعابير، نظرة حيادية مستقيمة يدان مضمومتان إلى الصدر، الرجلان مثنيتان إلى الفخذين المضمومتين والمرفوعتين لتلامسا اليدين والصدر.

بصعوبة أطبق والدي عيني برهوم واستعصت الشفة السفلى فبقيت كما هي. وبعد أن أسرع أهل القرية بالدفن إكراماً له! وعادوا بوجوه جامدة هي الأخرى وعيون مفتوحة ساهمة وبعض شفاههم السفلى مثنية تحت الأسنان العلوية، بعد ذلك بقليل أمطرت السماء مدراراً. أمطرت، كما لم يحدث ذلك من قبل، يومين كاملين ثم توقف المطر فجأة. ولم تعرفه القرية ثانية في ذلك العام.

* * *

- ٢ -

نقطة بدت في الأفق الفضي، ثم تطاولت ببطء حتى غدت خيطاً ثخيناً يخترق الصفاء الأزرق، غير عابيء بالعيون التي تعبت من ملاحقته، أو ملت النظر إليه، منذ أن أصبحت الطريق الجوية الرئيسية يعبر من هنا منذ سنوات ليست كثيرة. عيناي لم تتعبا من ملاحقته في أي وقت يلتقطهما أو تتعلقان به.

لماذا دخانك أبيض ياقافلة العبور العالي؟! الدخان أسود.. نعرفه كذلك.. فلماذا دخانك أبيض كضباب صباحي كثيف، كخيوط أحلام الطفولة الغائبة..! دخان (التنور) يبيضُّ حين تصبح

سطوحه الداخلية جاهزة لاستقبال العجين وتحويله إلى خبز شهي، وأعلم – سمعت هذا مؤخراً – أن دخان الكنيسة يبيضّ حين يتفق المجتمعون على البابا الجديد.. عدا ذلك يظل الدخان أسود .. لاأبيض!

هامي تقترب بسخاء من حافة الأغصان الخضراء. شيء ما يستنهضني لمتابعتها.

شيء مايحثني على الوقوف! سأقف...!

آه : أشعر أن أعضائي مفككة يعمل كل منها بمفرده. أقوم، أحكّ مابين فخذي وبعض الأماكن ، أنفض عن ثيابي التراب والحصى، أخطو إلى مشارف المظلة المائية، ينفرش الأزرق مبتعداً يتصل بالبحر الذي يطل عبر ثغور عديدة متفاوته الطول والعمق.

ويلامس رؤوس الجبال البعيدة لاسيما جبل النبي زاهر الذي يبزّ كل الجبال الأخرى القريبة والبعيدة علواً. أتابع الحركة النشطة للخيط الذي يثخن فور خروجه من الرأس اللامع بعد ارتداد الأشعة المارقة من على سطوحه المعدنية.

هو الرحيل إذن..! أو السفر الذي مافتئ يلح على ساحة التفكير منذ مالا أعرف من الغيبات. السفر /السوسة فائقة

القدرة على تحويل اللحظات إلى ذكريات، والصور الحاضرة والمشاهد الآنية والأحداث الحالية إلى علق مقيم..!

كان مجرد رؤية السيارة مجلبة للسرور ومدعاة للتساؤل والترقب والأسى.

– قلتُ لوالدي: أليس هذا صوت (زمّور) لسيارة؟ هل السيارة تمر هناك يا أبي؟!

قال بجد: نعم إنها هناك، بعد قليل ستكون على (المفرق)؛ أسرع ياولدي كي نلحق بها وإلا أكملنا الطريق مشياً.

وأطلقت ساقيَّ ناسياً تعب المشي الذي بدأ منذ ساعة، وقت أمكن تمييز الخيط الأسود من الخيط الأبيض، متسلقين بعناد السفح الأخير الذي يفصلنا عن الطريق العام، قاطعين الطريق الضيقة الوعرة بحجارتها الكثيرة وأشواكها الدامية؛ لم أكن أعرف أن والدي يضحك علي ويستحثني على المشي، بعد أن شعر بما أقاومه من وهن وتعب في هذا المشوار الذي انتظرته منذ مدة طويلة، بعد ما حالت الأعذار الكثيرة دون زيارة المدينة، وقبل ذلك ركوب السيارات؛ هذا المشوار لايمكن أن يؤجل لأني سأدخل المدرسة بعد شهور.

كنت أظن حين سمعت منبه السيارة أنها الوحيدة التي يمكن أن تعبر فأسرعت، وحين كان المفرق خاليا ، تساءلت بلهفة وخوف: أين السيارة هل مرت؟!

ضحك أبي وقال: لا ياولدي .. انظر الناس ينتظرونها مثلنا، لم تمر بعد ...!!

أنا عاجز الآن عن وصف شعوري حين كنت أصعد اليها. هل هو الفوز أو الخوف أو الفرح..؟! وحين بدأت الأشجار بالعبور رويداً ثم خفت وصارت تركض متتابعة كلمح البصر كان ماحيَّرني هو أن جريها إلى الوراء..!

لم يزل طعم ذلك المشوار في الذاكرة البعيدة أحن اليه دوماً؛ كنت أتمنى أن أمرض لأزور طبيب المدينة وأركب السيارة. لكن الحالات التي تستوجب ذلك قليلة جداً. (فالجرشة) والسعال والحمى والرشح والصداع (والوثّاب) أمور معتادة لايُحتاج الطبيب من أجلها؛ كم كانت فرحتي عظيمة حين أصبت ببعض حبات (الخردق) في أذني الخارجية، لا لأن الإصابة لم تدخل الى رأسي بل اكتفت بشحمة الأذن، ولكن لأن بقاءها هناك يتطلب مراجعة الطبيب لإخراجها. كنت أتمنى أن تكون إزالة قطعة القطن الصغيرة التي تركها الطبيب تحتاج إلى معالجة أخرى ومراجعات..! لكن أحد النابهين في القرية والذي عمل في أحد مشافي بيروت، قرر أن الأمر بسيط ونزعها بيده. بكيت وقتها طويلاً ولم يكن بكائي تألماً.

متعة السيارة الوحيدة التي اشتراها واحد من أهل القرية التي تلينا، كان له لحن جميل، لم تمحه كل الألحان التي سمعتها وتعلقت بها فيما بعد في الإذاعة أو المدرسة وكان لترديده في الصباح أو عند الظهر متعة وشوق واحتراق..!

فركوب السيارة كان إلى وقت متعة كبيرة لم يخفف منها السكن في المدينة ورؤية عشرات السيارات يومياً، والركوب الأسبوعي؛ حتى السفر الطويل لساعات كان لايشكل أي عبء، وكنت أستغرب من يقول: السفر متعب وشاق، ولم أسمع من يقول ليريحني: السفر ممتع وجميل..! أين ذهبت تلك المتعة؟! صرت أركب السيارة ساعات كثيرة في اليوم الواحد، في الذهاب إلى الشركة أو العودة منها، وفي مشروع الوحدات الإرشادية.؟!

أين تلاشت تلك المتعة حين صارت السيارة ترافقني طوال اليوم؟! كنت أنظر إليها واقفة قرب البيت، حائرة متعجبة من هذا المكوث الطويل، أنظر اليها وأبحث عن ظلال تلك المتعة في ثيابتها، وفي بعض المشاوير القصيرة التي سريعاً ماتغدو مملة، فأعود وأعقلها وأتوكل..! لكنه السفر، الهاجس الذي لم يتعب، والحلم الذي لم يتكفي: الشيطان الذي ترك السيارة وارتفع محلقاً في الفضاء ليظل عصياً، ربما كانت تلك العابرة بعناد وإصرار يمكن أن تجده وربما كان ركوبها سبيلاً إليه؛ لقد مرت بعياد ولامبالاة عبرت اليابسة وغارت في فضاء عميق فوق البحر.

لابئس، تركت هذا الخيط الذي أضحى عريضاً كسكة قطار أو طريق اسفلتية، لكنها بيضاء! تركته لي لأتسلى به أو لأتعذب وأنا أتبعثر على أشلائه زمناً فيعيدني إلى الأرض.

*

دوي وأصوات منبهات السيارات التي بدأت تتناوب الدخول إلى المصلبة والخروج منها بسرعات تناسب سباقها المحموم لنقل أكبر عدد من الركاب، بدأت توقظ القرية وتبعث الحياة –من جديد– في أوكارها وشرايينها، بحركة القادمين الى بيوتهم محملين بأكياس ورقية وبلاستيكية ملونة، متحدثين بأصوات تحبة ونبرات غير واضحة، متابعين ماانقطع من أحاديث ونقاشات، أو معلقين على بعضها حسب اتجاهات العواطف والميول، وعلى السائقين الذين لايشبعون ولا يوقرون أحداً! لكأن مايحملونه مواد وأشياء لابشرٌ من لحم ودم. وأحياناً مودِّعين أو مسلِّمين على اللواتي وقفن على الأبواب والنوافذ أو أمام البيوت منتظرات عودة من يهمُّهن، أو مراقبات مايحمله القادمون إلى بيوتهم، حتى يقفوا بالمرصاد لمحاولات التظاهر والتباهي. أو ناظرات بإعجاب إلى السيارة العابرة وسائقها الماهر..!

سيارات زراعية على شكل صناديق، كانت مصممة لنقل المواد والمحاصيل الزراعية فتحولت إلى صناديق تغلب فيها المحاصيل البشرية..!

سيارات حمراء وصفراء وزرقاء، وصناديق ملونة بألوان مزركشة ومكتوب عليها نصائح مهمة وأقوال مأثورة وأغنيات مؤثرة، ومزينة بصور كثيرة ضاحكة أو مضُيئة أو لامية، وفي أوضاع مثيرة، ومنبهات ملونة تميز كل سيارة عن أخرى عند من يهمهن الأمر..!

مشيت قليلاً، شعرت بآلام في معدتي، إذ لم تستقبل الطعام منذ ظهر أمس. خرجتُ من الظل إلى الشمس، كانت أشعتها لاتزال حادة قاسية. ولم يخطر ببالي، مع هذا، أن أعود إلى البيت فهذه الرغبة غير موجودة أبداً، بل إن رغبة جامحة تدعوني إلى البقاء، للابتعاد أكثر عن البشر، والعزلة الطويلة المحكمة،

وفكرت فقط بأمي وأبي، لو كانا في القرية كان سيكون خوفهما كبيراً وانشغالهما مقلقاً لغيابي الطويل خاصة وأني أحمل بندقية معي..!

نظرت صوب البيت، سيارة أخرى تتوقف هناك وتعود. معظم السيارات تتوقف هناك، لوكانا في البيت، في مثل هذا الوقت، كانا سينتظران وصولي اليومي أو يتعقبان لتذكر ذلك. سنوات كثيرة مرت، سنوات كافية لتترك أثراً واضحاً على السجل اليومي

نقاطاً مميزة، كساعة الذهاب الصباحية وساعة الوصول مابعد الظهر بقليل.

في مثل هذا الوقت تكون أمي قد عادت من جولتها اليومية إلى /ضهر التين/ أرضنا البعيدة. فمنذ انتقالنا من هناك تحس بغصة دائمة المكوث في حلقها. لاتبخل بالآهات والدموع على تلك الأيام الهنية، كما تردد دائماً، ولازالت – رغم محاولاتنا الكثيرة – غير مقتنعة بالأسباب العديدة والأساسية التي كانت وراء انتقالنا. ولايمكن أن يمر يومان متتاليان دون أن تزوره بسبب أو بلا سبب. كنت أقول: ارتاحي ياأمي دعي عناء هذا. الأرض غير مزروعة، وزيتونها لايستحق كل هذا الاهتمام. فهو خالي الوفاض أيضا. وأشجار التين نخرها المرض، والكرمة شرذمها الهواء، والأشجار التي تحملها عالية خطرة. تقول بقسارة:

أنتم لستم أوفياء. الأرض والأشجار لايمكن أن تخدعك أبداً، تركتموها للغادي والصادي، الصياد والراعي. صارت مشاعاً لكل من يريد. جيرانها يعتدون عليها من كل الاطراف، عيونهم محمرة منها، سيبتلعونها إن متنا أنا وأبوك.. وأنتم لايعنيكم الأمر، احترموا تعب أبيكم وتعبي احترموا عرقه وجهده.

ثم ترق: لولا هذه العلة ماكان فيكم عيب، لكني حزينة يا (ابني)، أتمنى لو أعود إلى هناك لولم يهدم البيت وتحط حجارته لمن هب ودب لعدتُ اليه وقعدت وحيدة! أنا لا أخاف! لو كنت أعرف الخوف ماعشنا هناك عشرين عاماً متواصلة..

يغيب والدك أياماً وأبقى وحيدة معكم وأنتم صغار، كنت أنزل إلى عين الرمان في أية ساعة من الليل، كل الماء كنت أحضره في الليل، وقبل طلوع الضوء. كان والدك يحذرني ويقول: الليل يخاف منه «أشد الرجال» فأرد عليه: «لوخافت الزيرة من البحر غرقت من زمان»! أيام... يا حسان! أنا هنا مقبورة بالحياة، لا أحد يعجبني ولا أعجب أحداً، أشعر أنني أختنق، لولاكم، مت من زمان..

أنظرُ صوب ضهر التين، الحجارة التي لازالت بيضاء رغم طول تعرضها للشمس تلمع من بعيد في السلاسل التي تقسم الأرض الحمراء إلى أقسام طويلة ومتعددة.

وتنتصب في أسفلها قرب العوافي أشجار كثيرة من الزيتون نبتت في المساحات الأخرى بين السلاسل.

آه يا أبي... لو كنت تعرف أننا سنترك كل هذا ونتنقل، هل كنت فعلت.. مافعلت؟! لو كنت تعلم أن هذه الأرض الواسعة وهذه الأشجار العديدة سوف تهمل وتنسى هل كنت تزرع بها ثوانيك وأيامك ولياليك؟! لو كان لديك أدنى شك بأننا سنترك البيت ذا الغرفتين الواسعتين (بساموكيهما) وسطحهما الخشبي والترابي، هل كنت حملتنا وغادرت المصْلبة؟!

تجتاحني الآن تساؤلات قائمة.. متلاحقة: هل مافعلناه يا والدي كان أمراً لابد منه؟! وهل الأسباب التي طرحناها أمامكما مقنعة لنا نحن؟! لا أدري لِمَ أنا الآن غير مقتنع بشيء..!

وهل ما ألاقيه وأعانيه أوما لاقيته وماعانيته ناتج عن مجموعة من الأغلاط التي ارتكبت، أهمها انتقالنا إلى هنا؟! أو ربما كان السبب هو انتقالنا السابق إلى هناك؟! حيث تعلمنا أشياء وحفظنا أشياء ونمت فينا أشياء وانسابت في شراييننا وخلايانا مفاهيم وقيم، لم نستطع تغييرها..! أو تكييفها أو استبدالها! ربما كان هذا هو السبب، وكان ماكان..!

أطرق خجلاً رأسي وأنكفىء على ذاتي، أتحسس شعري الساخن وأمسح بيدي عرقاً غزيراً من جبهتي، وأعود الى الجذع أجلس وأسند رأسي عليه، وأغمض عيني محاولاً اجترار حلم يتلاشى..!!

* * *

الفصـــل الثـــالث

- ١ -

لم يكن قدوم المهندس عارف بلول ليشكل حدثاً مهماً، فقد جاء وحيداً من فرع آخر، وهو مهندس ميكانيكي. لذا فان أهميته تبقى في حدود ضيقة في شركة قوامها الأعمال المدنية. وعلى الرغم من الكلام الذي قيل عن احتمال استلامه قسم الاصلاح والصيانة، لاسيما أن رئيس هذا القسم يحمل ثانوية تجارية فقط، فقد بدا أن هذا الكلام يندرج تحت سلم الرغبات والأحلام التي تعبر عن الفعل الصحيح في مجرى الحياة العام، والتي تبقى في حدود الأمنيات دون أن يسعى أحد ممن يتبنونها إلى تنفيذها.

كلها هي تكفير سلبي عن مسؤولية تشمل الجميع بالقول والإشارة إلى مواقع الخلل وأساليب التصحيح على أقل تقدير.

ومع أن العمل الذي تسلمه – قسم الصحية والتدفئة – يدخل في نطاق الأعمال المدنية والتي يمكن للمدنيين من المهندسين الذين يخص بهم الفرع القيام به، فان مكانته بدأت تتنامى لانتشار الأعمال على مستوى مشاريع الفرع كلها وتخصيصه بسيارة فيما بعد، فيما الكثيرون ممن سبقوه لم يتسنَّ لهم ذلك! ومما جاء في الوشوشات والاقاويل الكثيرة أن رجلاً مهماً كان وراء انتقاله

إلى هذا الفرع! والأستاذ عساف يحب الرجال المهمين وينفذ رغباتهم، وصارت له ملكة لاتتأتى إلا للموهوبين، فهو يعرف تلك الرغبات قبل أن يعبروا عنها، ودون أن يشيروا إليها أو يصرحوا بها. أما بقية عناصر الفرع ورغم استيائهم العام من تدخل الناس المهمين في شؤون الفرع وظلالهم التي يمكن ملاحظتها في أشخاص ومناصب وعلاقات متعددة، فهم يحترمون هذه الظلال أو يخافونها ويتسارعون لإرضائها والتعلق بأذيالها، ويقدمون أنفسهم بأريحية عجيبة لخدمتها دونما منة أو أجر، تنفيذاً لمثل مشهور يحفظونه جيداً ويرددونه كثيراً «أيد اللي مافيك تعضها بوسها وادعيلا بالكسر»! لكنهم يطبقون القسم الأول منه فقط، وينسون أو يتناسون الدعاء بالكسر، ثم يرفضونه بعد ذلك وقد يستبدلونه بالدعاء بالبركة وطول الباع وطول العمر.

أما المسؤولون من رؤساء مشاريع أو رؤساء أقسام، فإنهم حين يقدم مهندس جديد يسألون عمن وراءه، ويقارنون قوته بقوتهم، ويضعون له المنزلة المتوقعة والمنصب الذي يليق. وحين التحق الأستاذ عارف في غير موعد العمل، شكر المهندسون المعنيون الله على أنه ليس من اختصاصهم.

أما رئيس قسم الإصلاح فلم يهتم كثيراً للإشاعات وبقي مرتاحاً أو لامبالياً أمام من يسأله، فهو بما قدمه من خدمات للفرع ورئيسه يدرك عمق الروابط التي تربطه بالأستاذ عساف،

وغير الأستاذ عساف ربما خارج الفرع أو الشركة كلها أما الأستاذ عارف فقد بدا مرتاحاً هو الآخر لما يجري، ولا مباليا بنظرات الإعجاب أو الحسد. وحريصاً على أن يكون موجوداً في كل مكان ومتابعاً لكل صغيرة وكبيرة فيما يخصه من أعمال، وحريصاً في الوقت نفسه على إصلاح السيارة التي أعطيت له، والتي كانت «مرمية كالخردة في ورشة الإصلاح دون أي رغبة في إصلاحها أو إدخالها في الخدمة»! وقد كان له الفضل في إحيائها، بعد أن تعب في تأمين قطعها وتركيبها بخبرته الكبيرة في هذا المجال. وهو على الرغم من كل مايدور حوله كان لطيفاً هادئاً مداوماً بنظام وانضباط.

وعارف صديق قديم، وقبل أن ينتقل إلى الفرع زارني واستفسر من الأوضاع عندنا وتحدثنا بود وأخبرته بكل ماكنت أعرف.

*

قال مالك الحسن سائق المبيت وقد تجاوزنا الأستاذ عارف بسيارته التي تصدر صوتاً قوياً وتخرج دخاناً أسود كثيفاً:

– لماذا أنت بارد إلى هذا الحد؟! لماذا لاتتحرك؟! لماذا لاتكلم رئيس الفرع وتطالب بحقك مثل غيرك؟! ياأستاذ حسان «اللي

يخجل من بنت عمه مايجيه أولاده تخاف؟! على ماذا تخاف؟!
ماهو الأستاذ عارف، انظر إليه، هل أكمل الشهر عندنا؟!
وصارت له سيارة مثل الفرس، نعم ... الفرس يلزمها خيال.
ومتى وجد الخيال تأت الفرس.

– أنت تكبرها يا (أبو تيسير). القصة ومافيها أن هذه السيارة كانت عاطلة منذ وقت ولا أحد يتحملها بوضعها الحالي، ولايتكفل أحد بإصلاحها. الأستاذ عارف هذه شغلته مهندس ميكانيك وعنده خبرة جيدة في الإصلاح قال له المدير: أصلحها واستلمها وهذا ماحصل!

– هه.. وهل صلّحها من جيب والده؟! أم اشترى القطع من راتبه؟! أنت غريب يا أستاذ، لو كان يريد إعطاءك إياها أو إعطاءها لأي كان، أما كان قال لقسم الإصلاح جهزوا هذه السيارة! هل سيسألونه لماذا! أو تكلف كثيراً لانستطيع؟! وما الفرق أن يشرف عليها قسم الإصلاح أو الأستاذ عارف.؟!

ثم إذا كان يحاول أن يستفيد من خبرته لماذا لم يسلمه قسم الإصلاح بكامله؟! ويوفر الكلام والقيل والقال؟! ويؤمن إصلاح الآليات المعطلة جميعها بسرعة وكلفة أقل؟! أنا أعرف أن الأستاذ بلول صاحبك ولاتريد أن تقول في حقه شيئاً..! مدعوم ياأستاذ مدعوم ويطالب، أما أنت فلا هذا ولا ذاك! ولهذا لا أحد يفكر فيك بل ينقلونك إلى المكان الذي يحتاج إلى عرق وتعب دون مقابل.

- أعوذ بالله من عينك يا (أبو تيسير) انظر ما فعلت بالرجل! هاهي سيارته واقفة وها هو يفتح المحرك. أما صدقت أن السيارة غير جاهزة؟! لو كانت معي ووقفت مثل هذه الوقفة ماذا أصنع؟! كنت سأبتلي بها، لا الحمد لله أنها ليست معي، هكذا أفضل وأسلم وآمن، ولو كره الكارهون؟!

قال سليم سائق سيارة الخدمة أثناء النوم مثل هذا الكلام، وقال المحاسب أيضاً، والأستاذ أسعد الذي حمّل الأمر أكثر مما يحتمل، كما أظن، بل إنني تساءلت كثيراً؟ هل علاقتي بعارف خففت من تضايقي وانزعاجي؟! وهل يتصرف رئيس الفرع حسب أفضليات مسجلة لديه وحده يمكنها أن تتغير وفق اتجاه الرياح، وجهة اشتدادها؟! وحين سألت عارف عن هذا الأمر كان واضحاً وصريحاً جداً حين قال: صدقني لا أعرف لماذا أعطاني السيارة؟! طلبني إليه، وكانت المرة الثانية التي أراه فيها قال هناك سيارة معطلة في الفرع أصلحها واستلمها!

نعم هناك من ساعدني في إتمام النقل، لاأنكر ذلك، لكني لم أراجعه بعدئذ ولم أطلب منه معونة في هذا الأمر ولا أعتقد أنه طلب شيئاً كهذا..!

* * *

- ٢ -

مما لاشك فيه، والشيء الواضح للعيان أن مشروع الوحدات الإرشادية، ليس من المشاريع المحترمة، لدى رئيس الفرع، مع أنه محترم من حيث القيمة النقدية وكميات الأعمال. لكن أياً منا نحن الثلاثة، لم يكن له كبير احترام أو تقدير، ولم تُسْرُ إلينا أية كلمة إطراء أو مديح بل كلها كلمات استخفاف أو تأنيب. وحين نطلب أيما طلب سواء كان مادة أو آلية أو عمالاً، كانت الإجابة تتم مع تأفف أو بعد تردد أو منة.

المحاسب كان يقول أحياناً: ما أسوأ حظي! كانت ساعة نحس حين عينت عندكم، فلا عملية ضبط المواد والأعمال ممكنة، ولا طلباتنا مستحبة،، ولا أسماؤنا مرغوب سماعها. ثم يلتفت إلى الأستاذ نصار ويقول مازحاً بما يقصده:

ماذا كان ينقصني لو كنتَ الآنسة هدى؟! كنتُ في أحسن حال. ولكن، ماكل مايتمنى المرء يدركه..!

أما ثلاثتنا، فكنا حين نلتقي نتبادل الهموم والمشاكل والمتاعب. وكان رئيس المشروع أكثرنا هما - رغم أن كلا منا كان يظن نفسه كذلك - فقد مر زواجه دون بهجة معتادة. وزاد صفحته سواداً عند الإدارة سرقة سيارته من أمام بيت خطيبته قبل الزواج بقليل وعودتها بعد أسبوع بعد أن زار السجن وتعرف

علي مجرمين محترفين، وتعرض بعد الزواج بقليل لحادث حين زار المستشفى هذه المرة. وغاب عن المشروع مدة اسبوعين كاملين. وعلى غير ماهو متوقع فقد كلفت في كلا الحادثتين بإدارة المشروع رغم أن أسعد أقدم مني في المشروع وأكثر دراية خاصة تلك الوحدات التي في حصة الأستاذ نصار.

وكان لهذا الأمر وقع مفاجيء لدي أنا المنقول تعسفاً منذ شهور قليلة، ووقع صاعق على أسعد الذي تأكد أنه أكثرنا إهمالا من قبل الإدارة. ولعل السبب في تلك الإشكالات مع كل من له علاقة به في العمل، وعدم قدرته على الاتفاق مع أحد. ولعل هذا السبب أيضاً كان وراء تكليفه فيما بعد بادارة مشروع في المدينة. أو هذا ماتسرب من الأستاذ صاف أو سُرِّب لي وأنني الأقدر على التعامل مع كل العناصر بلا مشكلات، كما يدل على ذلك العمل الذي يتسارع في وحداتي، ويتعثر في الوحدات الاخرى. ومع أني فرحت لأسعد الصديق والذي يهمني أمره، وخاصة أن هذا الوضع الجديد يعتبر حلاً لمشكلته كلها. أو هذا ماكان مفترضاً - لكني وجدت نفسي مجدداً في مواجهة أسئلة كثيرة وجهت لي مني أولاً ومن الآخرين ثانياً.

ووجدتُني أعجز هذه المرة عن الاقتناع أو الإقناع. وكان لابد مما ليس منه بد، وهو الصبر والانتظار..

لماذا لم أحاور مدير الفرع بذلك؟! لماذا لم أقف أمامه وأواجهه؟! صداقتي مع أسعد؟! وحبي له؟! والكلام المعسول الذي نقل إلي، وتأكيدات مدير المشروع أنه لم يعارض هذا حرصاً على سلامة المشروع وعلاقاتي الوطيدة بالناس الذين أتعامل معهم في هذا المشروع البائس أو المشروع/ العورة .. جعلتني أتردد في الامر ثم أنساه..؟!

لكن سائق المبيت (أبو تيسير) لم تعجبه هذه الأسباب.

أما سائق الخدمة والمحاسب وعناصر المشروع فلم يظهر منهم أي ضيق، بل كانت ملامح الرضى ظاهرة بوضوح أو ملامح لامبالية آلية تستقر على وجوههم الجامدة ونظراتهم العيادية.

* * *

— ٣ —

لم يساورني أدنى شك، في أن الأستاذ نصار غير مرتاح في عمله، ولا فرح في منصبه، على غير ماكان يشاع في كواليس الفرع القضفاضة، وإن كنت واثقاً من شعوري، فإنني لم أستطيع الدفاع كثيراً امام الأقاويل التي كانت تثار أمامي أو تسرّ إلي:

فمن قائل أن الأستاذ نصار قد تزوج من أموال المتعهدين الكثيرين، إلى قائل أنه بنى داره المميزة في قمة إحدى التلال

المجاورة للمدينة، مما يستفاد منه في المشروع ومواده الكثيرة التي كانت تخرج في نهاية الدوام وفي سيارات الشركة!؟ سواء منها الجص أو الرمل أو الأسمنت أو الحديد أو البلوك و غيرها! ويقولون أيضاً أن هذا ربما يتم بمعرفة مدير الفرع. وإلا ماكان يوافقه هذا العمل. فهو يطلبها حتى آخر قطرة، والقيمة التي لاتصيبه مياهها، لامبرر لمرورها في منطقته، فكيف سيعطيها الموافقة على ذلك. وقد ضَعُفْتُ أحياناً رغم علمي بكل هذه الاجراءات التي كان القصد منها توفير الجهد والوقت، فإذا اصطحب سائق شاحنة من الفرع مادة لازمة لأحد المشاريع القريبة من سكنه، أو التي تقع على طريقه، وترك السيارة معه ليعود صباحاً الى الفرع مع بدء الدوام ألا يوجد مايبرره..؟! وهو لايستوجب سوى إضافة ساعتين إضافيتين على دوام هذا السائق! مع هذا فقد أكد الكثيرون أن هناك مواد تذهب في ظل مواد الفرع، وحمولات تذهب الى غير مكانها، أو أنها تسحب من مكان إنزالها كان يسمع بهذا ويتألم كما نتألم جميعاً: ألا تكفي صورتنا المشوّهة في إدارة الفرع، وركضنا المتواصل لتأمين أي شيء يساعد على إنجاز عمل ما، أو لإعلام أجهزة الأشراف المتعددة، أو المراقبة الأجزاء التي يجري صبها، بعد كل هذا تأتي الأقاويل لتطلق طلقة الرحمة..؟!

*

جاء الفرج.. قالها الأستاذ نصار ذات صباح وأضاف:

- سأترك لكم العمل! هناك فرصة ذهبية لايمكن أن أضيعها، فرصة عمل كبيرة في شركة جديدة بأجور مغرية جداً ويدعوة خاصة! كنت أنتظر انتهاء فترة السنوات الخمس بفارغ الصبر وقد جاء الفرج..

- ونحن يا أستاذ. هل يمكن أن تترك كل هذه الحبال مربوطة ومتشابكة أمامنا؟! إنها أكثر صعوبة من حبال لاعبي السيرك..!

- الله يعينكم! أما أنت يا أستاذ حسان، فهيا معي لأدلك على مشاريعي ستتابعها لأني سآخذ إجازة طويلة، فأنا منذ سنوات خمس لم آخذ سوى إجازة الزواج وإجازات يومية معدودة. سأرتاح قليلاً قبل الجولة الجديدة.

كنت حريصاً على ألا يفوتني أمر..! فأنا لست غريباً عن الجو هنا، وأعلم المشاكل التي ستصيبني بعد أن يذهب المدير. ولكن ماذا يمكن أن أسجل لأسجل.. أو أتذكر لأتذكر. استنجدنا بالمحاسب الذي رافقنا. وطوال الوقت كان الأستاذ نصار يشرح ويوضّح ويفصّل فرحاً بانسحابه المفاجىء وداعياً لنا نحن العابسين المهمومين بالخلاص. والصبرُ من الإيمان...!!

ولكن لم يكن يتوقع أكثر المتشائمين أن الحظ السيء يمكن أن يصطاده وهو في اللحظات الأخيرة، فبينما كنا عائدين إلى الفرع منحدرين في قرية تقع على أحد السفوح الغربية شرق المدينة وكان الأستاذ نصار يضحك، والمحاسب يحذر ويؤنبه وأنا

ساكت ساهم شانع، كانت امرأة وبجوارها ابنها يمشيان على الرصيف الأيسر، وفجأة غيرت رأيها وانتقلت بسرعة إلى الرصيف الأيمن - أو أرادت أن تنتقل - إذ إن السيارة / البيابة اللاندروفر المزنوجة التي طار غطاء محركها يوماً بينما نصعد صاحبها عليها، منعتها من تحقيق رغبتها القاتلة ودفعتها أمامها بقوة. صيحة ثم صيحات وعويل، تراكض الأهلون ولم تتوقف السيارة! ونظرت إلى الوراء، كانت كتلة بشرية تتدحرج خلفنا تماماً وهياكل إنسانية تتراكض نحوها وخلفنا.. ولم يتوقف الأستاذ نصار بل تابع سيره دون إبطاء إلى مخفر الشرطة، وهناك جلسنا ننتظر خبر الموت لإجراء مايلزم، وبالها من لحظات لا أدري- وأعتقد أن أحداً منا لايتذكر- كيف مرت. ولكن هاتفاً جاء بعد قليل من المستشفى يقول أن المرأة حية وقد أفاقت لتو من الإغماء وإذا لم يكن هناك نزيف داخلي فان الخطر لايبدو قريباً. وقد كان كذلك فعلاً فبعد أيام خرجت المرأة سليمة. وكان قد خرج نصار بكفالة، ولم يعد بعدها إلى السجن ولا إلى مكتبه في الشركة. وتابعنا معاملة استقالته حتى نهايتها، مع مارافقها من تعليقات مزعجة مؤلمة كان أكثرها إيلاماً تلك التي جاءت من الرأس الكبير..! ولم يكن هذا مايقلقني ويشغلني وقتها بل هذه الشركة المعقدة وهذه الورطة التي وجدت نفسي فيها دون سابق إنذار.

وفي هذه المرة أكثر من أي وقت مضى بدا أن الأمور تجري بيسر وسهولة وحتمية؟ فمن غير المتوقع أن يطمع أو يطمع أحد في استلام مشروع يعج بالمشاكل، ومما زاد في تأكيد هذا اتصالاً هاتفي جاءني قبل نهاية الدوام بقليل، وكان الأستاذ عساف على الخط تحدث بهدوء ولطف لم أعهدهما فيه، وقال كلاماً كثيراً استغربته وكنت لا أصدقه. لكن نبرته كانت توحي بالصدق وأنه – هذه المرة –ترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعي. وتحدث عن ثقته بي وتقديره لجهودي وتفصيلتي. وقال أيضاً هيء نفسك لاستلام المشروع، فأرجو أن تكون دقيقاً وحازماً كما أرجو أن تنتبه إلى كل شاردة وواردة ولاتدع الأمر معلقاً.

أنت أعرف الناس بالمشروع ومتعهديه ومشرفيه ومشاكله وتعرف مداخلات وعلاقات الأستاذ نصار وأنت الأقدر على إدارته لخبرتك الطويلة به ولحسن تعاملك مع الجميع كما يشهدون..! الأستاذ نصار، الله ييسر له، كان بارداً ولامبالياً، ولم يتركنا برائحة طيبة، بل بمشكلة كبيرة ستلاحقنا إذا لم يُسقط أهل المرأة حقهم.

وقال كلاماً آخر... تحدث كمن يعترف بكل ذنوبه.. بعد ما عاد إليه الوعي دفعة واحدة..

واستمعت بفرح وخوف وشك... أبديت له كامل استعدادي التي لم يفتر النهوض بالمسؤولية الكبيرة.

وأسرعت إلى سائق المبيت (أبو تيسير) لأخبره بالأمر..! لكنه كان بارداً وقال: إن شاء الله يكون هذا صحيحاً، كنت سأسألك عن الموضوع! لقد سمعت من الأستاذ رجب العلي أن الأستاذ مقيد حمود يدور حول المشروع ويحاول أن يأخذه، وهو ماكر وماهر في العبث والصراخ، إذا علق على أمر غالباً ماينجح..!

قلت: الكلام الذي تقوله لم أسمع به.. والكلام الذي أقوله لك لم يمض عليه سوى دقائق. أنا لم أجبره على قول ذلك ولم أطلب منه، ولكنه الأمر المنطقي اذا كان بقي منطق في هذا الفرع.. وكل شيء وارد..!

– قلنا هذا الكلام أنا والأستاذ رجب..وقال الأستاذ رجب: أن المدير يحسبها بطريقته الخاصة، التي تختلف عن المنطق الذي نقره.

وسكت وسكتُ ! ومرة جديدة حط طائر الشؤم فوق رأسي وشعرت بوجوده من حركاته ورفرفة جناحيه وجراح مخالب قدميه ورحت أفكر:

من أين لمقيد هذا التأثير على مدير الفرع؟! جئنا سوية، وفي اليوم نفسه، واستلم مشروعاً مستقلاً منذ أكثر من سنة. صحيح أن قيمته محدودة لكنه مستقل، وسمي رئيس مشروع وتسلم سيارة خاصة به، وأشيع أن في الأمر اعتبارات خاصة، فالمشروع داخل المدينة ويتبع بلديتها، ومقيد من سكانها ومن

إحدى عائلاتها المحترمة والمقربة من رئيس البلدية، مع أن هذا لم يُنجه من التسبب بإشكالات كثيرة وتوقيف أعمال. والمشكلة الحقيقية هي أن تبريرات المسؤولين في الفرع جاهزة. والمشكلة الأهم أني أحاول أن أقتنع أو أقنع نفسي بها، مع أن الآخرين لايؤمنون بها؛ بل يتفاخرون بأنهم مهمون ولولا إمكانياتهم وقدراتهم الذاتية شخصياً وإدارياً لم توضع فيهم الثقة المطلقة، ولم يتحملوا تلك المسؤوليات المضنية. وإن كانت كل الوقائع تدل على عكس هذا: فالمدير يرغب في إجابة طلبات آتية من خارج الفرع، وإرضاء مسؤولين في مناصب مختلفة من المحافظة. وقيل أيضاً أن المشروع الذي نفذه مفيد كان أحد شروط تكليف الشركة بتنفيذه، أن يكون هو رئيسه.!

صحيح أن من حقي أن أستلم رئاسة مشروع الوحدات الذي بلغ العمل فيه نحو الثلثين، ولكن الصحيح أيضاً أنه من غير الممكن أن يظل مفيد بلا مشروع، وتسحب منه السيارة. لذلك فإن مجرد طرح هذا الموضوع يعني حصوله! وصرت متأكداً من هذا على الرغم من اتصال المدير قبل قليل وأن هذا الاتصال كان مزحة ثقيلة أو خدعة ماكرة. فهو مرهون بمراكز القوى، خاصة وأن سيرته على كل شفة ولسان لدى كل المستويات والجهات المختصة ومن الطبيعي أن يحاول إرضاء الناس في المحافظة والبلدية، وهاهي ورشة الإصلاح تصلح أكثر من سيارة حكومية تابعة لجهات أخرى، وهذا غير المكافآت والولائم والعزائم.

ومرة أخرى كان الفرح ناقصاً... وقعدت أنتظر النتيجة أياماً، إلى أن أصبح التخوف واقعاً وما أنا خائف منه حقيقة.

وتسلم عقيد حمود رئاسة المشروع...!!

* * *

– ٤ –

أبلغ أحزانك ياسيدي! وكفكف آلامك! وسلّ وحدتك! فشجرة واحدة لاتكفي للإقناع، شجرة سنديان واحدة لاتقوى على مقاومة الرياح التي تهب عليك من كل الجهات. ها هي أغصانها تتكسر مرة من جهة البحر وأخرى من جهة الجبال.. وثالثة من جهة ثالثة.. والجذع أصابه الخواء فانحنى..!

شجرة واحدة لاتكفي، كما لاتكفي آلاف الكلمات والأحاديث والشهادات، وجوارك الآخر يتيه بين عشرات الأشجار، سنديانات شامخة متجاورة تحيط به، وشجرة غار تحنو على مقامه، فماذا تصنع شجرتك أمام هذه الغابة الكثيفة.

رحم الله أسعد العلي الذي أجاب سائله عن أكبر المقامين منزلة بقوله: وهل هذا سؤال يسأل؟! المسألة واضحة وضوح شمس الصيف! هذا عنده شجرة واحدة وذاك عنده شجر كثير، فهل يعقل أن يكون الأول أكبر من الثاني؟!

كل قيمك وقداستك وقدراتك ضاعت مع من وقد قريباً منك، الذين خبروها واحترموها ذهبوا إلى غير رجعة، الذي نعرفه أنك وحيد فوق هذه الهضبة عار من الخضرة والأشجار القدسية سوى من واحدة تتداعى! تزورك كل رياح الأرض والسماء بفظاظة، وتقبلك الشمس آن خروجها من خلف الجبال الشرقية البعيدة، وتظل تلفحك بحرارتها حتى تغيب خلف البحر الغربي. الأرض الصغيرة المخصصة لاستقبال بعض الميتين لم تعد تتسع لآخرين، لابد من البحث عن امتداد لها، أو مكان بديل عنها، إذا كان لابد من أموات آخرين! حتى البيدر الصغير الذي يحيط بك والذي كان يوماً ملتقى لدراسة الزرع، ثم صار للصغار والشباب يلعبون ويمرحون، وللزوار الكثيرين يقومون بطقوس الزيارة اللازمة، لم يعد يزوره أحد إلا عابراً مضطراً؛ أخذ مَنْزِلَةُ ذلك المستحدثُ السمحة والقدرات والبراهين الذي صار الملعب جواره، وصارت أشجاره مظلة مستحبة، ومقيلا للاعبين والمتفرجين والقراء والمستظلين والرعاة والصيادين والعشاق والزائرين! فمن يقصدك أنت؟!

كان يزار مجاملة، وكنت غاية الزيارات والبخور والأضاحي، ومابقي من وقت أو بخور يمنح له! كان هذا في الماضي أما الآن فمن يقصدك؟! وقد صرت تزار بسببه، كثيرون من الزوار الذين قصدوك من أماكن بعيدة ذهبوا إليه أولاً؛ فليس من المعقول أن

تكون أنت أنت.. بل لابد أن تكون أنت هو! حيث الأشجار والمنظر الاحتفائي الذي يسرق الانتباه من بعيد. لابد أن يكون ذلك وإذا ماتم التصحيح بعد فوات الأوان، تلقى إليك الفتات..!

فيما بعد صار هو المقصود، لاخطأ.. وإنما غاية.. فهو الذي أناخ الجمال ومنعها من النهوض حين كانت محملة بسنايان من العرش القريب منه والمتصل بغابته. وهو الذي أعمى اللواتي كن يحتطبن منه حتى تركن ما بأيديهن، وهو الذي جاء في أحلام أشخاص كثيرين وأمرهم ان يبنوه... أو أن يوصوا بدفنهم جوارة؛ فانتقلت المقبرة إليه والحشود والطقوس والدعوات والتلاوات..!

ماذا فعلت أنت ياسيدي؟! وماذا قدمت وتقدم من براهين؟!

كانوا يسرقون الفحم من المشاحر ويخبئونه في مقامك ويحتمون بك. ماذا فعلت بهم؟! لم تمنعهم، لم ترعبهم، لم تعمهم، لم تك في أحلامهم وتهددهم، ولم تقرفصهم إذا حاولوا النهوض ولم تشلهم إذا مامشوا، أو حملوا أو أنزلوا..!

هل تمهلهم؟! هل تدعو عليهم؟! جارك لايؤمن بذلك ولايقوم به، براهينه واضحة؛ ثم لماذا تذهب بعيداً؟! إن المرور أو الجلوس بين أشجاره وفي أفيائه تبعث على الخوف والرهبة وتسبب الرعشة والتذلل والخشوع والإيمان والتقوى..! ومن ثم النذور والولائم! في تلك الأفياء وخلف السواتر المقدسة يمكن أن يتعبد المرء أو يقرأ

أو يقوم بطقوس خاصة أحادية أو مشتركة. هناك يختلي المرء بنفسه أو بربه أو بغيره ويكون اللقاء حميماً خالصاً لوجهه تعالى.. بعيداً عن العيون التي لاترحم وخارج الحيز المكاني والزماني الذي يقيد الإنسان ويحد من امكانياته وقدراته ورغباته، خارج القيود والقوانين التي تكبله والأعراف التي تقيده والأوهام والأقاويل التي تغتاله..! فماذا تفعل أنت للناصحيك؟! وإذا كنت غير قادر على حماية نفسك فكيف تحمي وتدافع عن الآخرين.. تحرقك الشمس ويلهو بك الهواء ولاغطاء أو أغصان تحميك؛ حتى شجرتك تتقطع أوصالها.. ويزحف إليها اليباس..! ولماذا شجرة واحدة..؟! هل كانت أشجار أخرى تظلك ولم تدافع عنها فضاعت..؟! ولماذا سمحت للأراضي المستزرعة بالأشجار المعجنة أن تطوقك... هو لم يسمح بغصن واحد يقطع ولابقية شجرة من أشجارهم أن تقترب من شجيراته. وها أنت تنتهي وهاهو يزداد ، الذين رضيت بأن يجاوروك بأشجارهم وزراعاتهم، يخافونه أكثر منك. ويزورونه ويتحببونه ويقدمون له الأضاحي بعد أن يتجاوزوك جهاراً..! فماذا أنت فاعل بهم؟! بل ماذا أنت فاعل من أجل من يحترمك ويقصدك؟! هل ترد عنه الظلم والذنوب والأقاويل..!

استجار بك برهوم العجي ونذر مايملك كي تمنع ماحدث..! ولم تجبه ونذرت جدتي دجاجات كثيرة كي تتعطل الآلة / الغول أو تتكسر قبل أن تصل إلى الماكورة.. ولم تجبها..! حتى (الجرشة) لم تقو على مواجهتها..! فكيف تقنع الناس بك؟!

أنا أعلم أنك مظلوم وأنك أهم وأقدس بكثير... لكنك تحاجج بالمنطق المجرد والتاريخ الذي يشهد، ويحتاج من يريد الاقتناع إلى ثقة مطلقة وعقل سليم وبصيرة تخترق المعلوم إلى المجهول وتنزل من السطح إلى الأعماق ولا تتعلق بالظواهر والأوهام. أين نجد هؤلاء؟! مصلوب أنت..! مصلوب تجاهك اللامبالاة، وتحرقك نظرات الاستخفاف، ويسحق النسغ اللهاثُ المحموم لعابرين محملين بما يوازي الذنوب التي يتمنون أن يتخلصوا منها ليفسح المجال لأخرى، قد يسندون إلى جدرانك أحمالهم، ويصلحون منها. ويرتاحون قليلاً ثم يتابعون المسير إليه..

لابأس ياسيدي.. فأني سأسليّ وحدتك وما أنتما قبالتي..

سوف أكتب في وصيتي أن أكون إلى جوارك سأكتبها مرات عدة. حتى لايظن أن في الأمر خطأ.. فالوصايا لاتذكرك أبداً. كلها ترجو أن تدفن في المقبرة المستحدثة هناك حيث الظل والظلمة.. وهاهو الطريق قد وصل إليه أيضاً.

أما أنا فأقول ذلك الآن ومن يدري؟! ربما تغيرت الوصية مرات قبل أن يحين الموعد الأخير..!

* * *

– 6 –

ما أحلى الشماتة وما أجمل التشفي! وما أبهى القهقهة والسخرية! لكن ما أصعب ألا تقوى على ممارسة ماتراه حلواً وجميلاً وبهياً..!

وما أقسى أن تكون في اللحظات التي يجب أن تعبر عن وجودك فيها انتقاماً سلبياً على الأقل أو مشاعر حقد أو كره، تقف عاجزاً من ذلك..

أنا أحسدكم أيها الشامتون نعم أحسدكم وأتمنى أن أكون في هذه الأيام مثلكم.

فها هو رئيس المشروع يقف عاجزاً عن التعرف على كل هؤلاء المراجعين؛ والتصرف حيالهم أو تلبية طلباتهم. وها هو يتخبط في دوامات المواقع والأشخاص المنفذين والمشرفين وعمالنا وآلياتنا . يكابر أحياناً فيلوح ويسأل المحاسب الذي يسألني، وأحياناً أخرى يستنجد بي أنا الواقف خارجاً، المستقبل من يتعلق أمرهم بمشاريعي، ومحيياً بهدوء، وملبياً حاجاتهم بسرعة. ويسأل عن أمر هذا ووضع ذاك وحالة تلك الوحدة ومشكلة أولئك! وأجيب بما أعرف تماماً، بلا دوران، وأقول ما أراه مناسباً ولكن باقتضاب وقرف. ثم أغادر إلى وجهتي المعتادة. أبقى حتى آخر النهار وأعود متأففاً جداً فلا تلتقي إلا قليلاً.. أعرف فيما بعد – يقول ذاك المحاسب متهكماً – أنه أضاع الطريق واختلف مع المنفذين وأهمله المشرفون وخدعه السائقون..! وأرى ذلك على وجهه واضحاً.

لو كنت أقدر على الشماتة كان قد وصل إلي جزء كبير من حقي! ولو كنت أجيد المكر كنت قادراً على لف كثير من الخيوط

الأخرى حول رقبته، لكني لم أفعل..! لا إشفاقاً أو حباً أو خوفاً. ولا من أجل الفرع أو الشركة أو الأستاذ عساف. ولكن ربما من أجل أمور تتعلق بطبيعتي الداخلية! أقول ربما لأني غير متأكد وغير قادر على تحديد الأسباب بدقة. رغم أني أتمنى أحياناً أن أكون قادراً على المواجهة والمشاكسة والصراخ والسباب والضرب ربما. وأتمنى أيضاً أن يقوم بهذا أحد ما عوضاً عني. أو يقوم به عوضاً عن نفسه، أو لسبب يخصه هو. المهم أن أرى ذلك المشهد. فقد أشعر بالراحة لحدوثه وأحسُّ بالامتنان لمن يقوم به وأرغب بمعانقته، تماماً كما أكره في نائب مدير الفرع استسلامه وخضوعه وهامشيته، وعدم تأثيره بما يجري في الفرع أو تأثره به. وعدم الدفاع عني وعن نفسه! هو الذي يبدي كل الاحترام والتقدير. هل هو يكره فيَّ ما أكره فيه ذاته؟ السكوت وعدم المواجهة، والتسامح والطيبة والصبر..؟!

غريب أمر هذا الرجل. منذ استقبالنا في أول جلسة في مكتب مدير الفرع - وكان حاضراً - لم يبدِ أي رأي أو اقتراح. بل اكتفى بالموافقة على مايقوله المدير. سنتان مرتا ولازال يوافق هازاً رأسه أو يرفع يديه ويقول: ليس لي علاقة. مع أن قدمه الوظيفي وقدم شهادته والشهادة نفسها لاتختلف شيئاً عن المدير. لكنه يُغرِّدُ خارج السرب، إن كان يستطيع مثله التغريد، بل يحلق مع السرب نعم معه ويوقع ويوافق. لامبالاة!! عجيبة وأيام تمضي

ومشاريع تأتي، ومشاريع تنتهي، يأتي مهندسون، ويذهب مهندسون، وينتقل مهندسون، وهو حيث هو يتابع الأمر حين يطلب منه ذلك، ويتابع قراءاته التاريخية والدينية خاصة ساعات الدوام الكثيرة. أرتاح في التحدث إليه في أمور الثقافة والتاريخ والأدب ونتناقش في ذلك، لكن عندما يتعلق الحديث بأمور العمل يجيب ببرود بمزحة سخيفة أو بحكمة مكرورة ولهجة ممطوطة، وإن كان الموقف يتطلب الحرارة والسرعة واتخاذ الإجراءات المناسبة التي لاينفع معها التأجيل. وحين نقلت من مشروع (الشرشار) إلى مشروع الوحدات الإرشادية قابلته وتحدثت إليه فأجاب: كله عمل و «حيثما تولوا فثم وجه الله»! حتى في غياب رئيسه فإن تواقيعه محصورة بالإجازات القليلة، أو الاستراحات في الحالات المرضية الواضحة، أو على طلبات المواد الروتينية من المستودع المركزي. ماعدا ذلك: فليرجأ الى حين عودة المدير!

وفيما يتعلق بالتعيين والمشاريع والأقسام فهو لايعلم شيئاً، ولايتدخل أيضاً، وحين يسأل عن الاسمنت الفاسد، أو مشاكل المبايعات والمواد والمستودعات والصرفيات يقول: إشاعات.. أو كل واحد مسؤول عن نفسه «وكل عنزة معلقة بكرعوبها» واللهم أسألك نفسي! سمعت أنه قال: من المنطقي أن يتسلم المشروع الأستاذ حسان فهو أعلم وأدرى بتفاصيله وعلاقاته الشائكة، قال هذا لبعض محدثيه لكنه لم يناقش رئيس الفرع في ذلك، يمكن أن يكون قد قال المدير شيئاً من هذا.. إذا كان قد طلب منه

رأياً.لكنه اقتنع بعد قليل أن تعيين مفيد أكثر فائدة وأشد حماساً وأوضح شخصية، وقدرة على العراك!

فلا بد أن يكون قد هز رأسه بالموافقة، ثم بإطراء هذه الصفات التي لابد منها لمن يريد أن يتحمل المسؤولية! وربما امتدح الأستاذ عساف على حسن اختياره. «وهذا ليس جديداً عليه»! أو عاب فيَّ الهدوء واللطف والطيبة وعدم القدرة على المواجهة أو سكت في أحسن الأحوال.

أما فيما يتعلق بأمور مشروع (الشرشار) فإنه يرفع يديه ويقول: أرجوكم لا أحد يفتح هذا الموضوع أمامي، ويردد: «ابعد عن الشر وغنيله» أو «الباب اللي بيجيك منه ريح سدو واستريح» وحين يقول له المقربون في البيت او الحارة أو المدينة: ماذا يحدث عندكم؟!

وماهي أخبار العشق عالي المستوى؟! يقول ضاحكاً:

«المهم الا يكون فيَّ».

مع كل هذا فإن كل هذه الحيادية والسلبية والطاعة والهامشية لم تفده في شيء، ولم ينج بنفسه كما كان يظن،، بل طالته النيران التي جانبها وصرف جل وقته في الهروب منها بدل مواجهتها!

فقد ترافق قرار نقل الأستاذ عساف إلى فرع آخر بقرار نقل نائب المدير أيضاً إلى جهة مختلفة.!!

* * *

اختيار مطعم ومقهى (المنتزه) في قرية (المنتزه) لم يكن عفوياً أو بلا حسابات مسبقة، ففي هذه القرية عدد كبير من موظفي المؤسسة ومنهم عدد مهم من رؤساء الأقسام الذين تناوبوا وتبادلوا المواقع كثيراً. كرئيس قسم الخدمات والأمن الصناعي، ورئيس قسم المحروقات وأمين المستودع المركزي، وعضو مهم وفعال في قسم الانتاج. وصاحب مطعم (المنتزه) قريب لاثنين منهم على الأقل وصديق الباقين، وهو لازال في بداية إقلاعه وبالتالي فهذه الوليمة دعاية مهمة يحتاجها كثيراً. كما أن احتفالاً يتم فيه وداع رئيس فرع في شركة مشهورة واستقبال آخر، ويحضره مهندسو الفرع جميعاً وآخرون لهم وزنهم من خارج الفرع أو داخله، لابد أن يعني شيئاً من تسليم الاهتمام بأبناء (المنتزه) من المدير المغادر إلى المدير المقبل، وهذا الأخير لايمكن أن ينسى هذا الأمر لاسيما أنه في بداية عهده وهو سيسعى جاهداً إلى زرع الثقة بين عناصر الفرع، وفيما بعد يخلق الله مالاتعلمون. وهناك جانب مهم في حسابات الاختيار هي أن حفلة كهذه، والتي سيتكفل بمصاريفها الفرع، يمكن أن توضع فيها الأرقام بحرية لأنها تضيع بين مُديرَيْن: مغادر وقادم، ولن يتم التدقيق بها جيداً. خاصة إذا شارك في وضعها ذوو خبرة في هذا المجال من عناصر الفرع.

أما بالنسبة لي فقد كان هذا الاختيار غير موفق، فبعده عن المدينة يجعل المواصلات إليه صعبة، وبخاصة إذا كان يوم عطلة، ولولا أريحية الأستاذ عارف الذي تبرع بالمجيء إلى القرية التي لاتسير فيها سيارات الأجرة في العطلة، وإعادتي مساء، كان من المتعذر عليّ الحضور.

أما النواحي التي لم أرتح لها، هي أنه على الرغم من كون المطعم يقع في رأس تل عال، ويشرف على واد سحيق تحيط به سفوح منحدرة بشدة ومكسوة بالحراج أو بأشجار الزيتون، فان هذا المنظر ليس جديداً وليس مغرياً، ففي قريتي مثيل له بل ومايفوقه جمالاً، وكنت أتمنى لو كان اللقاء على أحد مقاهي البحر التي لم أزرها، والبحر جميل في مثل هذه الأيام حيث الصيف يدب والربيع يستأذن.

أما ماحدث خلال المأدبة، فلم يكن ممتعاً ولا جميلاً؛ فمن ناحية الخدمات من شراب وطعام فقد كانت في مستوى متدن وهذا ما أجمع عليه الحضور على الطاولات البعيدة عن طاولة المديرَيْن وضيوفهما القرباء، ولم يكن الجو العام مريحاً بل كان مخيباً للآمال كثيراً، وربما كان الشعرة التي قصمت ظهر البعير عندي.

إذ بدا واضحاً مدى هشاشة الروابط بين العناصر المسؤولة في الفرع؛ فالاهتمام بالشراب والطعام والبحث اللاهث خلفهما

والمطالبة المستمرة والكلام الخارج من بين الشفاه المشلولة، وإدارة الاهتمام ببعض الحاضرين ونسيان الباقي. ترك في نفسي انطباعاً سيئاً وكذلك عند جاريَّ على الطاولة أسعد وعارف.

ومما زاد في سوء المردود النفسي للحفلة تصرفات وأحاديث الأستاذ عساف – وهو المغادر بعد لحظات – فقد قصد لفت انتباه الأستاذ رافع– المدير المسؤول بعد لحظات أيضاً – إلى بعض ممن يرغب في أن يكونوا مـــــهــــمين لديه، أو يمكن أن يساعدوه في مهمته الجديدة. فلقد كان نصف الحديث موجهاً إلى الآنسة هدى، التي جلست قرب الطاولة الرئيسية، ورؤساء الأقسام الحاضرين وبعض مراقبي الآليات. أما نحن فلا أذكر أنه التفت صوبنا إلا عرضاً وهو يبحث عن أحد المطلوبين! وفي كلمته التي ألقاها والتي لم تتجاوز الدقائق الخمس، فقد شكر فيها الجميع على جهودهم، وطلب الصفح بكل تواضع ممن يعتقدون أنهم ظلموا! لكنه في كل مرة لم يكن يريد إلا المصلحة العامة ولاشيء غيرها.. والله يعلم! رجل من لايخطيء وقال كلاماً عادة مايقال في لحظات الوداع، ويكون مؤثراً. لكن الأمر الواضح أن التأثر كان قليلاً عند معظم الحاضرين. فالمنسيون مثلنا لايجدون في ذاكرتهم منه مايدعو إلى التأثر، والمذكورون حصلوا من اهتمامه بهم الآن والتركيز عليهم أمام المدير الجديد على أمان واطمئنان وجواز سفر للمرحلة المقبلة.

وربما كان المتأثر الوحيد في كل تلك الحفلة الأستاذ عساف نفسه والآنسة هدى، لأن اللقاءات ستنتهي، وحالهما لن تكون مريحة، وإن كانت اللهفة ستحفز الشوق ليزداد. وهذا ماترك ملامح خوف غامض على وجهيهما وحركاتهما، وأدى إلى تصرفات غاب عنها الخجل ووهنت فيها المراعاة، بل بدا فيها تصميم أكيد على الاستمرارية في العلاقة رغم ماسببت من نتائج غير مرضية، كان أهمها وآخرها نقل الأستاذ عساف بعدما غص سجله في الإدارة العامة وجهات أخرى بالتقارير والشكاوى والمشاهدات والتجاوزات، وهذا ما أصبح معروفاً لدى الجميع. أما الأمر الأخير الذي خرجت به فهو أني قليل الخبرة في استخدام أدوات الطعام والشراب في مثل هذه المناسبات، وبكلام آخر لا أليق بهذه الولائم؛ فقد أمسكت الشوكة باليد اليمنى وسكبت الويسكي في كاسات العرق والبيرة في أكواب الويسكي، إضافة إلى قلب الكأس وارتماء الشوكة أو السكين والبطء في تناول الأكل، فقد كان كل هذا غير مهم ولا يعنيني أو لم أفكر فيه قبلاً، بل إن هناك أموراً أخرى أهم بكثير، منها المقارنة بين القديم والجديد وتوقع المعاملة القادمة.

كما أن ضرب الكأس بالكأس لم أتقنه بَعْدُ، وإن كان أغلبهم لايفقهون منه سوى ذلك الصوت الذي يخرج من اصطدام

الكؤوس دون أن يُعَبِّر إلى العواطف أو المشاعر أو القلوب. وما أعتقدته جازماً وأوضحتُ عنه لأسعد رعايف، أن هذا اللقاء لم ينتج عنه أية إلفة جديدة أو أي صفاء بين عناصر الفرع، ولم يمح روح المنافسة والمراقبة والحسد التي تسود مابينهم أوقات الدوام، والآن في المبارزات السخفية واستغلال المواقف وانتهاز الفرص واظهار المهارة في الحديث أو المزاح الفج الثقيل وفي استخدام الأدوات والتعريف بالمأكولات.

أما المدير الجديد فقد بدا خلال الساعات التي سبقت التوجه إلى مكان الاحتفال، وخلال ذلك الاحتفال بسيطاً، عادياً يتصرف ويحكي بهدوء وبرود. ويضحك باقتصاد. لكن أشياء كثيرة كانت تختبىء بين قسماته التي لاتوحي بالذكاء، وخلف نظراته البليدة أشياء كانت تستعصي على تخميناتنا لكنها في المحصلة العامة لاتعطي أي شعور بالراحة.والاطمئنان ولا تجعل الغبطة برحيل الأستاذ عساف تمتد إلى حدود قصوى بل جعلتها تنكفىء على نفسها بانتظار مايأتي.

وقبل أن نغادر المكان ودعنا الأستاذ عساف واحداً ! واحداً. وكان الوداع عناقاً وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي قدمه لنا بالتساوي مع اختلاف الأحاسيس التي كانت تجول في نفسه ونفس نَدّه عند العناق.

كان يظهر هذا الاختلاف أحياناً في زيادة أو نقصان عدد مرات التقبيل أو مكانه، أو مقدار الشد على اليد أو على الضمين.

وغادرنا... أنا وعارف...

والشراب يترك بعض آثاره استرخاء وتشوّات ونعاساً. وكي لايحدث أمر خطير على الطرقات الصعبة الصاعدة والضيقة، فقد قاومنا كل هذه التأثيرات بتبادل الأحاديث والأفكار والتعليقات. وكنا متفقين معظم الوقت في الحكم على القديم والجديد. واستعرضنا مختلف الشائعات والأقاويل التي رافقت زمن الأستاذ عساف، وعرج على أسرار استلامه السيارة والأسرار التي لايعرفها. جاء ذلك حين شكرته قائلاً أن هذه السيارة، وإن قيل فيها ماقيل، قد خدمتنا. ولولاها فاتنا هذا اللقاء الذي كان هاماً؛ لأنه اللقاء الأول الذي يجمعني بغالبية رؤساء مشاريع الفرع وأقسامه واللقاء الأول الذي أمكنني فيه المقارنة بين الناس لا في ساحات العمل والسباق والمبارزة والأقاويل بل بعيدا عن هموم ذلك كله. أو من المفترض أن يكون كذلك.

وأمكن معاينة علاقة المدير المخلوع مع الجميع والتمييز فيها. وقد لاحظت مثلا أن الاهتمام بمفيد كان عاليا؛ ولولا تدخله بالحديث عرضا وبصوته العالي الذي يجبر على الاستماع إليه لما كان يختلف عنا أبداً.

وكذلك حال عارف الذي انتهت العلاقة به بعد أن تم الانتقال، فلم يعره اهتماماً أيضاً كما ان أسباب استلام أسعد بالمشروع الجديد والتي ذكرت وقتها يمكن ان نصدقها الآن. ولايمكن أن أقول أن فرحي كان منقوصاً. أو أنني لم أستطع الاستمرار في الانشراح إذ لا أعتقد أنني كنت منشرحاً أو فرحاً. بل إنه في أوقات قليلة مرت خلال اللقاء كنت أتمنى هذه المرة أيضاً أن أعرف الشماتة أو أقدر عليها. أو أستطيع التشفي والانتقام. لو استطعت ذلك لكنت قد فعلت...!!

* * *

- ٧ -

- إن شاء الله كانت رحلتك موفقة !؟ كيف كانت الحفلة؟ شراب كثير وعيناك محمرتان وزائغتان.

قال ذلك والدي الجالس على كرسي صغير من الخشب والقش وهو يستند إلى جزع شجرة المشمش التي استطاعت رغم عمرها القصير إقناعنا بجدواها بثمارها المميزة التي وصلت شهرتها إلى كثير من القرى المجاورة.

أضافت والدتي التي كانت تفترش جواره . وتغسل بعض ثيابي:

- ماذا طبخوا لكم؟ كيف كان الأكل؟ أكلهم أو أكلي؟، ألف صحة وعافية يا ابني!

تظاهرت بالضحك وأجبتهما معاً: ماشي الحال، كله مليح، أكلنا وشربنا. أحضرت كرسياً من البيت ووضعته قرب أبي ورميت جسدي فوقه وحكيت لهم بعض مايتوقعون أنه حصل ويفرحون له، وتجاوزت الكثير!

كانت الشمس تقترب من رؤوس أشجار الصنوبر التي تغطي سفوح الجبال القريبة، ولم يمض وقت طويل حتى تكاثر الناس، وشاركونا الجلسة والاستفسار عن الحفلة بعدما علموا بها من والدي فيما مضى من اليوم. فغيابي عن القرية في يوم الجمعة، وفي غياب أيام العمل الطوعي، يدعو للتساؤل، لأنه يوم التزاور واللقاء والحديث وتبادل المسموعات والآراء، بعد مشاوير الصباح القصيرة إلى الأرض أو الصيد، وقبل الغداء الذي تبدأ طقوسه مبكرة في مثل هذا اليوم، حيث تسمع أصوات الدجاج الذي يصيح مذعوراً حين إمساكه أو ذبحه. ثم تجوب رائحة اللحم المشوي أجواء القرية وطرقاتها وساحاتها، ثم يبدأ الأولاد باستدعاء آبائهم الذين تخلفوا عن الالتحاق بالولائم الصغيرة التي تكاد تقتصر على الشواء والسلطات، أو البرغل مع اللحم المسلوق، مع كؤوس صغيرة ملأى بسائل أبيض.

بعدها تُستكمل الزيارات قبل أن تبدأ مباريات الورق التي تكون عامرة في مثل هذا اليوم لقدوم بعض أبناء القرية الساكنين

في المدينة، والتي قد تستمر حتى الساعات الأخيرة من اليوم، مع مايرافقها من صياح وضحكات وغضب ومناقصة على المشاركة في اللعب، وتناوب المنتظرين الذين قد يترك بعضهم الجلسة بعد أن يتأكد من أن دوره لن يجيء، فيعرج على بيوت لم يكن ينوي زيارتها، لكن لم يتعود العودة الباكرة إلى البيت. وكثيراً ماكانت تنتهي هذه المعارك الورقية باكراً بعد حصول مشادات بين المتسابقين الرئيسيين الذين يحتلون الطاولة، كما يقول المنتظرون، عندها تجري أمور عرضية: كأن يذهب المتسابقون إلى الغابة في رحلة لقتل الوقت الباقي، وقد يبدون عندها إعجابهم الشديد بسحر الغابة ويعترفون بأنهم مقصرون تجاهها وقد يتواعدون لقضاء يوم العطلة القادم بين أشجارها وفي أفيائها السخية، لكن هذا يبقى نوعاً من التكفير الكلامي أو شيئاً من إرضاء النفس كي يخف التأنيب الذاتي أولاً والغضب النسائي المرافق أو القادم ثانياً.

كان يوم الجمعة عيداً حقيقياً، لكنه عيد داخلي مستقل، تقوم به كل أسرة منفردة. ونادراً ماتتشارك أسرتان به وقلما يغيب الشواء الذي في غالبيته (فراريج) من مداجن قريبة. ونادراً أيضاً ماتتكرر مثل تلك الرائحة في يوم آخر من أيام الأسبوع، إلا إن كانت عطلة رسمية. بل إن انبعاث مثل تلك الرائحة من أحد البيوت دليل أكيد على وجود ضيف عزيز أو شيخ جليل أو مرض شديد أو ولادة حديثة.

هذه هي طقوس يوم العطلة التي لا أذكر متى بدأت ولا أذكر طقوساً مغايرة لها. كان طبيعياً إذن أن يُسأل عني وأن يقول أبي وأمي أني في حفلة أقامتها الشركة في مطعم محترم، كان طبيعياً أن يقولا ذلك مع شيء من الاعتزاز والنشوة. وربما قالت أمي لمن لم يسألها عني وربما دون مناسبة أيضاً. أو لعل الذي صرح بذلك مسعود الصديق الملازم الذي يبدو وجوده وحيداً يوم العطلة، أو في أوقات المساء، أو وجودي كذلك أمراً غير طبيعي، فنحن متلازمان ومترافقان في كل زيارات المجاملة والواجب وزيارات السمر ومشاوير المساء اليومية.

ومسعود شخص يملك خصائص قل أن تجمعت في شخص واحد... فهو ليس مثيراً ولا غريباً، بل إن خصوصيته وفرادته تأتي من وضوحه وبساطته وصفاء سريرته وملاحقته العجيبة لأخبار السياسة وأنباء الطقس.

فهو لايترك نشرة أخبار تفوته من أية إذاعة كانت صديقة أو عدوة. وما أشد فرحته حين يُخبرُ الناس خبراً طازجاً لم يسمعه أحد بعد. وما أكثر الأخبار المستجدة في أيامنا! وبالأخص أخبار لبنان.. كان يخرج من داره ويمشي أو يهرول ليخبر كل من يراه أو من يكون في بيته ويمر من هناك.

ويشعر بخيبة كبيرة حين يجد من سيخبره دارياً بالخبر حينئذ يتبادل معه الآراء فيما سمعا قليلاً ثم يقصد آخرين. أما النشرة الجوية فهو المرجع الوحيد فيها: يسمع كل النشرات

الجوية من إذاعات دول مجاورة أو بعيدة، يقاطع بينها ويستنتج الاحتمال الأكبر.

حين نكون معاً ونلتقي بأناس كثيرين يبادرونه بالسؤال. ماهي الأخبار اليوم يا أستاذ محمود؟ أو هل هناك منخفض قادم؟ وهل ستستمر هذه الأحوال؟

ويجيب بما قد سمع، وبما يتوقع أيضاً، مرفقاً إجابته بضحكة فرحة أو هزة رأس منتشية. ولم يكن هذا الأمر مبعث أي خجل لديه أو استحياء، ففي أي مكان نكون وحين اقتراب موعد الأخبار، موجزة كانت أم مفصلة، وسواء كان يتحدث أو يستمع أو يشارك، فانه ينتفض فجأة ينظر إلى ساعته، يتلفت حوله وفي الغرفة كلها، فإن رأى مذياعاً اتجه إليه على الفور. يتناوله ويدير مفتاحه إلى الإذاعة المطلوبة التي يعرفها في أي نوع من (الراديوات). وإن لم يجد، ينظر إلى الساعة نظرات متكررة ويسأل صاحب البيت عن مذياع ويُذكرُ بأن هناك حالة خطيرة في مكان ما من العالم.

ولايحمر وجهه ولايتأثر من ضحكاتنا التي تجلجل، ولا يتراجع بل يصر على غايته ضاحكاً الى أن يتم له ذلك. فان كان هنالك جديد، يرفع صوت الراديو بسرعة ليثير الانتباه ويقطع أي حوار، وإن كانت الأخبار مكرورة أو قديمة يغلقه ويدعه بجانبه إذا كان وقتُ أخبار اخرى قريباً. أو يعود إلى مكانه الأول أن كانت الفترة شحيحة بنشرات الاخبار كما في أوقات قبل الظهر وبعده وبعد المساء بقليل.

وفي حين كان الناس يتحدثون بهذا ويتساءلون ويستغربون وقد يهزؤون، كنت أبرره دائماً وأعتبره طبيعياً.

فسعود أنهى أحلامه باكراً. صار معلماً وتزوج قريبته متحصراً على خلافات وحساسيات معقدة وشديدة، وأنجب مايريد من أولاد وبنى بيته معتمداً على مساعدة المصرف العقاري، وعين في مدرسة قريبة، وهو لايشعر بالغيرة من أحد، ولايحقد على أحد حتى الذين يحاولون الإساءة إليه عمداً، ولا يتخاصم مع أحد، ولا تهمه مشاكل الناس إلا في حدود الأخبار.

وليس أنانياً ولا يكره أو يتعالى، ولا يرنو إلى ماهو أكبر من إمكانياته. ولايسعى إلى منافسة أو مباراة حتى إن كانت (ورقية)، أو كانت صيداً أو كرة أو هواية... وهو الصاحب والرفيق الذي يستمع جيداً إذا ماحدثته، وينصت باهتمام إذا شكوت إليه. لكنه قد لايعطي رأياً مفيداً، ولا يقدم مواساة ناجعة، بل يكون الصدى الأمين والمكان الآمن الذي يمكن أن تلجأ اليه حين تريد أن تخبيء لديه سراً أو أمانة لكن عليك ألا تنتظر منه مشاركة في الدفاع، ناهيك عن الهجوم.

لهذا كله كان أمراً طبيعياً أن تدوم علاقتنا وتستمر دون أن تتعرض لأية هزة. كنت أجد الراحة لديه والمتعة بمرافقته يكفي أن تكون واثقاً أنك لن تتعرض إلى أي شيء ينفرك، أو أن تفاجأ بكمين، أو تشم رائحة حسد أو انتقام في ثنايا حديثه، أو أثناء

مصاحبته، خاصة، بعد ساعات عمل طويلة قاتلة بفراغها وعقمها أول الأمر، ومليئة بأعمال متنوعة ومتشابكة في مشروع الوحدات الإرشادية أو مشروع الصالات فيما بعد. وكانت لقاءاتنا المسائية حتمية، فبعد قليل من وصولي إلى البيت، وعندما يقدر أني أنهيت طعامي أو أكاد يحضر مسعود ونتبادل الاقتراحات التي لاتتعدى مشواراً بسيطاً أو زيارة إلى زملاء في قرية قريبة، أو القيام بواجب مما تراكم تهنئة بخطوبة أو زواج أو ولادة أو نجاح أو سلامة من سفر بعيد أو طويل، أو إبلالاً من مرض أو تعزية بوفاة حديثة، وما أكثر الوفيات في هذه الأيام!

وقال الناس الذين تعجبوا وغاروا واغتاظوا: اذا لم تترك مسعوداً لن تتزوج! وقالوا أيضاً: هو رجل متزوج وعنده بيت يستقر فيه وله أولاد.. أما أنت ياحسرة فليس لك شيء من هذا فما الذي يلصقك به وماذا تستفيد منه؟ وقالوا: يا أستاذ مسعود اترك (الزلمة) بحاله. خلّه يدبّر راسه: إذا كنت لاتتركه لحظة واحدة فكيف سيجد بنت الحلال؟ بل كيف سيفكر بها إلا إذا كانت معه في الوظيفة.. وإلا فسيبقى مثل برهوم الحجي لاولد ولا نكر، لايخطر على بال أحد إلا إذا تندروا ببحثه عن الحليبة العتيقة ضاحكين منتشين.

لم يكن مسعود المتابع الوحيد للأخبار، بل معظم سكان المصلبة متابعون جيدون وإن كان مسعود أكثرهم اهتماماً وانشغالاً.

أما أهل القرية فقد كان لاهتمامهم بالأخبار أسباب كثيرة أهمها الكسل والتكاسل. كما أن منهم من لازال يذكر الأحداث المهمة على مدى السنوات. والتي كانت تلفحهم رياحها الساخنة بدءاً من الحرب العالمية الثانية؛ فالانقلابات المتتابعة والثورات المتعددة والتحررات المتعاقبة والوحدة التي ماتزال غصة في الحلق، إلى الشطر الصهيوني المقيم، كلها تركت آثارها لعقاتٍ نشوة وخيبات مستوطنة ومتابعةً وترقباً لما يأتي. علّ به بعض الأمل الذي استعصى.

والذين كانوا أكثر تأثراً بهذه الأحداث وأكثرها مرارة هم الذين عايشوها أو عاصروها في بيروت: بيروت التي يحملون لها وداً وعرفاناً، ومنها آلاماً وغصات.. بيروت التي استقبلتهم في مراحل يفاعتهم الأولى.. عصرتهم وأرقتهم، ولفظت الكثير منهم أو باعها بعضهم بلا ثمن.

بيروت التي تعهدت عنهم تربية أفواج من بناتهم، وتعليمهم لهجة جديدة، بعدما وجدوا أن هذه أفضل الطرق للتخلص من عيب الفقر وذلة الحاجة وصولاً إلى العيش الهانئ... الآمن..

بيروت التي تحترق الآن، وكما حصل لكل من استوطنها اقتصت بعض من أودعوها. وأضاعت بعضهم إلى الأبد أو إلى

أجل غير مسمى، وأعادت من بقين يعرجن في سفوح القرية أو دوربها الجبلية غريبات الوجه والمظهر واللسان..

أما من ليس عندهم بنات بَعْد، فقد زرعوا في بيروت سنوات كثيرة، رضعوا لبنا دامياً فعاد من غص مختاراً، وأعيد من صفا لبنه زمناً بلا ثمن راضياً الضروع بجلده مفتشاً عن عمل في القرية أو المدينة. ومستمعاً إلى أخبار الحرب والطرقات غير السالكة أو الآمنة ثم لاعباً بارعاً بالورق وشارباً متمكناً للسوائل الحارة.

وكما وجبات الطعام كذلك الأخبار، وجبة صباحية دسمة ووجبة عند الظهر أكثر دسماً وفي المساء أيضاً؛ ثلاث وجبات رئيسية مع شرائح بسيطة موزعة على ساعات اليوم الأخرى. حين يبدأ اللقاء اليومي في المصلبة تبدأ وجبة استعراضية للأخبار المستجدة، يتناولونها محللين مفسرين، وتعلو أصواتهم حين مناقشة حامية واختلاف في الرأي، فكل منهم خبيرٌ ومحللٌ بارع. كيف لا؟ وهذا يعرف (رأس النبعة) كما يعرف المصلبة، وذاك (الأشرفية) بالنسبة إليه كحارته، وثالث ورابع وخامس.. عاش وخبر (رأس بيروت) (وسن الفيل) (والدورة) (والنهر) أكثر مما يعرفون (ضهر الصنوبر) و (مسيل الشرشار) (ونبع الفوار) .

هذا يتوقع كل يوم أحداثاً كثيرة وإذا صادف أن حدث منها شيء عاد في اليوم التالي منتصراً ويصرخ: ألم أقل لكم. الخبرة لها حق..؟

أما إذا لم يحدث شيء فلن يناقشه أحد، لأنه لم يأخذ كلامه على محمل الجد والاهتمام. وهكذا يظل فائزاً أطول فترة ممكنة، وحين يحدث أن يخسر في اللعب يشعر بنكبة مضاعفة ويعلو صوته وقد ينتهي الأمر إلى خلاف ثم اشتباك وفض اشتباك وقد يتسلون بالأخبار أثناء اللعب خاصة من المتفرجين الذين هم مع القوي دائماً كي يتسنى لهم الطول محل الضعيف المهزوم. لذلك قد يغيرون مواقفهم مرات عدة في اليوم الواحد بل في الساعة الواحدة.

أما مسعود فقد يحضر الجولة الإخبارية الأولى ليدلي بمسموعاته التي تحوي تفصيلات اكثر دائماً، ثم يغيب حين يبدأ اللعب، وقد يعود مرة أو أكثر حين يحدث ماهو جديد. لأن صدى أخباره يكون أكثر وأشمل، يؤكد أسبقيته التي لامجال للمنافسة عليها إلا من والدي الذي يناقش ويسأل ويستزيد لأنه لايهتم بالورق ايضاً، وإن يشارك في اللعب ففي البداية وقبل (اكتمال النصاب) مع مايرافق ذلك من عصبية ومزاجية المشاركين المحترقين لأنه سبب الخسارة دائماً..

•

غريب أمر هذا الرأي العام في المصلبة، من أين ينبع وكيف يتغذى؟! وماهي روافده؟ وكيف يتغير حين يتحول إلى رأي خاص بين متحاورين قليلين..؟! يكون صحيحاً ثم تتبدد صحته

حين تقترب العدوى من أحد أطراف المشكلة أو الحديث، من يستمع إلى تقويم الأحداث من بعيد ويراقب صدى الآراء المجتمعة، غالباً قبل الدخول في جولات الورق، والتي تتحدث عن المنطق والحق والدين، يستغرب أن يكون في المصلبة كل هذه المياه الآسنة وهذه الزوايا العفنة والنفوس المشوهة؛ إذا كان عيباً أن يضرب فلان زوجته، وعيباً أن ترد الزوجة وترفع صوتها سابة عائلته وشاتمةً أجداده، وإذا كان من غير المنطق أن تُتجاوز حدود الأراضي وتُنقل حجارة التحديد، ومن غير اللائق أن يزور شبان بيوتاً ليس فيها إلا النساء وأزواجهن غياب، ومن غير المعقول أن يعجب المتعلم بالفتاة الأمية، والمعلم بطالبته الاعدادية ومن غير الجائز أن تفكر المتعلمة بالجاهل، وإذا كان لايجوز أن تُترك الأراضي الموزعة من الإصلاح الزراعي أو التي ا ستُصلحت للمراح تستعيد فيها مجدها وتحاصر زيتوتها، ولايجوز أن يغيب الرجل عن بيته وأولاده وزوجته كل يوم، ولايعود إلا آخر الليل، وإذا كان حراماً شربُ العرق والميسرُ وضاراً شرب الدخان خاصة في الأجواء المحصورة، فلماذا يحدث كل هذا الممنوع والمستهجن وغير المرغوب؟ ومن الذي يقوم به؟ وإذا كان عيباً وجبناً النميمة والطعن في الظهر ونقلُ الأخبار وتضخيمها والدس والفتن والثرثرة الفارغة والوَجْهَنَةُ والتعصب العائلي في عصر القمر الصناعي. فمن أين للمصلبة كل هذه النيران التي تحرقها وكل هذا الصقيع الذي يحاصر براعم اللون والانطلاق؟!

ومن أين لها هذه الحساسية والنفور والمنافسة المبطنة أو المعلنة والقلق من انتصار الآخرين حتى في ساحة اللعب المثيرة المغبرة، أو ميدان الورق المشحن. وأين تأثير المسلسلات التي كانت تجمع عدداً قياسياً من الحضور قبل عهد الكهرباء، وحين كان المجد للأجهزة التلفزيونية الصغيرة المُهربة مع مدخرة سيارة مستهلكة لم تتجاوز في البداية الثلاثة. وكثيراً ماكانت تنتهي الحلقة من منتصفها لانتهاء شحن المدخرة وكم من حلقات مهمة فاتت لأن المدخرات تشحن في المدينة ويستغرق هذا يومين على الأقل، لكن المسلسل يفهم في النهاية حين تحل كل الإشكالات وتأخذ العدالة مجراها، ويتفرق الحاضرون فرحين مسرورين وفرحات ضاحكات مثرثرات..

أين مفعول هذه المسلسلات الإصلاحية وحكمها وتعاليمها ومشاهدها التي تهز المشاعر والأحاسيس، والتي أصبحت بعد عهد الضوء الوافر، لاتُعد ولاتُحصى لان المحطات التي تعرض بضاعتها كثيرة، مُسْبقةً أو ملحقة بإعلانات لاتهدأ أو دعوات صريحة متوسلة حانة. صار بعضها يتردد على شفاه الراعيات كأغنيات شبقة. رغم هذا الانشغال والاندهاش والتعليق الذي يتضاعف بمراجعته مرات في ساعات اليوم الأخرى في العمل أو الوظيفة أو البيت، فان كلاً يبقى في النهاية رهين موقفه دون أن يسمح لنفسه قبل غيره أن يراجع حالته، بل إن الخلل كل الخلل

في الآخرين الذين لايقدرون ولايحترمون ولايعرفون الحق رغم أنه واضح كعين الشمس،

تُرى.. ألا يعرف الحق غير القاضي.....!!

* * *

- ٨ -

لم يخطر ببال أحد أن تزداد أهمية عارف بلول إلى هذا الحد، حتى هو شخصياً لم يتصور هذا وإن كان حريصاً على أن يعطي عمله في مكتب الصحية اهتماماً واضحاً. وبدأ يتابع كل صغيرة وكبيرة فيه وأضيف إلى مكتبه مهندس آخر لإبعاده أيضاً عن قسم الإصلاح والآليات، هذا الذي لم يعد يخطر على بال عارف. خاصة بعد أن برزت أعمال التهوئة والتكييف التي ألحقت به لأنها - هذه المرة - لها علاقة بالميكانيك..! وبدأت تأخذ من وقته وجهده الجانب الأهم، بينما ترك للمهندس الآخر أعمال الصحية التي لاتتطلب كبير جهد أو خبرة، إذ إن عناصر المكتب قليلي العدد والذين لايتجاوز عددهم الأربعة، كانوا قادرين على القيام بها دون مراقبة أحد بصورة أفضل مما لو وجد فوق رؤوسهم مهندس؛ ففي هذه الحالة يماطلون ويدعون الجهل لاختبار امكانيته العملية وشخصيته الإدارية. وحين بدىء بالبحث عن طريق لإنجاز أعمال التهوئة والتكييف، جرت لقاءات عديدة بين مدير الفرع الجديد وبين

عارف، الذي أوضح عدم قدرة العناصر في الفرع على تنفيذ مثل هذه الأعمال الدقيقة والجديدة عليهم. وكانت موافقة المدير فورية! فسرّها عارف وقتئذ بالحرص على إنجاز هذه الأعمال بأسرع مايمكن وأن لافائدة من الأخذ والرد، فالعقد وقت محدد ويجب أن نتفادى غرامات التأخير. ولا بأس من الاتصال بمن يمكنه أن يقوم بهذا العمل وله خبرة ودراية في هذا المجال. ولما كانت علاقة عارف بهذه الأعمال لاتزال حديثة، فقد تولى المدير الاتصال بمن يعرفهم، والذين قاموا بتنفيذ أعمال مماثلة في أماكن أخرى، وفي مشاريع تتبع الفرع الذي كان يرأسه.

لكن المصادفة التي وقعت لم تكن بالحسبان، لامن عارف ولا من مدير الفرع ولا من المتعهد الجديد الذي عهدت إليه الأعمال في مشروع المبرد.

قال عارف:

زفّ الي مدير الفرع خبر موافقة المتعهد أو الخبير الذي يثق به، وتمنى أن يجد لديه الوقت اللازم للقيام بتشغيل وتكييف المبرد. وقال حينذاك: اضحك بعبك..! حظك وحظنا من السماء؛ إنه أحد أهم الخبراء في القطر. وهذا من حسن حظك فأنت من يشرف عليه وكلما كان فهيماً ومخلصاً وأميناً، كنت مرتاحاً وتستطيع أن تستفيد منه لاسيما أنك لازلت جديداً على هذه المشاريع.

حدث هذا حين أرسل ورائي سيارة من الفرع الى مشروع سكن العمال، حيث كانت الأعمال الصحية تتواصل، وكنت

حريصاً على الحضور هنا بعد المجادلة التي جرت بيني وبين رئيس المشروع لقبول مواد تختلف مواصفاتها عما جاء في العقد. ولقد ساورني شك بأن بعض هذه المواد يركب بعد اقناع زميلي الجديد بأن هناك موافقات من رئيس المكتب ورئيس الفرع ولجنة الإشراف في البلدية.

وحين دخلت مكتب الاستاذ رافع ضحك تلك الضحكة المبهمة وقال:

أين كنت يا استاذ عارف..؟! قلبْنا الدنيا عليك. الدكتور يوسف ينتظرك منذ بعض الوقت. ووقته، كما أخبرتك عنه، ضيقٌ جداً وأعماله كثيرة، إضافة إلى أنه قطع مئات الكيلومترات حتى وصل إلينا بالسلامة. ولولا حرصه علينا، وعلاقتي به كان رفض ذلك.

والتفت إلى أحد الجالسين عن يمينه وكان وقف للتو: رجل طويلٌ مع كرش لايخفى ووجه واسع وشعر أسود مع بعض البياض الذي يلمع فوق الاذنين.

وقال له: هذا هوالأستاذ عارف المسؤول عن أعمال التدفئة والتكييف لدينا. وهو شاب يعجبك وأؤكد أنكما ستتفاهمان سريعاً.

لم يطل بي الوقت حتى عَرفتُهُ، فالوجه لايمكن أن يُنسى. أما هو فلا أظن أنه تذكّرني رغم طول مدة التحديق. وقال بعدها: وجهك ليس غريباً عني، لكن لا أستطيع التذكر. وضحكت بخجل واستحياء ومددتُ يدي وانحنيت تقديراً لأستاذي في الجامعة. وداعَبنا مدير الفرع بانشراح حين عرف هذا قائلاً:

لاشك أن المهندس عارف تلميذ نجيب، ولا أستغرب بعد هذا جدارته وتهذيبه..!

حقاً إنها مصادفة، بدت سعيدة أول الأمر، وغريبة أيضاً، فجميل أن تلتقي بأستاذك بعد التخرج، وجميل أن تشعر بأنك صرت ذا شخصية مستقلة بعيداً عن رهبة المقاعد وخوف الامتحانات وقلق الانتظار ورعب النتائج.

لكن الغرابة هي التي أعادت الرهبة والخوف، مضافاً إليهما الخجل من أنني سأكون مسؤولاً عن أعمال أستاذي ومشرفاً على تنفيذه. أو بكلمة أدق، سأكون مراقباً لحسن تطبيقه للتعليمات والمعلومات التي كان يعيدها ويكررها في المحاضرات والمقابلات والامتحانات. ولن يكون هذا تسلية أو لهواً أو هواية، إنما عمل من صلب مهامي الوظيفية، وهو ما سأُختَبَرُ على أساسه أو أقيَّم من نفسي أولاً ثم من مدير الفرع ثانياً، ومن جهاز الإشراف ثالثاً.. أما الأهم من ذلك كله أنني سأقيَّم من قبل معلمي الذي سيحتفظ لنفسه ربما، أو سيقول ذلك لرئيسي بما يكتشف فيّ من دراية أو خبرة أو إهمال أو غباء.

وقد يغتبط مني ويعود إلى طلابه منتشياً باكتشاف المردود الذي ينشره في من يحرق أعصابه ووقته وجسده من أجلهم. أو يدخل عليهم واجماً متشائماً خائباً. أوقات عصيبة مرت علي بعد ذلك اللقاء، حين أحسستُ المسؤولية ثقيلة إلى درجة لا أستطيع تحملها وخطر لي مرات أن أعتذر عن عدم قدرتي على هذا العمل.

لكني عدت الى العقد والشروط الفنية ورحت أدرسها كان هناك امتحاناً نهائياً. امتحاناً ليس قبله ولابعده. لم أترك شاردة ولاواردة إلا ولاحقتها، ولاشيئاً غامضاً إلا حاولت أن أستبينه من جهاز الإشراف الذي وجدته غير ضليع بهذا العمل أيضاً. ولم تكن غايتي من كل هذا الاهتمام إلاّ القدرة على فهم ومواكبة الأعمال التي ستنفذ بدقة ومهارة. كي لا أبدو متخلفاً أو عاجزاً أو فاشلاً أمام أستاذي الفاضل.

*

لم يكن عارف من الطلاب المتفوقين كي يتذكره الدكتور يوسف عبود بكثير من الانشراح، ولا من أصحاب المشاكل أو المشاكسات كي يبقى في الصفحة الشاحبة من ذاكرته.

بل كان من كتلة الطلاب التي تأتي إلى الصف تستمع جيداً، وتسجل بشكل مقبول دون أن يكون لديهم حماس المناقشة، لكنهم يتابعونها باهتمام. بكلمات أخرى، كان من المهتمين، لذلك كانت صورة الوجه مألوفة. أما ماعدا ذلك فلا يمكن لذاكرة أي من المدرسين أن تحفظ كل الوجوه والأسماء التي تتجدد كل عام. وهذا ماترك مجالاً أوسع للاحتمالات لدى كل من الدكتور يوسف عبود وتلميذه سابقاً والمشرف عليه حالياً عارف بلول. مع هذا لم يكن هناك الوقت الكافي للتفكير بها جميعاً.

فقد بدأت عناصر الورشة تصل تباعاً إضافة إلى أدواتها ومعداتها. ولما كان العمل في بدايته - أياً كان هذا العمل - يتطلب اهتماماً وحذراً، فقد استدعى وجود الدكتور يوسف في الأيام الأولى مع الأستاذ عارف الذي ترك كل الأعمال الأخرى، العامة والخاصة، واستوطن المشروع. وعلى الرغم من أن البدايات كانت مشجعة حيث ظهر أن العناصر تتمتع بمهارات جيدة وخبرة واضحة بدا معها وجود رئيسها الدكتور يوسف والمشرف عليها المهندس عارف لالزوم له، مع ذلك فقد آثر عارف الاستمرار في التواجد لتأمين كل ماهو مطلوب دون تأخير، ودون أن يترك مجالاً للمتعهدين الذين يُكثرون من الحجج والمماطلة والأسباب الداعية إلى التوقف وتبرير المدة، كما يعرف عن هذه الفئة قبلاً. أما المتعهد الحالي فهو واثق من نفسه ومن عماله الواثقين بدورهم من أنفسهم ورئيسهم. وبالتالي صارت غياباته تتكرر لملاحقة الورشات الأخرى العديدة واستجرار الأجهزة اللازمة للمشروع والتي بدأت تتقاطر إلى الموقع تباعاً.

لم يكن الأمر حلماً ولاحديثاً مفتعلاً في مسلسل هادف، ولا أمثولة تحكى على سبيل النشر ووجوب الانتباه والحذر، ولا خروجاً مهماً على المحاضرة وبيان أهمية التأكد من المواصفات كي لا يحدث الغش ويقع الكارثة. لم يكن شيئاً من هذا كله بل كان أمراً واقعاً، فالأجهزة التي استلمها المتعهد /الدكتور كانت

تقليداً للأجهزة المطلوبة تقليداً يصل حدود المحاكاة والتماثل، وهي تحتاج إلى دقة في الفحص، وشك مسبق للبحث عن الحقيقة أو التأكد منها حاول (الأستاذ) المداورة أول الأمر، والتقليل من خبرة الطالب واطلاعه على آخر الانجازات العلمية والصناعات التمونجية. والإيهام بأن هذا النوع معدل، وأن مواصفاته تكاد تفوق ماجاء في العقد جودة.

لكن الأستاذ عارف أصر على موقفه واثقاً مما يقول بعدما لجأ إلى بعض العارفين في السوق ليتأكد من الموضوع. وسرعان ماانتقل الأمر مكتوباً إلى مدير الفرع الذي صُعق في البداية، أو هذا ما أبداه، حين حاول التشكيك بكتاب عارف. والتلميح والتصريح إلى أن خبرته لازالت قليلة بالمقارنة مع خبرة الدكتور الذي درّسه منذ سنوات. وعنده سنواتُ تعليم وتنفيذ تعادل عمر عارف.

مع هذا كان يقول: أنتم أصحاب العلاقة. أنا لا أفهم في هذا الاختصاص. أنا مهندس مدني ولا أعلم في الميكانيك. اتفقوا وأبلغوني.!

أيام صعبة مرت على الأستاذ عارف، ومواقف صاخبة عاشها، وقيل كلام كثير: مدحٌ وذمٌ، استهجان وتقديرٌ، استغرابٌ وشكٌ.. مع ذلك لم يكن أمام عارف إلا أن يستمر على موقفه، مع مايمكن أن يُسببهُ هذا الأمر من نتائج قاسية على المتعهد

والمشروع الذي سيتوقف العمل فيه بعد الشوط المهم الذي قطعه، خاصة في الطابق الأول ، وعلى عارف ومدير الفرع ربما .

حتى كانت تلك الحفلة التي قطعت الشك باليقين، حين قال الأستاذ لتلميذه: ما رأيك أن نلتقي في (الشاليه) حيث أنزل؟! وهل لديك مانع؟! هناك نتناقش في هذه المسألة على راحتنا بعيداً عن العمال الذين تستهويهم هذه المجالات، إما تقنعني أو أقنعك! وأعتقد أننا سنصل إلى حل سريع ومقبول.

قال عارف:

– شعرت أنه بدا عليه الاستغراب أولاً حين أعلنتُ الموافقة الفورية، والانشراح ثانياً والحيوية والحركة رغم سنوات العمر الكثيرة التي تمضي مسرعة.

وأضاف عارف وقد تم الانتصار بادية من خلال علامات كثيرة تشمل الخيبة والانكسار والأسى والرغبة في عدم التجريح وعدم الحديث:

– قالها صراحة: كم تريد لذلك..؟ قلها واتكل! ستجد بيتاً جميلاً وربما بئر ماء عذب لتزرع خضرة بلاستيكية أو بستان ليمون، أو لتفتح ورشة ميكانيك أو لتشارك، قل ماشئت! إنها فرصتك وفرصة عمرك لاتضيّعها ..! أنت مازلت في بداية حياتك الفعلية، فاحرق المراحل، ولا تنتظر الفرج من الراتب! أنصحك يابني، الجميع يعملون هذا، عندي مشاريع كثيرة لا أعرف ماهيتها كشوفها. هل تريد أن تغير كل النظام الذي أعمل به؟!

وقال عارف بغصة: قلت كلاماً كنتي أقوله لإنسان بعيد عني آلاف بل ملايين الكيلومترات أو السنين الضوئية. قلت بهدوء بعد تلاشي مفعول الصدمة: إن النوم الذي يأتيني بعد خمس دقائق على الأكثر من وضع رأسي على المخدة في دارنا تلك تساوي عندي كل شيء.. كل شيء على الإطلاق.

لو لنقل أن كل مايمكن أن أجنيه، لايعيد الصورة التي تساقطت قطعاً متناثرة من أمامي بعد أن تمزقت وانهارت دفعة واحدة. لكن صدقني يا أستاذي ستبقى أستاذي وستظل حافظاً ماقلته لنا هناك، ومئات الشهود حاضرون يشهدون! ستظل كذلك وليس لي مِنّة وسأظل أحترم شَيبتك والسلام عليكم.

* * *

القســم الثــالث

الفصـــل الأول

جاء الفرج!

هكذا حسب الزملاء والعمال في الفرع، وهكذا تمنيتُ أن يتم أو يستكمل، لكنه على كل حال حل جيد، وخلاص لاشك أني كنت أنتظره وأعتبره قد طال بلا مبرر كاف أو مقنع: خلاص من الورطة التي وجدت نفسي فيها في مشروع الوحدات الإرشادية بعد أن حدث ماحدث، وتسلم رئاسته - بلا وجه حق، أو على الأقل، هكذا مارأيته وصرّح به بعض المخلصين - الزميل والصديق..!

مشروع سكني جديد، تُسلم مهامُهُ لي: تأكد هذا حين أحضرتُ مخططاته من دمشق. وتابعت أمور المباشرة واستلام الموقع من البلدية أصولاً، وخالياً من العوائق. ونُصبت براكة مفردة لمكتب رئيس المشروع في الموقع، وبدأت أعمال الحفريات ودراسة ميكانيك التربة. كل هذا تم بسهولة ويسر حُسِبَتْ عليهما. لكن الذي لم أحسِبْ عليه أولاً: كانت الأمطار التشرينية التي غمرت الحفرة بالمياه والأوحال، واستغرق تفريغها زمناً طويلاً، لأن التربة غضارية كتمية تتحول مع المياه إلى لزجة صابونية.

وثانياً ماحدث بعدها:

تبعد أيام من العمل المتواصل بآليات مستأجرة، لأن آليات الفرع الرئيسية مشغولة بأعمال الأتوستراد الدولي الساحلي. بعد أن انتهت الأعمال الرئيسية لمسيل (الشرشار الاصطناعي)، جاء أحد السائقين من الفرع في صباح أحد الايام وقال: هناك أمر بتوقيف كل أعمال المشروع حتى إشعار آخر..!

هكذا إذن.. ومرة جديدة، يمضي الكلبُ المتحمسٌ من بين عشرات الموجودين، ومرة أخرى تنطفيء الشعلة قبل أن تُقنع باشتعالها. وأطوي جناحيّ، أو يُطويا، ليقلعا عن الطيران.

صحيح أن الفرع، في هذه المرة، لم يكن مسؤولاً، فكل الأمور تمت من قبلنا كما ينبغي، لكن، كما فهمت فيما بعد، أحد مالكي الموقع اعترض على الجهة صاحبة المشروع. وسيبقى الأمر مجمداً حتى البت في هذا الموضوع.

أما أنا فلا عودة لي إلى مشروع الوحدات الإرشادية، بل إلى قسم التخطيط في الفرع، أنتظر الفرصة التالية.. التي أرجو أنها لن تطول..

تُرى هل هو الفرع المتقوص.. أيضاً.

* * *

الفصـــل الثاني

- ١ -

كان انضمامي إلى مكتب التخطيط سبباً مباشراً في إطلاق اسم (منكوبي الفيضان) أو (ضحايا الشرشار) على عناصر المكتب، وحتى عدم حدوث المفاجأة التي أوقفت مشروع السكن قبل أن تنتهي مراسيم إيقاد شعلته لم يكن يكفي لمنع إطلاق تلك التسمية. فالعناصر الثلاثة التي سبقتني كانت من مخلفات مشروع (مسيل الشرشار) الاصطناعي أو منكوبي الفيضان. فالمهندسة نجوى كانت في القسم الغربي منه وحضرت تلك الموقعة التي حصلت هناك بيني وبين (أبو محمود) المحاسب وهي المسؤولة في مكتب التخطيط حالياً.

والمراقب جعفر كان في القسم ذاته وكان حاضراً حينئذ أيضاً.

أما المراقب شمعون فقد كان الضحية الأقدم وهو يتبع المكتب بعد أن قطعت علاقاته الأدبية مع المشروع.

في مكتب التخطيط يجري العمل بجدية، خاصة أن معاون رئيس الفرع يتابع هذا الأمر مباشرة؛ لكن العمل لايستغرق إلا أياما قليلة من الشهر. تضاف إليها أيام قليلة أخرى لتصحيح المعلومات أو لجعلها منسجمة مع الخطط السابقة والخطة العامة.

ويمضي آخر إعادة انتاج الأرقام المأخوذة من المشاريع؛ وإذا لم يتم هذا فقد يأتي توبيخ من المديرية العامة أو عقوبة.

وعملية الفَبْركَة هذه هي التي تأخذ الجهد الأساس من العمل، وإلا كان العمل هنا لايستغرق أكثر من يومين أو ثلاثة في الشهر.

في ما عدا هذه الأيام التي ينشغل فيها المكتب فعلاً، لايوجد مايلهي عن المراقبة والمتابعة والتقويم لكل مايحدث في الفرع على الورق أو على الطبيعة، إذ يأخذ هذا الأمر كل الوقت الباقي.

ولعله من حسن حظي – أنا آخر الملحقين بالمكتب – أن أكون هنا في الفترة التي من المتوقع ان تحدث فيها التغييرات الأساسية التي طال انتظارها. فمدير الفرع الجديد لم يتخذ أي موقف جديد – بَعْدُ – من أمور قديمة، ولم ينقل أحداً ولم تبدُ عليه أية نية لقلب الأمور التي كانت في عهد الأستاذ عساف المدير السابق – كما يحدث عادة وكما هو متوقع – على الرغم من أن سمات الضعف أو التردد واضحة على هيكله وقراراته؛ فقرار الالتزام بالدوام الفعلي، وعدم قبول أي قادم بعد السابعة والربع صباحاً، أو الموافقة على المغادرة قبل الثالثة والنصف بعد الظهر، لم يصمد طويلاً فكل من يأتي متأخراً أو يذهب مبكراً ويسجل اسمه في عداد الغائبين يشطب اسمه بعد مراجعة المدير. مما جعل المكلفين بالتسجيل والذين يرسلون القوائم يومياً إليه يكفون عن هذا العمل. والقرار الآخر الذي لم يصمد والذي لم يكن له

مبرر كافٍ، هو قرار منع شرب (الشّاي) أثناء الدوام وتحت طائلة العقوبة فقد انتقلت كاسات (الشاي) بصحاصاتها التي تقضّم إلى أدراج سفلى بعد أن كانت تتقندر على الطاولات، ولم ينج من هذا الإجراء كاسات مسؤولي تنفيذ القرار وعلى رأسها كأس الأستاذ رافع نفسه!

وكل القـرارات الأخـرى بمنع الزيارات بين المكاتب إلاّ بإذن مسبق، ومنع مغادرة مقر الفرع إلى المدينة إلاّ بمهمة موقّعة منه شخصياً، وتفتيش السيارات المغادرة وطلب مهماتها، وعدم اعتبار أية إجازة تنفذ مسبقاً مشروعة . كلها لم يكن حظها أكثر نجاحاً. مما ترك انطباعاً بأن شيئاً مهماً لن يحدث. وستبقى الرؤوس في أماكنها. وتنتقل الأذناب القديمة لتأخذ أمكنتها السابقة نفسها.

ولكن بعد فترة من الوقت بدا للجميع أن الأستاذ رافع يعرف ماذا يريد. ويدرك ماذا يفعل! ظهر ذلك حين خرج إلى الحياة أول القـرارات (الثـورية)! ذلك القـرار الذي أزاح الطاووس /الآنسـة هدى عن عرشه في رئاسة مشروع (الشرشار) الاصطناعي. ليس هذا فحسب، بل وسحبت السيارة التي كانت تفقأ عيون الزملاء والزميلات ورؤساء الأقسام لدى مرورها المتكرر بالمسرح داخلة أو خـارجة الى أو من الفـرع وعلى الرغم من كل الإشاعات التي تبثها عناصر موالية للحكم السابق، من أن المشروع في نهايته وأن مشروعاً هاماً ينتظرها، وأن جهـات خارجيـة ضغطت

لاستصدار هذا القرار، فإن شعوراً بالراحة لدى كثيرين كان بادياً، وشعوراً بالخيبة والخسران كان لايخفى على آخرين وخاصة الآنسة هدى، التي رأت أن هذه أحسن فرصة للاستفادة من إجازاتها المتراكمة، لتغيب عن أنظار الشامتين التي لاترحم، ولاتطيق لها احتمالاً ولا تستطيع مقاومة. لكنها بُثَّتْ قبل إجازتها بعض الأقوال والاحتمالات القادمة؛ من أن الاستاذ عساف سياتي وهي عائدة إلى مكانتها سواء عاد أم لم يعد. ولم يكترث المتحدثون بالذي حل مكانها ولا بوضع المشروع الحالي وما آل اليه وماظهر به من مشاكل كانت كافية لإيقافه مرات، وتشكيل لجان كثيرة لمتابعة ذلك. وهذا كله نتيجة المسايرة ومسك اللحى وتبويس الشوارب وغيرها مما كان سائداً في العهد البائد. بل انشغلت أحاديث الكثيرين باتصالات الآنسة هدى مع الأستاذ عساف، الذي لايحتفظ بمكانة له في المديرية، وباتصالاته المستمرة مع الأستاذ رافع المدير الحالي الذي أبدى تجاوباً، لكنه وعد بأن يتم هذا بعد حين.

أما القرار الثاني الذي جاء صاعقاً فهو تعيين حكمت ابراهيم رئيساً للجنة المبايعات. فهذا المنصب يشغل بال الكثيرين، ويدغدغ أحلامهم، ويسيل له لعابهم، ويحتل حيزاً كبيراً من أحاديث غالبية العناصر في الفرع، كل الفرع، وربما خارجه وقد كان يتردد عليه أشخاص معروفون يتناوبونه مع الأقسام الأخرى.

فأن يتسلمه حكمت الذي لم يمض على تعيينه في الفرع شهر واحد، ولم يسمع به أحد أو يعرف عنه شيئاً، أمر ليس فقط غير متوقع، بل لايمكن أن يخطر على بال أحد، حتى حكمت نفسه كما قال وصدقناه في البداية!

أما بالنسبة لي فقد حمل لي هذا التعيين بعض الراحة لأني أعرف حكمت منذ زمن، أعرفه أكثر مما يعرفه أحد غيري في هذا الفرع على الأقل، رغم أن صداقة لم تقم بيننا قبلاً، ولابعدئذ.

صحيح أن علاقتي بالقسم معدومة، وأحلامي ورغباتي لاتحوي في جداولها أي شيء من هذا القبيل، لأني لا أطمع ولا أريد ان أنخرط في ورطة الحسابات وفي بركة الأقاويل التي لاتنضب.

لكنّ إضافةً إلى ذلك فقد رأيت ورأى غيري أن التغيير في النمط – أي تغيير – هو أفضل، وهو يحمل في طياته خيراً مهما كانت نسبته! هكذا ظننت وهكذا ظن الكثيرون، لكن الذي ظهر جعل هذه التخمينات والتطمينات تتلاشى...! فحكمت موظف سابق لدى الفرع الذي كان يتسلمه هذا المدير.. موظف موثوق منه شخصياً وهو الذي استقدمه وعينه في الفرع وهيأه لهذا المنصب، وبالتالي فهما الوحيدان اللذان لايعرف إلا الله ماذا يخططان وماذا يريدان، لكن الذي يعرفه الجميع أن الاتفاق بينهما كان كبيراً رغم السرية التي أحيطت بها كل لقاءاتهما أثناء الدوام وخارجه.

ظهر ذلك من خلال سوء العلاقة بين هذا القسم وكل الاقسام الأخرى، والتي كان عمل بعضها يكمل عمل هذا القسم، كقسم الإمداد مثلا حيث اعتبر متعهدوها أن غريباً حل بينهم فجأة، وبدأ يلتهم أطيب القطع وأغناها بالغذاء، في هذه المائدة التي كانت مرتعاً خصباً يتبادلون فيه الكراسي، كما في لعبة الكراسي الموسيقية، ويتضاحكون باستمرار. كما أن حكمت أحجم عن الرد على طلبات أحد إلا بموافقة خطية من رئيس الفرع وفيما بعد صارت هذه الموافقة الخطية لاتعني شيئاً. والأمر الذي أثار استغراب المتابعين والمهتمين والمراقبين وغير أصحاب المصلحة في ذلك أن يَرضى مدير الفرع ان ترمى موافقاتُه عرض الحائط، أو تتعرض للتمزيق أو الرمي في سلال المهملات. إن كان على مرأى من المراجعين أو بالنتيجة التي يحصلون عليها. وقد علم فيما بعد نتيجة تسرب أخبار ممن حضر مصادفة، أن الأستاذ رافع يكتب الأمر الخطي والموافقة الصريحة ويسلمها الى طالبها الذي يغادر المكتب مسروراً مسرعاً، لكن سرعته لاتكفي لاستباق الاتصال الهاتفي الذي يجريه الأستاذ رافع مع حكمت يقول له: لاتعطِ فلاناً، أو لاتلبِّ طلب فلان. وأحياناً تكون الأوامر مرة واحدة ولها مفعول استمراري.

بعد هذا صارت تُفهم مدى جدية الموافقات الكثيرة التي يوزعها يميناً وشمالاً على كل من يراجعه، وفي كل الأمور! خاصة

حين تتناقض مع بعضها وتتقاطع مخلّفة حيرةً وخيبةً وأسى، مع ماكان يُسْمَعُ من كلام جارح وسباب وشتائم يطلقها الذين وتختفي كلها حين المواجهة لتحل محلها ابتسامة عاجزة عن الإقناع، ونظرات لاتريح ولا تعطي أي مبرر للأمان ..

❊ ❊ ❊

- ٢ -

في مكتب التخطيط كان يمكن انتظار قدوم أي مشروع جديد براحة أكثر دون خوف من أن يسرقه أحد، كما حدث قبل ذلك. فديوان الفرع يجاورنا، ورئيسه يخبرنا بما يرد إليه أولاً بأول، ليست هذه أريحية بقدر ما هي من أساسيات العمل: إذ أننا سنعد جدول أعمال مجلس الفرع الشهري وستضمنه العقود الجديدة، لمناقشتها وتحديد من سيستلم أمر تنفيذها. فلابد أن تمرج إلى مكتب التخطيط أولاً عن طريق معاونه رئيس قسم التخطيط، المسؤول المباشر عن مكتبنا، والذي عاد إلى الفرع بعد تدخل أناس لهم قيمتهم. وبدا كما لو أنه بدأ يأخذ شيئاً من صلاحيات في هذا العهد الجديد وهو يكن للمكتب كل احترام وتقدير، على الرغم من بعض الإشكالات التي تحدث قرب انتهاء

موعد تقديم الخطة الشهرية وإرسالها إلى المديرية العامة. وكان قطعا – هو والأستاذ رافع – وعداً بأن أي مشروع جديد سيعهد أمره لي: ولوا ليس عندنا أشغل منك ولا أهم!

مع هذا فقد كان الاطمئنان يأبى أن يحل، بل الذي يروح ويجيء ويتردد هو الخوف القديم الذي يسمى تواضعاً. قلقاً، والخوف الجديد لأن وعوداً كثيرة تنسى، أو أوامر عديدة تستبدل في برهة، فمن أين لعيني أن تقرأ. ولتفكيري أن يهدأ أو يأمن أو يرتاح؟!

•

دور المهندس الاحتياط دور هزيل ومخجل، بأهمية قليلة أو معدومة لدى معظم العاملين في الفرع. فماذا يعني وجودك الدائم بين المكاتب كالإداريين الذين لايختلفون عن مجموعات من النسوة على التنور: الفول، وثرثرات ودسائس.. وهو دور لايتعدى الدعوة لمرافقة وفد ضيف، أو بعثة تريد الاطلاع على مشاريع الفرع – وما أندر هذا – أو لاستلام مواقع لمشاريع وأبنية ثانوية مبعثرة؛ كما حدث عند حضور لجنة من الموانئ، لتغيير موقعين لمخفرين ساحليين، بعد أن تبين أن احدهما يعيق منشأة سياحية متوقعة لأحد المتنفذين، الذي قدم واصطحبنا بسيارته لاختيار موقع

جبيل، بعد إبراز وثيقة تثبت أنه وصل إلى أناس بأمرين وينهون ولازاد لطلبهم. بعدها عرجنا للاستراحة في مطعم وفندق شهير في هذه المدينة حيث مكثنا وقتاً. وفي تلفاز الفندق ذاته - وكنت أبحث عن شيء إضافي أخسره - كان المنتخب الوطني لكرة القدم يخسر بالثلاثة أمام منتخب شقيق سمين...!!

- ٣ -

ملعبٌ يدل عليه لونه الرمادي الخالي من الشجيرات والأعشاب الكبيرة التي تنتشر على أطرافه كلها، فسحة من الأرض ليست منتظمه الأبعاد، ولا قائمة الزوايا ولا مستوية. وليس فيها تراب أو رمل كما في الملاعب المعروفة. ناهيك عن العشب الطبيعي أو الاصطناعي! لكنها صخور تظهر وحصى تتناثر، وحجارة تصطف متجاورة بلا انتظام أو استقامة، لترسم الحدود التي سببت الكثير من المشاكل والشجارات والتوقيف للعباريات الودية والرسمية، المحلية والخارجية!

«ملعب» اسم فضفاضٌ عليه. ولايمكن أن يتخذ مشروعيته لولا السيقان الكثيرة التي تتراكض فوقه، والكرة المسكينة التي تحتار، أين ستستقر أو كيف تتجه؟ فإذا وجّهتها قدم ماهرة غيرت وجهتها حصاةٌ. وإذا سلمت من ضربة رأس خجولة بددتها كيفما

اتفق قدمٌ بحذاء مشوّه. وهذا من حسن حظ اللاعبين الذين يجدون المبررات دائماً لعدم التهديف أو الدقة في التصويب أو الدفاع أو المحاورة: فهي إما الحصى الكثيرة أو الحذاء الواسع أو الممزق أوهو الهواء الوفير في تلك الهضبة التي لاتعلوها إلا هذه القمة السامقة. الأشكال القزمة تتحرك فوقه، صياح وسباب، تصفيق وعناق وقفز أحياناً.

كل هذا يجري على حدود الأشجار الكثيفة التي تحيط بالمقام الأخر مُستحمث الجاد والقيمة. حيث يقتعدُ أفياءها العمودية متفرجون كبار وصغار يرقبون باهتمام مايجري ويتابعون الكرة التي فقدت ألوانها، منتظرين بلهفة دخولها بين الأخشاب التي كانت إلى وقت قريب شجيرات صنوبر أو سنديان، كثيراً ما تنقصها الاستقامة وانتظام الشاقولية، فهي تساعد حيناً على تسجيل هدف حين تنثني إلى الخارج، وتعيق حيناً آخر هدفاً محققاً في مكان انعطافاتها إلى الداخل. وكم تتعرض للشتائم، كما هي حال الحصى والهواء والأحذية وعارضتي المرميين اللتين هما حبال موصولة عدة مرات، وبألوان وسماكات قد تختلف، وقد لاتسمح بالتمييز بين دخول الكرة تحتها أو فوقها، إلا لمن يكون قريباً جداً من المرمى. مما سبب خصومات وإشكالات، يعرّض من يتجشم عناء التحكيم ويحمل أوراقاً صفراً وحمراً وصافرة مبحوحة إلى أخطار رهانات لاترحم.

تسرقني متابعتهم مما أنا فيه، وأغرق في المراقبة والتحسر: منذ سنوات قليلة كنت بينهم، وكنت ألبس ثيـاباً بلون ثيـابهم الحمر، أصائل كثيرة قضيتها هناك، وأوقات مهمة مرت وأنا ألهث وراء هواء مضغوط يستعصي على الامتلاك. عرق غزير يتساقط بجهد كبير يبذل، وأيام تمضي، وأقاويل تُلقى سراً وعلانية، وملاحظات جارحة: «أما كبرت يا حسان؟! هذا الفعل للصبيان، ألا تخجل من جريك مع هؤلاء الصغار والمراهقين ؟! انظر مع من تلعب، انشاء الله تلعب قريباً مع أولاد من هم في عمرك..! ألا تفكر في حالك أبداً ؟! ما العتب إذاً على الأولاد الصغار؟! اذا كانت الكرة قد جنّنت الرجال المتعلمين وأنستْهُمْ همومهم ومشاكلهم ومستقبلهم!».

ماذا أقول لكم يا أهلي؟! كيف أشرح لكم عن المتعة التي أحس بها وأنا أسجل هدفاً؟! أو أناور بالكرة! أو أسددها كما أريد!

أقدر مشاعركم، وأعلم أنكم على حق فيما تقولون ولكن ما أقوم به جميل ومفرح ومثير، انظروا إلى العالم المجنون بالكرة، المنشغل بها أكثر من أية قضية احتلال، أو اغتصاب، أو تصحّر، أو تلوث، أو ثقوب أوزونية!

أخبارها لاتنقطع وكذلك احتفالاتها وسباقاتها. يراها العالم كله، وتُفضّلُ على ماعداها، وفرسانها معروفون أكثر من كل مناضلي العالم وقادة حركات التحرير، وقادة الفرق والعدوان،

وعلماء الذرة، والمكتشفين الذين حصلوا على جائزة نوبل أو الذين ينتظرون توفر الشروط اللازمة لذلك..!

هل الكرة هي المجنونة أم العالم هو المجنون...؟ لِمَ هذا الولع وهذه الطقوس الكونية، وهذه اللغة الواحدة وهذه الإثارة والمتعة؟! لماذا نتخاصم ونتشاجر ونتجادل طويلاً حول شؤونها ولِمَ نتبنى فريقاً دون فريق، ونراهن ونفرح بجنون إنْ ربحَ، ونحزن ونكتئب إنْ خسر؟! ولِمَ ننتشي إن دخلت تلك الكرة الحائرة المرمى؟! بأية طريقةٍ كانت. وكلما كان الوقت صعباً أو الاحتمال أقل كان الهدف أغلى وأمتع! هل لأن للكرة شكل للكواكب والنجوم التي تدور في الفضاء، أو في الذهن الغريزي ولاتتوقف..؟!

وهل السيطرة عليها وإن كانت سيطرة مؤقتة، هي الإمساك بالسر الكامن وراء هذا الدوران السرمدي؟! أو هي تعويض عن العجز تجاه هذه الظواهر الكونية؟! وهل هي تنفيس عن رغبات تكدست في لاوعينا؟! تدفعنا للابتهاج بتحقيقها مُشوّهة أو مُقزّمة أو مُوهومة..!

أم أن الشكل الدائري هو أكثر الأشكال قلقاً وعدم استقرار!

تضاف إليه قابلية القفز الكبيرة، لتزيد من قلقه وقدرته على الهروب والحركة. لذلك تكون السيطرة عليه تهدئةً أو تَطْنَطةً أو تسديداً وتوجيهاً، نصراً محققاً متعدد الحالات والألوان. وهل هو اختراعُ منافسةٍ أو سباقاتٍ أو اختبارات للحصول على فوز يطفيء ظمأ الروح، ويرضي تحتاجه في سعيها المستمر المتعثر؟!

بعض الناس يقامرون بثمن أو بلا ثمن، وبعضهم يتبارزون، وآخرون يصطادون، أو يختلقون معارك مع سواهم، يحتلون أراضي الآخرين، وحين لايجدون من نجاحهم جدوى أو يعجزون عن الفرح يتخاصمون مع أنفسهم ويخلقون عقبات يوهمون تجاوزها،، أو يتبنون فريقاً من المتخاصمين علناً أوسراً، ولهذا يتقاطر المتفرجون على المعارك والمشاجرات والمسابقات أياً كان نوعها: يشجعون ويحمسون ويحرضون. وقد يكتفي بعضهم بمتعة التفرج دون اعتبار للنتيجة، وآخرون ينتشون بالفوز، أو يكتئبون للخسارة. ألهذا يجمع العالم على كرة القدم؟! الكبار والصغار، الرجال والنساء الحكام والمحكومون، الغاصبون والمغتصبون؟ القادة والعلماء والجهلاء والحمقى والذين لاحول لهم ولاقوة.

كرة تُخرج الآهات الدفينة، وتعلق الآلام على المشاجب، تؤجل الكلام تزفُ الانتصارات وتوزع المتعة. وقبل هذا وبعد ذلك تزيَّنُ الانتظار باللهفة، وتخفف من مرارته، فيصبح ممكناً. وتجعل الوقت يعبر بسهولة ويسر..!!

❋ ❋ ❋

– ٤ –

أربعة أشهر من الزمن الميت كافية لمعرفة كل مكاتب الفرع وزوايا مقره، والاطلاع على كل ينابيع الفرع ومصارفه! مشاريعه وكشوفها وأعمالها المخططة والمنفذة ومشاكلها ومشاكل عناصرها

وخلافاتهم مع بعضهم البعض ومع العاملين في المقر، وسمعة كل منهم وموقعه لدى العامة والخاصة في قيادة الفرع.

أربعة أشهر كافية لشم كل الروائح التي تنطلق أو تعبر، نتنها وعطرها، واختبارها ومعرفة مصادرها وغاياتها.

أربعة أشهر شتوية تكفي لمعاينة الفرع بمنشآته وبراكاته وساحاته غير المسواة باتنظام يغص بالمياه حتى يكاد يختنق. مياه قائمة من كل الاتجاهات يمكن متابعتها من فراغات ألواح الخشب المصلوفة جوار بعضها لتشكل الأرضيات، أو من المياه المتسربة من الأسقف من ثقوب الصاج الذي يغطي خشب الأسطحة تماماً. كما كان يغص بالرتابة والثرثرة والعفن والحشرات. فراغ قاتل، وأحاديث وتفاصيل تافهة وملل مقيم ونوم متقطع قلق، ورغبة بالقيء لاتنتهي. كان يساعد على مقاومتها كونها مؤقتة.

هذا ماوعد به رئيس الفرع، رغم الشحوب الذي يصطبغ هذه الوعود. ومن هنا كانت امكانية متابعة كل الاحتمالات القائمة من مشاريع قيد الدراسة وأخرى قيد توقيع العقود، وثالثة ستقلع بعد توقفها وكان الانتظار الصعب سبيلاً إلى اكتشاف مهم هو أن هذا الفرع لايختلف كثيراً عن أية براكة من براكاته الكثيرة المتناثرة: فلا أرضية ثابتة، ولاجدران قوية متينة ولاسقف آمناً وهذا ماجعل الشعور بالغيبة يقيم.

لم يخفف منه أول مقطوعة شعرية ظهرت في إحدى الصحف الهامة، إذ لم يُعِرْ هذا الأمر أي اهتمام أو متابعة، بل لم ينل ممن رأوه أو أخبرتهم سوى هزة بالرأس أو رفع الحاجبين والضحك الواهي، وكلمات إطراء لاتعني في الحقيقة شيئاً.

*

الأدب، كيف ظهر الآن؟! وكيف أصبح ملاذاً وملجأ وشاطيء أمان عزيز؟! هاجسٌ بدأ منذ زمان قديم، زمان غارق في الظلمة والتراب والدخان والأخشاب وروائح الماعز والتيوس التي تطفيء نيرانها بأفواهها، ومواء القطط التي تتزاوج بطقوس مثيرة معلنة. زمان غارق في الخوف والطوفان والمسافة والمطر والبرق والرعد. هاجسٌ تسلل إليّ خلسة وألح. تجاهلتُ وألح، فطاوعت قليلاً، ساعدتني أوهام عشق صبياني، وعيون تشرق في الضفة التي لاتقترب!

وطعم مرّ لايكاد يبرح فمي، يتقاطر أحياناً على ورق أعد لمسائل وألغاز ورسوم وواجبات مدرسية. سرَقَ منها صفحات وأوقاتاً كانت تكفي لزيادة معتبرةً في أرقام النتائج النهائية. لكنه لم يبخل بأشياء محرومٍ منها: المتعة والعزاء والجدوى..!

هاجس ضاع مني، لكنه رغم إهمالي له ووضعه في أقل الأماكن أماناً واهتماماً، كان يصر على البقاء والإطلالة البهية في

أوقات مختلفة وساعات عادة ماتكون درجات أولى في سلم اليوم الجديد. خاصة أيام الشتاء طويلة الليل. أيام المشاريع والبرد والجوع والوحدة والاكتئاب.

كاد يضيع بعدها. فبالرغم من الوقت الطويل الخاوي الذي يسمونه ساعات عمل. والذي كان في مشروع - الشرشار - لم يكن عندي أي استعداد للقراءة أو الكتابة، فقد عادت سياط عدم الجدوى تنهال على جلدي، وضاع الوقت والهاجس فيما بعد، إلى أن أطل برأسه ووضع عينيه في عينيّ، وقال:

أنا هنا.. لازلت حافظاً عهدنا القديم ياحائر المجداف والريح والجهات.. وها أنا أنتظرك فلا تتأخر!

* * *

- ٥ -

لم يكن كلامهم لسعود أمامي عرضاً، بل كان يشغلهم هذا الأمر لدى كل من صار في المرمى؛ أي كل من أنهى مراحل مهمة من حياته الأولى ويحق له التفكير بالزواج. وهم يفكرون عنه إن أراد أو لم يرد... ويوغلون في البحث عن الأسباب التي تركته عازفاً عنه أي فترة.. وقد يرشّون حوله أسباباً جاهزة أو ملتقطة من عمق أحلامه في لحظة اعتراف أو خشوع خصهم بها، كما يدّعون.

كل شيء يجب أن يتم بحسبان، إذا كان الأمر بعيداً عنهم؛ فعليٌ متعلم ومن عائلة معروفة ووسيم كيف إذن يزور بيت سعاد غير المتعلمة؟ وهي ليست ذات جمال! كل ما في الأمر أنها مرحة؟ وتتحدث بإتقان وتتصرف بلباقة؟ هناك عشرون فتاة تتمناه، حرام أن يضيع حياته معها..؟

أما تلك الحمقاء ندى المتعلمة الجميلة فما الذي يعجبها بتيسير الذي لاخَلْقهُ ولاقَدُامه؟؟! تجاربه العديدة؟؟ حركاته التي لاتهدأ؟! أم طوله الفارع أو الشهادة التي ما اقتنعت بالاستسلام له" لكنه مقاتل شرسٌ هكذا يقول، ولا يتحدث إلا عن بطولاته التي مازالت وحدها المسيطرة في زمن ولّت معه البطولات الفردية.

أما حسان، فأمره عجيب:شاب لاينقصه شيء ويستحق أحسن فتاة، ولايوجد هنا من تليق به فكيف يذهب إلى بيت الجردي و (فتاة) ليست من مستواه ولا أهلها. وقالوا: إلى أين يذهب في قرية العيصرة؟ إلى بيت الشمالي؟ في المصلّبة أفضل منهم بكثير، أو لأن (القريب أحْلى)..؟ وقالوا لا، هناك مهندسات في الوظيفة، رأيناه في سيارة واحدة منهن! وقال فيها المحبون كلاماً جميلاً لاتستحق، وقال من يزعجهم هذا الأمر كلاماً لايليق بها. وقال الأقربون الخالون من الاحتمالات والرغبات: يوجد في الوظيفة كل متعلمة مثل فرس (أبو زيد)! وقال الخائفون: يجب أن يأخذ من ثوبه ومن لحمه ودمه! كلام كثير بدأ ولم ينته، كل مرة في

اتجاه، وكنت أضحك ولا أرد على أمي أو أخوتي أو مسعود أو كل من يتحدث.. أو يهتم.. فهل كنت خالياً مرتاحاً؟ ألاحظ الخيالات خلف النوافذ في البراكات القاتمة ترقب الضوء الذي يمكن أن يأتي من خلال هذا الرماد المخيم ولا أهتم؛ أو ألمح الأشباح العالقة على الأسطح أو الفرندات أو المفارق أو الطرقات، ولا يختلج قلبي بشكل مغاير؛ ألتقط التعليقات التي تختفي وراءها ألف رغبة واحتمال، وأشيح بوجهي؛ وأهرب من طيور محلقة يمكن أن تحط ولا تحط. أنتظر فوق الربى والتلال، وفي الوديان، أبحث عن وجه عالق في العمق أو ضائع في الزرقة يقذفني في بحيرة مسحورة، فأختنق من الجمال والفرح أو أكاد، وجه خليق بمعتب مزمن، تعب سرمدي ومعلق يقتات الضوء الكابي والهواء المعقم، وجه يشبه شجرة الخلود، ويعيد التفاحة أو دم هابيل أو يحاول.. وجه لم أسمع عنه أو ألمحه.. ولا أعرف تماماً إن كان موجوداً! وجه يخترق الغيوم الداكنة العالقة بين السماء والأرض دون هطل أو انقشاع، ويخترق الأرض إلى أعماق نارية مجنونة.

وجه لا أظن أنه سيأتي لأنني لا أعتقد أنه قد وجد بعدُ وأشك في امكانية تكوينه أو الرغبة في ذلك.

مع ذلك... فأنا أنتظره بفارغ الصبر..!

* * *

نهارات الشركة وأماسي المصلبة، صورتان لهيكل واحد لوحتان بمعنى متقارب، حكايتان بمغزى مشابه: لكن يرويهما شخصان مختلفان، قد تتمايز التفاصيل قليلاً، وتتغير الأسماء: لكن القصتين تنتهيان النهاية نفسها، لدرجة يمكن أن يكون لهما العنوان ذاته.

فالمصلبة لاتنكر من تاريخها سوى ذلك الصعود المضني من أسفل السفح الى قمم الجبال، أو من العتم الى الضوء، من التراب والبراغيث والأخشاب الكالحة (والدلف) والأحجار التي تتنافر في جدرانها واللصوص إلى البيوت الاسمنتية الحجرية المنتظمة الآمنة والنوافذ المدهونة والأبواب التي تنقسم إلى أجزاء.

والشركة تتباهى باسمها، وبأنها تقوم بما كان يقوم به أناس دون شفقة على الوطن والمواطنين. سواء أكانوا ينتمون إليه أو آتون من الخارج. فقد كانوا كلهم يهرعون فاتحين أشداقهم ضاربين بكل المصالح العامة عرض الحائط.

وقد نسيتْ في حمى الانفعال والرعونة والتسابق مع أترابها، أن تؤمن لعناصـــرها المأوى الآمن أو الأجـــر الكافي أو ربما اعتبرت ذلك غير مرة تضحية وأريحية تضاف إلى سجلات الأعمال الطوعية وشهادات حسن السلوك والسيرة والسمعة

الطيبة. نسيت أو تناست أن تترك لمناصريها برهة لالتقاط الأنفاس بعد أن اصطادتهم بسهولة نادرة فور عودتهم منهكين مذعورين من لبنان الغارق في القتل والدم. أو تدع لهم فرصة لإعادة الحسابات والتوقف الكافي للتفكير بالأوضاع الجديدة التي وجدوا أنفسهم فيها جميعاً. بعد أن أفاقوا من الحلم الذي ظنوه جميلاً رغم ماكان يحمله من فترات كابوسية أقلها الغربة وأكثرها الذل والإهانة. لم تترك الشركة ومثيلاتها اللواتي تكاثرن بسرعة، فسحةً لزيارة الأراضي التي بارت في المصلّبة وغيرها، وتسلق اليباس وعين الطاووس زيتونها، وضاعت دواليها في الفضاء بعد أن عجزت الأغصان عن تحمل جموحها الذي لايُحد، وخلت، أو كادت، القرية من أصوات البقر أو الماعز أو الأغنام أو الدجاج؛ اصطادتهم بعد أن تشوهت معالمهم وتغيرت ملامحهم وتحورت أحلامهم وحفظوا مواقف الاستسلام والانقياد وراء رنين يأتي في وقت معلوم. وبستر آخرة مخيفة تقترب. بدل أن ينتظروا من أجله المواسم والأمطار. فغاصوا في الوحل بعد أن خرجوا من الرمل المتحرك بطرق لم يصدقوها هم أنفسهم، حاملين أجسادهم وتاركين خلفهم جني العمر وتعويض السنين التي لاتعوّض.

والمصلّبة نسيت في خضم العمران الاسمنتي والتمدن الذي هو كل ماجاء به المهاجرون أو أرسلوه، أن تزرع الورود أو تحمل كثيراً من الأشياء الصغيرة والعلامات الفارقة والوشمات

والسلال والزوادات التي تركتها في السفح، أو طوّحت بها إلى الوادي، لأنها تعيق الصعود الذي يجب أن يكون مواكباً لروح العصر.

هذه الروح التي تعلموها من هناك، من معايشة الشعوب المتحضرة والجنسيات المختلفة؛ يسمونها معايشة لكنها في الحقيقة أقل من ذلك بكثير إذا كانت هذه الكلمة تعني المساواة أو المقاربة أو المعاملة الند للند.

وليالي المصلبة خلت من قصص الكروم وحكايات المواسم، واستبدلتها بأخبار (المعلمين) و (الباكوات) و (الخواجات)، وقصص الأغنياء والملاهي في لبنان، التي غرقت بها سنين طويلة ثم هاهي تتسلى الآن بأحاديث عن المهندسين والأساتذة والسائقين والمشاريع والسيارات.

ثرثرة في النهار واجترار في الليل، حتى أصبحت نساء القرية يعرفن كثيراً مما يجري في الفرع من تطورات وأحداث ومشاكل.. وليس مُستبعداً أن تسأل إحداهن عن منيرك وعلاقاته المشبوهة، أو متى ستستلم سيارة كفيرك..؟ أو لماذا لاتنفذون مشاريع في المصلبة كما اشتغلتم في غيرها.

تشوهات كثيرة وعناصر جديدة، حواس ضمرت وأخرى تضخمت أو نبتت من جديد.

في الفرع تتناوب العلاقات بين موظفاته وموظفيه كما في المصلبة. علاقات مشروعة وأخرى غير مشروعة، انفرادات

ولقاءات خلف أبواب مغلقة ومشاوير تتعدى ضرورات العمل ومصلحة العمال.

وفي القرية علاقات متعددة بين ذكورها وإناثها تتجاوز حدود القرابة أو الجيرة أو الإلفة.

وكما لاتخلو براكات الفرع المتواضعة ومنافذه الراهنة من حالات انتظار ندي، أو نظرات كئيبة شاردة أو كلمات خجولة.

كذلك تتناثر في أماسي القرية حالات الترقب وانتظار الخطى أو الأشباح التي لاتكاد تنفصل عن هيكل الليل الجاثم بثقة وعناد غير عابيء بأضواء لازالت تعتني ببياناتها المستحيلة.

المصلبة والشركة:

ضفتان تسيران متجاورتين تحصران مياهاً آسنة لايمكن تقدير عمقها، لكنها في أي حال لاتوحي بالأمان. وهي تحمل في مسيرها المزمن أشواكاً وجذوراً وقطع أغصان مبعثرة وحجارة متهارة وهياكل لأحياء ممزقة وجثثاً متفسخة.

ضفتان لاثالث لهما فإلى أيهما يلتجيء الغريق؟! يتمسك بحجارة إحداهما فتسقط معه أو عليه. يعود إلى الأخرى فتنزلق التربة به ليزداد عكر المياه ويزداد تهديدها.

الشركة والمصلبة:

حبلا غسيل تتناثر عليهما قطع الأحلام التي تمزقت من التأرجح المزمن والهواء القلق حدان يحصران مداراً مُسجي،

يتدحرج فيه كوكب صغير. ينظر إلى الفضاء البعيد أملاً بحدوث معجزة كونية كبرى أو سقوط نيْزك جبار يعجل انطفاءه الى أن يصل إليه. أو انفجار هائل يعيد ترتيب المدارات أو بعثرتها.

وحتى ذلك الوقت الذي لايجد إزاءه إلا الأمل والانتظار.. يقضم ذاكرته، يجترُّ الأحداث التي ليس لها إلاّ طعم المرارة أو الحموضة، يتدشأ اللحظات يقذفها بعيداً، فتعود لِتصدمه في رأسه وأماكن أخرى كثيرة من جسده الذي لازال - كما يبدو - يتسع لمزيد منها..!!

- ٧ -

حين وصلت العقود الثلاثة لمشروع صالات التخزين، حصلتُ على موافقة سُجلتْ في محضر اجتماع الفرع الشهري، بأن يعهد تنفيذها إلي تحت اسم مشروع واحد، مع مساعدة لاتخفى من معاون المدير. ومع هذا ورغم كون هذه الموافقة تمت أمام أكثر من عشرين مسؤولاً في الفرع، وسجلت في محضر الاجتماع، فقد تعرضتْ للاهتزاز والتأرجح والتفتيت إذ أعطيتْ وعود أخرى لآخرين، أخطرهم الآنسة هدى التي ستستعيد شيئاً من مكانتها وسمعتها بعد تناثر أخبار عن اقتراب الأستاذ عساف من المدير العام الجديد أكثر، وقرب تسليمه مركزاً مهماً.

وحاولت أن أستبق الأمور وأسرع من استصدار أمر المباشرة، فتتالت المراجعات للجهة المستفيدة، ثم ذهابنا معاً الى البلدية رئيسها ورئيس مكتبها الفني لمتابعة الميدانية لمواقع المقرر إعطاؤها. وكم تعددت هذه المواقع. وكم تعرضت للتغيير والاقتطاع، أحدها كان قد حفر وأجريت له دراسة التربة وتبين أن الموقع غير ملائم.. اقتصادياً.

وقد شعرت مرات باليأس حين يقولون في البلدية: اذهب إلى ذاك الموقع! وقد يذهبون معي ويدلوني على حدوده. لكن حين أطلب منهم استلاماً أصولياً يتراجعون ويرفضون.. لماذا؟!

– لاتوجد نقاط نهائية أو حدود ثابتة!

– وكيف سنباشر إذن؟!

– نحن نقول لكم هذه الأرض خالية، يمكنكم البناء فيها ولا أحد يعارضكم. أما أن نثبت هذا الأمر خطياً فهذا غير ممكن!

ولم تقف العراقيل عند هذا الحد، بل إن بعض هذه المواقع لايتسع للمخططات التي تضمنها العقد، إذ لم يتم تفصيل البناء وتخطيطه حسب الأرض المتوفرة، إنما صممت المخططات لأرض أخرى في مدن أخرى ونفذت هناك، ويجب أن تنفذ بالمقاييس ذاتها هنا..! ولابأس أن يُستغنى عن جزء شرقي أو شمالي، أو زاوية جنوبية، أو إلغاء الباحة واختصار السور..!! لكن لحسن الحظ، أمكن إيجاد أرض تتسع لمبنى صغير منفصل. هو أصغر

الأبنية الثلاثة وأقل العقود الثلاثة. مع هذا فقد كان أمراً جديراً بالمتابعة المستمرة كي يترجم قرار تسلمي المشروع عملياً؛ قبل أن تهب رياح إعصارية مجهولة، لكنها متوقعة في أية لحظة.

المهم أن تُنصب براكة، وتنصب لوحة كبيرة سوداء مكتوب عليها بخط زاه مخضر:

وزارة.....

الشركة العامة للمشاريع الهندسية

مشروع صالات التخزين

القسم الأول....

قيمة العقد...

مدة التنفيذ...

وهذا ماتحقق... أخيراً..!!

* * *

القسم الرابع

الفصـــــل الأول

- ١ -

ما أن بدأت أعمال الحفريات بهمة عالية في الجزء الأول من المشروع، حتى رفعتُ كتاباً إلى مدير الفرع أبين فيه حاجة المشروع ككل لليد العاملة التي تشمل نجاري البيتون ومساعديهم والحدادين والمال، وفق خطة موزعة على مدة تنفيذ المشروع الواردة في العقد، ومردود كل مهنة حسب ماهو معمم في جداول معتمدة، وبما أن أمر المباشرة لم يأت إلا فيما يخص هذا القسم فقد أوضحت الحاجة الحالية فقط.

طلبني السيد المدير بعد أن كتب على الطلب المرفوع بخط أخضر: ينفذ من قبل المتعهدين! وقبل أن أبدأ الحديث بادرني بالقول:

- بالنسبة لمشروعك اعطه لمتعهدين من خارج الفرع، العمل المطلوب تنفيذه كبير ولايوجد خشب في السوق ولا في مؤسسة التجارة الداخلية، وخشبنا كله مطلوب وموزع على مشاريعنا التي لايمكن أن تستغني عن أية كمية منه.

اطلب متعهدين! طبعاً هم ليسوا متعهدين، هذا الاسم يغش، هم نجارون مع خشبهم وحداديهم. أما أعمال الصب والمواد

المطلوبة وتصنيع الحديد وتأمينه والحفر والترحيل وتجهيز الورشة فكل هذا يمكننا القيام به.

قلت مستغلاً توقّفه الرد على الهاتف.. وقبل أن يستأنف كلامه:

– يا أستاذ رافع نجارونا وحدادونا يعملون كعمال لعدم وجود عمل لهم، إن العمل الجدي في المشروع لم يبدأ بعد. القسم الأول فقط يمكن الإقلاع به، وهو صغير ولايشكل سوى عُشْرِ المشروع كله. فلنبدأ به على الأقل بعمالنا ثم نرى ماذا يستجد من أحداث، فقد تنتهي ورشات أخرى، نستقدمها أو نستفيد من خشبها وعمالها.

– لا، لاداعي لتشتيت الجهود وبعثرة الامكانيات. نبدأ بداية واحدة، وبخطى ثابتة، والمشروع متكامل وأنت لست غريباً عن هذا الوضع، ألم تكن الطريقة متبعة في مشروع الوحدات الإرشادية ونجحت..؟!

– نعم طبقت في ذلك المشروع، ولكن الوضع هنا يختلف كثيراً هناك وحدات متعددة كل منها في قرية، قيمتها صغيرة، وليس من الممكن تأمين نقل العمال إليها ذهاباً وإياباً. إن هذا كان سيسبب كلفة كبيرة غير منظورة في العقد. لقد كانت حلاً خاصاً بالمشروع وليست طريقة مكفولة النجاح، أما هنا فالمشروع داخل المدينة وقربهُ مشاريع كثيرة يقوم الفرع بتنفيذها، والعمل مركز في نقاط ثلاثة لايفصل بينها أكثر من نصف كيلومتر. ويمكن الاستعانة، عند الحاجة بأية ورشة، أو عامل، أو نجار، من أي مشروع قريب ويمكن المناورة بين المشاريع بسهولة.

- لا، لانريد أن نقع في إشكالات ونعرقل عملاً لتنجز آخر. كل مشروع مستقل له خطته وحاجاته وإدارته، وإذا حصل تداخل ستضيع (الطاسة) وتغيب المسؤولية. لكن الغريب أني أراك مهموماً بشأن المتعهدين..! لاتخف ولاتخشَ شيئاً. عندي تجارون معتازون (كابو جابر) مثلاً. إنهم خبراء، ويلحون عليّ منذ زمن.. ويمكن الاعتماد عليهم. اذ أني (أمونُ) على أي منهم، في السعر والوقت والسرعة، أمس راجعوني وقلت لهم أن يراجعوك. طبعاً هذا لايعني أن لي أية علاقة بهم. لا أبداً، أنت المسؤول الأول والأخير. وأنت من يشرف عليهم ويرفع كشوفهم، لكن لاتشد يدك كثيراً فنحن في حاجة إلى جهودهم ولن يسببوا لك أي إزعاج. وأنت عليك أن تفتح لهم جبهات عمل، وأن لا تعرقل عملهم، وأرجو ألا تحرجني معهم أيضاً. هم أصدقاء، وأنا وعدتهم! يمكنهم توقيع العقد حسب الأسعار المتفق عليها في مثل هذه الحالات، اكتب العقد بنفسك، وأنا واثق منك وموافق على ماتقول.

عرّجتُ على مكتب معاون المدير بعد خروجي، وقال حين رآني: مابك؟! أراك مكفهراً، هل تشاجرت مع أحد؟! بماذا تشعر؟! بالخوف؟! بالمسؤولية؟! مهلك يا أستاذ ياجسان ليس لك في القصر إلا من (امبارح) العصر..! اترك حصة لما هو قادم، لعله أمرُّ وأدهى..!

- هل هذا معقول يا أستاذ؟! اللقمة الهنية صهلة التناول نقذفها بأيدينا إلى أفواه غريبين؟! هل نسيتم وضع الفرع المالي؟! نحن نحتاج إلى أي جهد ذاتي يوفر لنا سيولة ما.. ثم من أين سندفع لهم؟!

هز المعاون رأسه وأطرق ملياً ثم قال: «من يعرف يعرف ومن لايعرف يقول كف عدس» مايهمك أنت؟! لماذا تحمل السلم بالعرض؟؟ قال لك المدير ذلك، افعل كما قال لك، وكلٌّ مسؤول عن قراراته. ولكن عليك بالحذر والانتباه أثناء توقيع العقد، لاتترك أية ثغرة يمكنهم التسلل منها وتبرير تقصيرهم أثناء التنفيذ. إذا ما احتجت شيئاً، أي شيء اطلبه مني سواء أكان عاملاً أو فنياً أو مادة أو آلية، أؤمّنهُ لك على الفور، طبعاً حسب الامكانيات.. هل هذا يريحك؟!

(أفرد) وجهك، وانزع الغيوم السود من أفقك..! وخذ! هذه نماذج من العقود اقرأها جيداً لوضع الشروط التي تراها مناسبة والأسعار المحتملة! حدد كل شيء بنفسك هذا أضمن لك، ولا أحد يدري مايمكن أن يحدث.

*

وصلتُ إلى مقر المشروع الحالي، البراكة جاهزة للتو، بينما توالي الآليات عملها حفراً وترحيلاً إلى خارج المدينة لليوم الثالث على التوالي.

وصل أبو جابر بعد دقائق كأنما كان يراقبني، وبهدوء الواثق بدأ حديثه عن المشروع والأسعار، لم أسأله عن الجهة التي أعلمته أو دلّتهُ علينا! طلب نسخة من المخططات، اطلع عليها ملياً، طلب

قلماً وورقة، تركته يقلبها بين يديه، ويتوقف عند التفصيلات المعمارية والمقاطع التوضيحية، واتجهت صوب الحفرة.

عدت بعد حين كان (أبو جابر) مازال يحسب ويدقق ويقلب ويقارن، ثم قال: صحيح أن المشروع صغير، لكنه مصمم على آخر طراز، وفيه فن وجمال، أوجه مكسرة، أعمدة كثيرة غير متماثلة المقاطع، وفيه حواف دائرية وكتل بارزة.. أليس كذلك يا أستاذ؟!

- كما ترى... المخططات أمامك، وأنت لاتنقصك الخبرة والملاحظة!

- هذا لطف منك ! هل يمكنني أن أطلع على أسعاركم؟! ومتى يمكن أن نوقع العقد؟! أنتم تهمكم العجلة، كما قال الأستاذ رافع وأنا وورشاتي جاهزون للعمل.

- بالطبع نحن تهمنا السرعة، نحن أيضاً متعهدون يا (أبو جابر) ومن صالحنا أن يبدأ العمل اليوم قبل غد، ومن مصلحة مدير الفرع ومن مصلحتك أنت أيضاً، هذا حسن.. فحين تلتقي المصالح تكون الفائدة عامة.!

قلت هذا وناولته نسخة من عقود أبْرِمتْ منذ فترة قريبة وفي حالات مشابهة أمسكها بيده، يحدقّ فيها ملياً .لم يبدأ بها حسب تسلسل بنودها، بل اتجهت عيناه مباشرة إلى سعر المتر المكعب من البيتون المسلح الذي يشكل الجزء الرئيسي من العمل

كمية وكلفة وأهمية ومسؤولية. توقف عنده، تناول الورقة، أعاد الضرب والجمع وتجهم وجهه، جحظت عيناه ثم اطلع على البنود الأخرى من الأعمال: البيتون العادي بالقالب، بيتون النظافة، بيتون الأرضيات، البيتون المغموس، لم يتوقف عندها طويلاً. نظر إلي وقال: كل شيء مقبول إلا هذا. وضع القلم الذي في يده اليمنى على البند الذي يتعلق بالبيتون المسلح.

– ولكن هذه أسعارنا يا (أبو جابر) هذه العقود لم يمض على إبرامها أشهر..! وبعضها منذ أيام فقط..! وهي تنفذ الآن..! هل من المعقول أن نعطي سعرين ونتعامل مع المادة نفسها والعمل ذاته بوجهين..؟!

– ولكن تلك المنشآت عادية جداً، وحدات سكنية كعلب الكبريت، ليس فيها أي شيء مميز: أعمدة وجدران وأسقف، لن تضطر لأن تقص الخشب لكل عمود أو لكل سقف. فخشب الطابق الأول نستخدمه لكل الطوابق الأخرى. أما هنا... فأعمدته كثيرة تختلف وتتمايز، وكذلك الجسور ومستويات السقف، كل كتلة لها ارتفاعها الخاص وأبعادها المختلفة ثم...

– اذا كنت تنتظر أن تنفذ مشروعاً مصمماً على مقاسات خشبك وأطوال دعائمك فانتظر..! ربما نصمم لك ذلك المشروع قريباً!

– سامحك الله يا أستاذ! لكن المشاريع تختلف وسلامة فهمك وذوقك أنا لدي عُمال ونجارين. ومن مصلحتي إنجاز أكبر قدر من

الأعمال في وقت أقل، فإذا كانت كل الأشكال متشابهة والطرايق متكررة يكون هذا ممكناً ولايتطلب مني التواجد الدائم؛ أنا كما تعلم لا أعمل بيدي.

– نحن موجودون ياأبا جابر وجاهزون للمتابعة والرد على كل استفسار..!

– أنا لم أتعــود أن أســـأل...! المخططات تكفي.. أعطي توجيهات لعناصري مرة واحدة. أنا أربح من أعمل عندهم، ولا أحتاج لمن يشرح ويفسر..!

– لدي معلومات كافية عنك..! ولكن ما من أحد لايحتاج الى إجابات عن أسئلة أو شرح قد يفوته..! نحن نسأل الجهة المشرفة أو الجهة صاحبة العلاقة. فنحن منفذون ومتعهدون.. يجب أن ننفذ مايطلب منا، وفق رغبة صاحب العمل. لابما يوافق امكانياتنا ورغباتنا وأمنياتنا، وأنتم كذلك أيضاً أم أن لك رأياً آخر..؟!

– معاذ الله.. الرأي لكم، رماقلتمو صحيح، ولكن هذا السعر لايناسب وكل ماعداه موافق عليه... منذ الآن! مارأيك بمناقشة هذا الأمر مع الأستـاذ رافع..! أو نؤجل الموضوع.. لنفكر فيه أكثر، وأرجو أن تفكر أنت أيضاً..

– ليس لدي سعر آخر..! ولسنا نساوم! ومن يقبل بهذا السعر نعطه دون انتظار، وتوقع العقد فور حضوره كائناً من كان..!

قال الأستاذ رافع بعد أن طلبني على عجل:

- نزيد له بعض الليرات على كل متر مكعب. (أبو جابر) يتساءل... ولن نخسر بذلك. عمله متقن وما ندفعه هنا نربحه في جودة التنفيذ وسرعته. وأنا أثمن فيك غيرتك على الشركة وحرصك على أموالها، ولكن لابأس، لاتعتبر هذا الأمر إحراجاً لموقفك. أنا أوقع هذا البند كي ترتاح من أية مسؤولية إن أحببت.. غايتنا جميعاً هي تنفيذ العمل بأسرع وقت وأفضل صورة. ولا أعتقد أن هذه الليرات القليلة يمكن أن تسبب خسارة، أو مشكلة..

وكذلك قال الأستاذ معاون رئيس الفرع حين أبديت له حنقي وانزعاجي وافتقاد الرغبة التي كانت تملكني..

ووقع العقد مع (أبو جابر)..!

* * *

- ٢ -

هل هذه ورشة أم مأوى للعجزة؟! منفى أم مصح؟!

هو مشروع جديد، وأعماله تفوق قيمتها عشرة ملايين ليرة.. صحيح هذا..! لكن ما افتتح منه ليس إلا مشروعاً صغيراً.. لاتتجاوز أعماله المليون إلا قليلاً..

بصحبيع أيضاً أنه مصممٌ بشكل أنيق وجميل ويحتاج متابعة أكثر..! لكنه لايحتاج كل هذه العناصر؟! أو على وجه أدق لايحتمل كل هذه الأعباء..!

فهذا حمود محمد يمر في فترة نقاهة بعد عملية القسام القلبي...! وهو بذلك لن يستطيع القيام بأي عمل سوى النوم إلا إذا كان إدارياً. وما العمل الإداري اللازم للمشروع إذا كان موجوداً محاسبٌ وأمينُ مستودع؟! وماذا يحوي هذا المستودع الجديد.. ليحتاج إلى أمين ومساعد..!

وهذا حسن يونس بماذا سنشغله إذا كانت درجة الرؤيا لديه لاتتجاوز الأربعة؟! وسلمان العلي القادم إلينا من مشروع السكن العمالي عقوبة ونقلاً تعسفياً.. لكن للحق لم يقصر في أي عمل كلف به إلى الآن في هذا المشروع.

أما هاشم الجودي فبعد قليل من الشهور يتقاعد، لهذا يجب أن يعامل معاملة خاصة.. والأعمال التي يستطيع تنفيذها خفيفة..

وأمين المستودع فعلا منصور فهو جديد ليست لديه الخبرة، والتدريبات القليلة التي تلقاها في مقر الفرع لدى مسؤولي المستودع المركزي لاتكفي. كما أنه أتى مصحوباً بتوصية، وقريته بعيدة عن مسارات سيارات المبيت لذلك يحتاج أن يتأخر بعض الوقت ويبكر في مغادرة المشروع مساء.

وها قد اكتمل النصاب بوصول الأستاذ ابراهيم عقل..!

فالأستاذ ابراهيم لاتنقصه الوسامة أو الأناقة، ولايهمه الراتب كثيراً، بل إن مايهمه، كما صرح بذلك مراراً هو أن تمضي السنوات الخمس بخير ليعود الى أملاكه الكثيرة ، وأرزاقه التي تحتاج إليه في غياب إخوته المهاجرين وعجز والده الذي يتزايد عن إمكانية المتابعة اللازمة.

مع هذا فهو لم يبخل أو يتردد في المنافسة على كل شيء: رئاسة المشروع والسيارة والاهتمام والمجادلة والعزائم.

– ماذا يمكن أن يتحمل المشروع ياأستاذ واقع؟؟ نحن مازلنا في البداية..! ولانحتاج مهندساً آخر، بل عمالاً أصحاء..!

– مشروعكم كبير، ومازلتم في بدايته! وتحتاجون إلى ترتيبات كثيرة ومتابعة المخططات وملاحقة الواقع.. ومراجعة الجهات المشرفة والجهات صاحبة المشروع، إذا قمت بهذا كله من سيظل مع العمال في الورشة؟! والأستاذ ابراهيم شاب ممتاز وقد اختلف مع الأستاذ أسعد، ولم يعد بقاؤهما ممكنا في المشروع ذاته..! وأعتقد أن هذا لن يحدث عندكم ، فأنت تستوعبه، وتستطيع أن توفر المشاكل وتبعد المشاحنات، نسلمه عملاً منفصلاً، إن استطعت وتابعه! والده صديقنا ولايمكن أن نزعله! تدبر الأمر بمعرفتك.

– ماذا سيتحمل المشروع إذن! مصابون بمرضى ومتقيون ومفروضون.. وليس لدي مجال واسع للعمل.. هذا سيسبب عبئاً كبيراً في كلفة اليد العاملة..!

– مشروعكم جديد..! وسنوفر لكم امكانية افتتاح جبهات عمل جديدة.. المشاريع الأخرى كلها قديمة، لايوجد مشروع لديه امكانية كبيرة لاستيعاب العمل وتنتظره أعمال مهمة غير مشروعكم..! لاتكبرها يا أستاذ..! خذ الامور ببساطة وسترى أن لاشيء يستحق كل هذا التفكير والقلق.

*

وتمضي الأيام هكذا..!

أصل صباحاً.. فيما ساعة /بيغ بن/ تعلن السابعة ثم تتلوها نشرة الأخبار التي أستمع إليها، وأمامي كأس من الشاي وإبريق قديم مسود، وبجواري حارس يحاول جاهداً تقديم مايمكنه من احترام، ويتحدث على فترات عما حصل معه أو رأى أو قام به من أعمال.. بعد ذهابنا أمس..

وبعد دقائق.. تصل أحياناً إلى العشرين ولاتقل عن العشرة ، تصل سيارة العمال.. ينزلون منها بتباطؤ، يحيون باحترام، يتساءلون قليلاً عن العمل هذا اليوم.. والمواد التي يحتاجونها والإجازات التي يتناوبون في طلبها . أرد تحياتهم.. أجيبهم على أسئلتهم ثم يتوجهون إلى المبنى الذي يتنامى بكسل. أتابعهم وهم يدورون حول أنفسهم. يتوشوشون قليلاً يسألون بعضهم

البعض عن أشياء لها أو ليس لها علاقة بالعمل، وأضحك ضحكة صفراء «من ينظر إلى عندهم.. وهم يهبطون من جوف سيارة المبيت، يظن أن العمل يتكل بعضه، لكن الذي يعرف والذي لايعرف..».

أما عبد الهادي السائق الرائق.. هادئ ومهذب، يحيي باستحياء بعد أن يصل بالعمال ويستأذن بصوت خفيض وبامتعاض بأن يذهب إلى الأستاذ ابراهيم... أهز رأسي موافقاً، أقوم إلى العمال. أطلع على الوضع عن كثب. أسأل، أمازح، ثم أتوجه إلى البراكة، أجلس إلى المكتب وأراقب بعض المخططات التي صارت باهتة ومهترئة لكثرة الاستعمال تحت الشمس، أقرأ بعض الأرقام، أجمعها أو أطرحها، أنقل بعضها إلى ورقة بيضاء، أعطيها للمعلم النجار الذي يتبع ورشة (أبو جابر)..

أرفقها ببعض الشروح والتوضيحات، أعود إلى المكتب، أستخرج كراساً يعلوه اسم الشركة، أبدأ بكتابة الطلبات من الفرع: مدير الفرع، قسم الانتاج، قسم الامداد، مكتب الصحية، الخ... وإجابات عن كتب موجهة إلينا من الإشراف أو الجهة صاحبة المشروع.

أنتهي منها. يكون ابراهيم قد حضر أحدثه قليلاً..

ثم أغادر المشروع لمتابعة الاجراءات الكثيرة للمقسمين الآخرين، واستلام الجهات المشرفة للجزء الذي جهز للصب، حيث

أحضرهم إذا تعذر حصولهم على مهمة بسياراتهم. وفي وقت الغداء، قد أقوم بزيارة للعمال، أشاركهم طعامهم وأحاديثهم التي لاتتغير؛ إذ تتنقل من العمل الى الطقس والمواسم، ومشاكل البيت وأولادهم وزوجاتهم ثم قلة الراتب وضعف الامكانيات وسياط سائقي المبيت التي لاترحم.

*

لوقع المطر على سطح البراكة نغم خاص، نغم يذكرني بصوت المطر على ذلك السطح الترابي لكن ذاك الصوت كان أكثر سحراً وإبهاماً ودفئاً، أين منه هذا الصوت الذي يرطن بلغة معدنية حادة منفرة، لكنهما يختصران حالتين متقاربتين قلقاً وتساؤلاً. فقد كان المطر الهاطل فوق التراب المتحول مع التبن لتوه، يحمل في ثناياه الخوف من قطرات كبيرة تتسرب لتقع في أي مكان مهما كان أميناً ومزيزاً.

وهي إن جانبت أسرتنا أو أماكن مبيتنا الأرضية، فلأصواتها الرتيبة تكفي للتكور أكثر وابتعاد النوم مسافات عن عيوننا الحائرة؛ مع شكوى والديّ أو حذرهما المسموع أو مراقبتهما وحراستهما الليلية المتواصلة.

أما هنا.. فخوف آخر لكنه خوفٌ يترك البال مشغولاً والفكر مبلبلاً؛ فهذا المطر يعرقل العمل في كل الأقسام ويوقفه في القسم الثاني الذي يحفر.. لاشك أن الحفرة صارت بحيرة من المياه

الفكرة، سنحتاج إلى أيام إضافية من الصحو حتى يمكن المتابعة. كما أن كل الأعمال الخارجية في هذا الجزء متوقفة، والأعمال الداخلية التي يمكن الاستمرار بها قليلة وتكاد تكون معدومة؛ إذ أن المواد مبتلة والساحة موحلة. وبكلمة أوضح، يمكن القول أن اليوم ليس يوم عمل جدي..!

وفي مثل هذه الظروف يغادر ابراهيم إلى زوجته وأولاده، وأبقى في المكتب وحيداً في البداية، ثم يتقاطر العمال إليها، يدخلون الجزء الخاص بالحارس والمستودع من البراكة. بخطواتهم الصاخبة وأصواتهم الضاجة التي يريدون منها إعلامي بوجودهم ورغبتهم في الحضور إلي...

يدخلون مسلمين باسمين لأن العمل متوقف أولاً، ولأنهم يستطيعون الجلوس أمامي دون خجل أو خوف. وربما كانوا يمهدون الطريق لما سيطرحون بعد قليل..!

ما أشبه هذه الأيام بأيام /الشرشار/! تلك الأيام التي غابت عني طيلة أيام الوحدات الارشادية.

أحاديث العمال لاتتغير، طرائف مجوجة، حوادث شخصية، مشاكل طارئة، هموم تتكرر: لماذا لاتذهب إلى البيت؟! لماذا تبقى إلى آخر الناس؟! الأستاذ ابراهيم لايبقى! ومعظم عناصر الفرع كذلك؟! أولادنا لانراهم، العمل سخرة حقيقية.. أرسل معظمهم وأبقى وحيداً.. هناك فارق بين الأمس واليوم، لم أكن صاحب

قرار وصرت مسؤولاً! ولم يتبجحوا أمامي أو جواري أو يختبروا نبهه يعرفونها ويقدرونها -هكذا يقولون-.

أبقى وحيداً، أحاول أن أكتب شيئاً لأرسله إلى صحيفة صارت تستقبل باهتمام ما أرسله وتنشره.

*

في ساعات الوحدة، التي تطول وتقصر، كفترة الغداء أو في نهاية الدوام حيث هناك ربع ساعة على الأقل بين ذهاب سيارة المبيت بالعمال وبين انتهاء الدوام النظري، وفي أيام المطر الشديد المتواصل وأوقات أخرى عرضية. في مثل هذه الفترات تعود حالات الشرود لتستهلك الوقت، تعود الصور الباهتة لتبرز أمامي.. بعيداً عن كل الزينة المزيفة التي يراني بها الناس، وكل الألقاب الهشة التي أنادى بها هنا أو هناك، بعيداً عن هذا السباق المحموم، هذا التنافس الخسيس، وأقول: هل هذا ما كنت تحلم به يا حسان؟! هل من أجل هذا المستنقع صرفت سنيك العزيزة، ها أنت كما كنت تتمنى، ها أنت كما تصورت نفسك كثيراً.. وتصورك الآخرون..!

ها أنت رئيس مشروع بملايين الليرات، ولديك عمال وفنيون ومهندسون وسيارات.. لديك براكة ومستودع ومكتب مستقل، ولوحة وسط هذه العمارة المميزة من المدينة، العمارة الهائلة على

تخوم القصور. وقبل أن تبدأ بتايات النخل المحوة؛ بتايات العلب المجمعة كيفما اتفق، أبنية المعلمين والعمال، وجمعياتهم التي استملكتهم بالمشروع العُمْري/ البيت الذي يستنزف النسغ والنبض، وليت هذا يكفي..!!

أين أنت من الفرح..؟!

لماذا زملاؤك فرحون بما لديهم؟! وليس ذاك أكثر مما لديك! لماذا يتفاخرون بالزينة والألقاب وقيمة العقود، وعدد من هم تحت وصايتهم..! ولماذا يتنافسون بلهاث محموم للقبض أكثر على مفاتيح الجاه والثروة والسمعة التي لايهم لونها.

أصدقاؤك في الجامعة بسنواتها الخمس، ماهم ينظرون بعيون لاتشبع إلى مشروعك أو قيمة كشفك الشهري، أو نوع سيارتك. بعضهم استقيلته بنفسك، وعرفت المدير وغيره عليه وقد تجاوزك، واستلم مشروعاً بينما كنت تنتظر رحمة الأرض. ولم تعد تراه حتى في المناسبات المحزنة التي لاتفوت على النابهين.

أنت تشغل بالك كثيراً بأمور تافهة كبر عليها زملاؤك وإدارتهم السابقة واللاحقة. ماذا لو طبقت القانون..؟! هذا المريض بقلبه وذاك الضعيف بصره.. أرْسِلْهُمْ إلى الفرع، ارميهم في وجه المدير! وذاك الذي يتأخر أو يبكر في المغادرة، ليخرج من بيته منتصف الليل وليعد منتصف الليل الثاني! لينم في المشروع، في المدينة أو يترك العمل! وهذا وذاك تقاعد أم لم يتقاعد.. خرج

من هنا إلى البيت أو إلى القبر. وإبراهيم هل أنت تحتاجه حقاً؟
وهل وجوده مريح.. وهل هو متزوج من أجلك. وهل خلف بناء على
توصية منك..؟!

دع عنك كل هذه الهموم؛ لماذا لايوزعون هذه المصائب على
باقي المشاريع ويخصونك بها ويمتنونك..!

ثلاث سنوات وأنت تنتظر فرصتك.. وهاهي جاءت .. فلماذا
لاتفرح؟! لماذا لاتنفخ ريشك وتلقي أوامرك وتمنع المناقشة. ومن
لايعجبه ليشرب البحر! ولماذا تصبر على المخطئ والمسيء؟! إن
تصرّفت هل يغفر لك المدير أو الآخرون ذلك؟!

لماذا أنا هكذا دائماً ؟! لماذا فرحي منقوص؟! ألأنه الفرح
الأكبر، أو هكذا ظننت. فنسيتُ الأفراح ولم أفكر بها.

الجميع يسألون: متى فَرَحُكَ؟! متى تتزوج؟! وزملاؤك
مشغولون بصديقاتهم. بخطيباتهم بزوجاتهم وقبل ذلك أو بعده
بالنجار والطيان والبلاط. بالبلوك أو الاسمنت أو الحديد في
بيوتهم المرتجاة.

هذا الحديث لايتركونه لحظة. كأنما هو دليل الرجولة
والشخصية المكتملة! دائماً يتأففون ويشتكون إليك: فقد أخلف
النجار بوعوده! أو أن البنّاء مرض، والكهربائي تخلف أسبوعاً..
الصحية لم تعد. أنت تفكر بهذا أيضاً، ولكن المشروع وليس
لك..! لماذا هذه الأمور تحتل ذيل قائمة اهتماماتك.؟! هذا إن
دخلتها أصلاً.

كلهم يتساءلون: والدتك ووالدك، إخوتك وجيرانك، معارفك وأصدقاؤك الذين يرغبون ذلك بصدق والآخرون الذي يحسدون أو يشمتون..!

هل هو الخوف المقيم؟! ولماذا لاتطرده؟! وماميرره إذا كنت على رأس عملك..؟! ملتزم ومتابع، ولامشاكل لك مع أحد حتى المسيئين الذين حفروا لك مطبات عديدة، لماذا تخاف إذن؟! هاهو سليمان العامل الذي قدم إليك معاقباً أو منفياً يقول: العلة أن الواحد لايستطيع أن يقول لك كلمة لا..!

أنت غير فرح، لاتستطيع أن تفرح، مَنْ وزع الأفراح نسي أن يعطيك حصة، فهمنا.. لكن الخوف أيضاً؟! الخوف أولاً وثانياً وعاشراً؟!

صحيح أن ماحدث معك قبلاً يبرر شيئاً من الخوف السابق، لكن الآن لا أعتقد أن هناك مايستوجبه..!

ومدير الفرع وتردده، رؤساء المشاريع الزملاء وأنانيتهم، رؤساء الأقسام وشراهتهم، الوضع العام في الفرع، النقص في الواردات، الجهات التي لم تسدد ثمن الأعمال، المشاريع المتوقفة منذ زمن، الأخرى التي تتعثر، المواد التي تشح، رواتب الناس التي تتأخر.. كل هذا ألا يدفع للخوف والتشاؤم؟!

لكن الوضع عام ولن يحدث لك أكثر مما يحدث لغيرك، بل على العكس مشروعك جديد وأصحابه يدفعون، وأمامك سنوات من العمل..

مع ذلك.. إنه الخوف.. والقلق والانقباض. ليس هذا بيدي؟!

*

بدأت الشركة تخفض أعداد عناصرها، من كل المهن. وبدأ الفرع ذلك أيضاً. أرسلتْ إلى المشاريع كتبٌ تطلب تحديد العناصر غير الفعالة، أو ذات المردود المتوسط والضعيف للاستغناء عن خدماتهم. وانتشر الخبر بين العمال..!

من يستطيع كبح جماحهم.. والرد على استغاثاتهم.

أسرع حسن وبدأ يبكي، وهاشم البردي قال: ألا يتحملونني شهوراً قليلة بعد هذا العمر وهذه الشيبة؟! وقال حمود إذا خرجت من هنا سأموت من الجوع. ماذا يمكن أن يعمل من كان قلبه معطوباً؟! ألا تشفع لي سنوات العمل العشرة..؟! ابراهيم أمره عند رئيس الفرع فهو يقوّم المهندسين كي لا تحدث حساسية بين الزملاء. قال ابراهيم: أرسلهم يا أستاذ. نظف مشروعك من العاطلين والمهملين. لم أرد على الكتاب! طلبه قسم التخطيط مراراً ولم أجب! وتتالت القوائم من المديرية العامة التي تحوي أسماء المسرحين من العمل. وطُلبتْ قوائم فرعنا وصدرت قرارات الفرع بقوائم ضمت أسماء الثلاثة.

واستمعت طويلاً لشكاياتهم ومناجاتهم ولم أجب سوى أنه لا علاقة لي في الأمر أبداً ولم أستغنِ عن أحد.

أما ابراهيم الذي سبب خصاماً مع العاملين، ومشاكل مع الإشراف، وتدخل في أمور كثيرة ليست من اختصاصه وأفسد معظمها، وأرهق السائق بمشاوير المزارع دون علمي؛ ابراهيم هذا لازال في المشروع ولازالت أحلامه بعيدة.

الفصـــل الثـــاني

- ١ -

طبتَ مساء ياسيدي..! أهلاً بإطلالتك الجميلة، أهلاً بالرغيف الشمسي فقد أضناني الجوع..!

منذ متى أنت هنا فوق التلال القريبة؟! فوق القرية التي ظلمتك.. آه لو استطيع لرد الظلم سبيلاً..!

عفوك ياسيدي! لم انتبه لمجيئك! نسيتُ، كما نسيت، طقوسَ الصلاة في حضرتك، وتركتني الابتهالات التي كنتُ أرسلها في رحاب أضوائك العذبة، ومنذ متى لم نلتق؟! لم أعد أتذكر! خانتني الذاكرة وخانني الوقت، وخنت الليل ولألئه وظلامه.

منذ متى أنت هنا؟! لاأدري! ومن أين لي ذلك؟! وهل نحن على موعد؟! ربما كان هذا حقاً، لكنه موعد لم أحدده من جهتي. ربما أردته أنت واشتهيتَه أنا، لكننا لم نتفق صراحة على هذا..! لا أعتقد أن من جعلني هنا ومن سرق مني الوقت والسنين والأعصاب حدد أو أراد مثل هذا اللقاء.

كيف لي أن ألاحظ شروقك وأمامي تلك الأضواء الشامتة القريبة..؟! كل بيوت القرية مضاءة أضواء صفراء هجينة وأضواء بيضاء مدجنة..! ترسم خارطة المصلبة حدوداً ومنازل تسهر

حتى يرفرف علمنا بكل الأعلام في الدول المجاورة، وحارات وساحات وطرقات ودكاكين تسهر كثيراً وتصوت أكثر.. كلانا منسيان ياسيدي كلانا مرميان إلى فوق..!

لو لم أكن أنا هنا الآن في هذا المكان المرتفع وفي هذه الذروة الأعلى.. هل تظن أنني كنت سألحك..؟! بحثت عنك طويلاً. لم أعثر إلا على بقع ضوئية متناثرة تختبيء خلف الأشجار وفي ظلال البيوت حين تختفي بعض الأنوار الساهرة.

ترى من منا سينقذ الآخر..؟!

كنت أستجير بك وأحسب حسابك ومواعيد حلولك عندنا. أما الآن، لن أكذب عليك فقد نسيت أشياء كثيرة، أحاول ان أستعيدها في هذه اللحظات، وفقدت أشياء ثمينة، أحاول عبثاً الحصول عليها ثانية..!

غبت بلا موعد وبلا كلمة وداع. لا، لا أقول أن الحق عليك، أعرف تماماً أنك، تعاود الزيارة في المواقيت السابقة نفسها. لم نكن في وضع يؤهلنا لوداعك وهل فكرنا في ذلك..؟!

المصلّبة ياصديقي كانت ترقص. كلها كانت ترقص، لم أسمع أن المصلبة فرحت يوماً من الأيام كما فرحت في ذلك اليوم؛ ولا انتشت نشوتها ذلك المساء؛ الكبار يتمايلون بعدما شربوا، الصغار يتراكضون ويبكون؛ النساء يرقصن ويغنين.. طبول تقرع ومزامير ترسل أنفاسها التي تتعثر أحياناً لوجود متدربين في الجوقة التي أحضرت على عجل ومن مكان بعيد.

في ذلك المساء من نيسان انتفضت المصلّبة، اهتزت وتراقصت كل أطرافها. اغتسلت بعرقها الذي تلألأ لأول مرة على أنوار معلقة في الأسقف والجدران والأعمدة والأشجار.. أنوار أضيئت للمرة الأولى وأشعلت الحماس والشعور بالفوز والفرح الذي أججه بقاء القرى المجاورة هذه الليلة فقط مظلمة..

فغداً سيُحتفل بإنارة القرى جميعها، لكن المصلبة سبقتها بيوم وهذا نصر حقيقي. المصلبة تستحق هذا حقاً، فهي الوحيدة بينها التي أنجزت أعمال الكهرباء - عدا الأمور الفنية -بجهودها الخاصة في العمل الشعبي.

قهقهات وصيحات ليسمع الجيران الذين لم يناموا ليلتئذ..!

ترحيب بالعريس / الضوء القادم من بعيد، والعروس/ المصلبة التي انتظرته طويلاً. وأصابت العدوى جميع أهلها، كل الذكور كانوا عرساناً، حتى الذين يدبون على العصي.. والإناث كلهن عرائس حتى اللواتي بطأطئن بلا تواضع، وفاتتهن هذه الأوقات ولم تعد تأتيهن إلا في الأحلام..

للمرة الأولى - وربما الأخيرة - تتقاطع الأفراح وتندمج لتشكل أضمومة واحدة جميلة: لا حساسية أو لوم أو حسد للعريس، ولا غيرة من العروس.

لم يبق واحد دون ضحك يوم ذاك ولا واحدة إلا رقصت أو غنت أو (هنهنت)! اثنان فقط كانا حزينين، اثنان فقط تجاوزهما قطارُ الفرح..

أنا المناوب في مقر الفرع بعد توقع قدوم المدير العام للشركة في أي وقت من اليـوم، على الرغم من أنني لم أحس وقتـئـذ بالخسارة، لأنني حين غادرت في الصباح لم يكن هناك أي ترتيب لأي احتفال، بل لم يكن مطلوباً أن تشعشع الأضواء تلك الليلة، لكنه كان انفعالاً آنياً وشعوراً لايقاوم بعد أن وافق عامل الكهرباء على إعطاء النور لقاء الجهد الذي بذل، والثاني هو أنت ياصديقي فقد عبرت السماء دون أن يلمحك أحد ودون أن ينتظرك على السطح أحد، ودون أن يشاركك المشوار من على طريق الصلبة الشرقية أحد! كنتَ خطيب القرية القديم حتى قبل ان تولد عند أسفل السفح، ورافقتها في بلوغها وفرحت حين نضجت واعتلت تضاريسها التضاريس، وتكورت أعضاؤها، واستطالت نتوءاتها فوق التلال. وبقيت مسامرها الوحيد مع أصوات شجية يغيب أصحابها الاستثنائيون تباعاً وتبقى هي حية تردد أصداؤها في الوديان تبثها أجهزة صغيرة مرافقة، أو كبيرة تستوطن الدور. تتناوب معها أو ترافقها أصوات الجنادب والصراصير في خلفية مائعة. وظللت سيد الأماسي والليالي، السيد الذي لاينافس إلا من حشرات تضيء وتنوص وهي تدور حولنا.

أما الآن.. فقد لحقت أصواتهم بهم، وتوضع أنت على رف مخبر. كما أُلقيتْ الفوانيسُ وأضواءُ الكاز، أو تلقى في بحيرات بعيدة أو برك آسنة! تماماً كما ألقى الآن فوق هذه التلة أو أرمى في ذاكرة ميتة.!

كلانا منسيان ياصديقي، فلا العشاق يتذكرونك بعدما مُزِّقَتْ غلالتك السحرية التي كانت تضفي لهم أشياء جميلة وتغري بمغامرات شهية، ورميت مواعيدك في قاع بئر عميقة فقد استعاضوا عنك، وعن تلك الحب الحرام الجميل العذب الشفاف، بحكايات الحب المسلسلة، أو مغامرات العشق المثيرة التي تُحكى للجميع وتظهر للجميع دون خجل من احمرار وجه الصغار، أو خوف الكبار أن يفسد أبناؤهم ويطلقون العلوم والمدرسة والوظائف..

وقبل هذا وبعد ذاك يخرجون عن السمع والطاعة.

كلانا منسيان.. فلا قاصدات العين للسهر والانتظار يسألون عنك بعد أن وصلت المياه إلى دورهم. ولا الكبار يغسلون وجوههم بشعاعك، ولا الصغار يتساءلون عن سر بهائك وعن موعد لقائك بالنجوم التي تجاورك أو يلاحقونك وأنت تغيب، عنهم قليلاً لتختبئ وراء غيمة هاربة... لا أحد يتذكرك تحضر وتغيب تضحك وتبكي، ولا من مُواس. ولا (الدليلة) تُفْتَحُ حين الخسوف لأنه مامن أحد يلاحظ ذلك. بعد أن كانت تتقاطر الوفود إلى بيت الشيخ أحمد لمعرفة مايخبئه هذا الخسوف المفاجئ وعلى ماذا يدل؟! هل على موت ملك في الغرب أو حاكم في الشرق؟! أم على الغلاء الكاوي أو المواسم الوفيرة، أو القحط العام، على المطر الكثير القادم أو هو الجفاف المقيم.

كلانا منسيان! فها أنذا منذ الصباح الباكر هنا. لم أتناول لقمة واحدة، ولم أشرب شيئاً حاراً أو بارداً. ولا أدري إن كنت قد نمت قليلاً.. ولا أحد يذكرني..! لو كانت أمي في البيت لأرسلت في إثري كل أولاد القرية. أو دارت هي بنفسها تبحث عني! كيف يمكنها أن تقعد أو ترتاح وحسان ذهب من الصباح إلى البرية ومعه البارودة، وهذا المساء قد بدأ ولم يعد..

لكنَّ أبي هناك في سرير كل مافيه أبيض، وأمي تركتها أمس عنده ومعها أختي وأخي أما أخي الآخر ففي امتحانات الجامعة.

وأنا عدت مساء إلى البيت الذي يجب أن لايبقى وحيداً.. زارني المقربون والجيران سألوا واستفسروا عن مستجدات حال أبي ثم ذهبوا.. مسعود ظل معي فترة أطول لكنه ذهب أخيراً.. وهل ينام عندي؟!

لست أدري من الذي يجب أن لايبقى وحيداً... البيت الذي لايوجد فيه مايغري بالسرقة، أو التخريب، أم أنا الذي أمتني كوابيس الدنيا كلها..

ويالها من ليلة ضارية مجنونة..!!

*

من أين جاءتنا هذه المصيبة؟! والدي ذو الجسم الصحيح الصلب، الذي لم يشك من مرض أي مرض في سنواته الستين التي أمضى جلّها في العمل الشاق، وانتقل من عمل إلى آخر..

وما الحيلة اذا كانت الأرض صخرية لافائدة ترجى منها، وكل ماتتمناه أن تكفينا شجرات الزيتون التي تنتشر في سفوحها شرَّ شراء الزيت، تحولت تلك الصخور إلى سلاسل ترتكز بقوة على كتف الجبل تجمع التربة لاستقبال الزرع. أي جهد تطلب ذلك؟! وكم من السنين استغرق! إذا كان يجري في الأوقات التي تقل فيها الأعمال المأجورة. كبناء الحفافي الحجرية في الأراضي الجديدة للمصلّبة.. والحفر الموغل في عمق الارض (قامات) لتجهيز آبار يمكنها أن تحتفظ بمياه الشتاء لجدب الصيف.

هذا الجسم الذي استطاع أن يغالب شتى الأمراض في مختلف الظروف لايمكن أن ينهزم أمام أي من الأمراض العابرة، فقد اكتسب مناعة تفتقر إليها كل أدوية المختبرات.

وأي وعكة أو عارض مرضي لايستحق سوى الابتسام والازدراء لأنها لاتعدو كونها دعابة بسيطة نادراً ما اضطرته الى البقاء في الفراش..

من أين جاء هذا المرض اللعين؟!

الآن هو وقتك يا أبي.. الأولاد كبروا.. وحسان صار يقبض المال.. يمكنك أن ترتاح... وتكتفي بمشاوير إلى الأرض التي امتصت ثوانيك، وأخرجتْها قطرات حياة، يمكنك أن تستند إلى جذع شجرة المشمش اليافعة في باحة الدار الجديدة، وتتابع الأخبار التي شغلتك كثيراً ، وتناقشها مع زوارك الكثيرين.

الآن وقت عزّك.. أن تعيش بيتنا سنداً كعمود ذلك البيت الترابي.. تتابع الأمور الصغيرة والكبيرة باهتمام وهدوء..

من أين وفد إلينا هذا الزائر الخبيث...؟!

لم يسبقه ألم؛ كلُّ مافي الأمر صعوبةٌ في البلع لم تنل الاهتمام المطلوب، فهي عادة ماتصاحب الزكام أو النزلات أو أشياء أخرى بسيطة؛ مراجعةٌ لأحد الأطباء تكفي وبضع حبوب تفيد.. لكن شيئاً لم يتغير..

لابأس، مراجعة أحد الاختصاصيين ضرورية، والتصوير أضمن..!

وبدأ الخوف يتسلل إلينا جميعاً، ويسيطر الانقباض على الملامح لكننا نقول: لاتخف ياأبي! ثمة ورمٌ بسيط ينتهي! لم تخف أنت! أو لم يظهر ذلك عليك: «لاشيء.. كتلة بسيطة! أستطيع أن أركض إلى أي مكان». أوصينا كل من يزورك بكتمان الأمر.. ولم يخطىء أحد كما نعتقد.

ونقول لك: الأمر بسيط ياأبي غداً تزول هذه الكتلة العنيدة، ونحن نعلم أنها تكبر، ونخفي غصات بحجم الكارثة ونحملها إلى خارج غرفتك.!

•

يالها من ليلة مجنونة..؟!

لم تنفع كل البسملات، وكل السور القصيرة التي أحفظها،

وقد قرأتها عشرات المرات، بسرعة الملاحق بجرم شنيع. قرأت في البداية حين صرت وحيداً في الغرفة الطويلة الواسعة بأسرّتها الثلاثة وخزانتها المتثاقلة وطاولتها العاجزة يرتكز فوقها ناظراً بيلاهة جهازُ تلفزة من أصغر قياس.

خطر لي أن أفتحه ليسليني، لكني طردت هذا الخاطر الوقح. فهل يصبح ذلك ووالدي ينتظر أمراً فظيعاً، ونحن ننتظر مناسبة قاتمة..؟! !

أطفأت النور.. وأشعلت ضوءاً خافتاً، واستلقيت في سريري بهدوء وحذرِ من يخشى شيئاً وينتظر مايخشاه، أو يحاول مخاتلته أو خداعه أو عدم استفزازه... أغمضت عينيَّ بعد أن كان سرير والدي الذي صار في هذه الغرفة بعد أن بدأ المرض، آخر مارأيت!

تحرك السرير، دفع اللحاف الذي كان لايفارقهُ حتى في أكثر أيام الصيف حرارة، ونهض منه بقامته المديدة كشجرة حور باسقة، وجلس معتدلاً، نصف جسمه العلوي منحن إلى الأمام يداه تحت اللحاف عيناه دقيقتان، وشفتاه تتحركان كما كان يفعل حين يفيق وبراني مستيقظاً يسأل عن الساعة، ويطلب مني أن أنام، وأن لافائدة من السهر. وأني سأستيقظ قبل طلوع الفجر، وأن هذا ضار، وجسمي لايتحمل.

أنا لم أسمع منه شيئاً، لم أسمع حرفاً واحداً مما يقول.

ومع ذلك حاولت أن أسأله.. أو أجيبه.. لم أستطع. رأيت أن ملامحه تغيرت كأنما حنق لعدم اكتراثي.

بدأت حركة شفتيه تزداد. أخذتا تتباعدان أكثر بقيتا مفتوحتين.. كأنما يصيح بصوت عال! عيناه الدقيقتان جحظتا، تحولتا إلى تنورين أو جمرتين هائلتين. أخرج يديه من تحت اللحاف، تحرك... أنزل ساقيه الطويلتين واتجه صوبي. رأس ضائع قرب السقف وقامة سامقة، ويدان طويلتان، ترتفع احداهما نظرت... ياإلهي.. رأيت أن جزءاً من رقبته غير موجود! أبي الآن بلا رقبة، رأسهُ وحده يسير جوار جسده. أبي.. أبي أرجوك ياأبي.. أرجوك..!! حاولت رفع يدي لم أستطع. مربوط أنا بأمراس كتان، وكل ما فيَّ جامد، حتى عيناي لا أستطيع إغماضهما، أو تحريكهما. يتوقف أبي. بعيداً يعيد المنجرة إلى مكانها. تسقط من يده تتدحرج على الاسمنت الأسود.

آمود الرقبة لكن يبرز تحتها ثقب صغير وثقب يكبر ياإلهي صار تجويفاً..حفرة هائلة تقترب مني. حفرة متباعدة عميقة كحفرة (مسيل الشرشار) الاصطناعي... التهمتني الحفرة، والتهمتْ أبي. لاشيء إلا الظلام. وأنين بعيد يزداد، صار دوياً هائلاً ظلام وسواد وأصوات مطارق حفارات و (بلدوزرات) أصرخ. يا أمي.. ياأمي ياأبي ياأمي. أمد يدي كي أنبهها لتوقظني، أو لتحميني، أرفع صوتي حين عجزت عن تحريك يدي.

كما في كل مرة، لكنها لم تجب. ولم تنبهني.. وبقيت جامداً متحجراً خائفاً معنياً إلى أن فتحت عيني وأصوات ضرب خفيف على الباب، وعواء شديد في الخارج..! بسملتُ وقرأت سوراً كثيرة مشتركة، جملة من هنا وأخرى من هناك! أشعلت الضوء القوي، نظرت إلى الساعة... ياإلهي: لم يمض على محاولتي النوم سوى أقل من ساعة! نزلت من السرير متثاقلاً، فتحت الباب، انزلقت بين قدمي بسرعة، مشيت قليلاً: لازالت القرية ساهرةً، أصوات غناء وموسيقا صاخبة وشجار بلغات عربية وأجنبية. أغلقت الباب، أحسنت إغلاقه بالمفتاح وأشياء أخرى، ولماذا هذا التشدد؟!

هل الخوف منبعه داخل البيت أم خارجه. وإذا كنت أستطيع إبعاد مخاوف الليل الخارجية: اللصوص والوحوش والكلاب المسعورة؛ كيف أبعد مخاوف الداخل وبيني وبين الصباح ساعات كثيرة.. إذ لم يمض من الليل غيرُ نصفه.

لابأس، سأترك النور مضاءً؛ ربما كان ماحدث بسبب الضوء الخافت أو الظلام.. شربت ماء من جرة فخارية في الركن خلف الباب، وجرجرت قدميَّ إلى السرير. تجاهلت النظر إلى سرير أبي، طقطق السرير تحتي، وأزَّ قليلاً، ثم خمد. تمددت على ظهري، ووجهي صوب السقف وضوء أصفر يشع من مصباح يتدلّى منه حاولت إلهاء نفسي بأشياء من الذاكرة البعيدة أو القريبة. لكني تعبٌ، تعبٌ من السفر الطويل والقرار المشؤوم

ومرض والدي الذي لايرجى منه. واحتمالات الآتي المرعبة، والناس غير المبالين أقرباء وجيران ومعارف إلا قليلاً منهم. كلها مطارق تدق رأسي، أرغب في النوم من جديد، وأخاف ذلك، وأعيد قراءة السور التي لم تنفع. ربما لأني لم أقم بطقوس العبادة المطلوبة، ولم أنذر فيما مضى عجلاً أو دجاجة على أقل تقدير.. ولم أفِ بالنذور! هذه الأمور لاتشغلني أو لم تكن لتشغلني ولم تأخذ من وقتي كثيراً، أبي كان يقوم بما رسم من أعياد أو نذور. نحن، أنا وإخوتي، لم نتدخل في هذا، لم نشارك، ولم نتحمس له، وحدثت مناقشات عديدة مع والدي الذي يكره في هذا الأمر... وقال ذلك أيضاً الشيخ الجديد والصديق أحمد رجب الذي لايزيدني عمراً: لولا هذا الموضوع ماكان فيك مايعيب يا حسان..!

وكنت أقول دائماً ضاحكاً للتخفيف من حدة المناقشة: الله لايعاملنا بتعاملنا، ولا يتنازل ليحاسبنا! ثم... إذا كان (الدين المعاملة) فما الحاجة لغير ذلك؟! أحمد.. ألا تتوسط لي حين ستراني متجهاً إلى جهنم؟! هل تهون عليك العشرة والخبز والملح والصداقة والإلفة...!

يضحك ويقول: من قال أني أستطيع التوسط لنفسي.. ليت هذا ممكناً..!

إذا كنت في كل ما مضى لم أعط هذا الجانب الاهتمام الكافي، كيف سأطلب من السور الآن أن تعينني! حتى هذا المصحف

الذي أضعه تحت رأسي لا أعتقد أن له مفعولاً من أجلي! فالنية هي الأساس. أما إيمان الحاجة فلا فائدة منه.

إذا كانت هذه القناعة متوفرة وكنت مقتنعاً أيضاً بأن صداقات الحاجة مزيفة، وعلاقات الحاجة فاسدة ملعونة، كيف أتوقع نتائج أخرى «لا.. أنا أظن غير ذلك ولكن الأمر الآن مختلف، فالنية الصافية يعرفها سبحانه.. وهو يغيث الملهوف، ويجيب الداعي اذا دعاه، لكن هل سأكون هذه المرة أيضاً من الداعين غير المجابين، أرجو غير ذلك.. لهذا سأقرأ السور مرة ومرة ومرة..»

ابتعد السقف الأسود المضاء بخرائطه الرمادية التي رسمها الدخان والاسمنت، والتي ليس لها شكل معين، وقد استعصت على المياه سنين كثيرة. وامتد فضاء منارٌ بشمس قوية. فضاء لامحدود بدأت فيه الطيران. وبدأت أشكال عجيبة من الأحياء الطوافَ فيه: وجه جدتي، وحنانها القلق بقسوة التَّرمُّلِ والكبرياء القديمة الجريحة. والوحمة وحديثها عن الجن والسيلين، جاء السيلان بضفافهما المشجرة وديسها المتكوم قرب المعبر الوحيد، وجاءت وجوه كثيرة لتلك الأحياء التي أخافتني.. ولم أرها..! هاهي تأتي بالصورة نفسها التي تصورتها وهم يتحدثون عنها جدتي، وأمي وأبي: العجوز التي تمشط شعرها في المساء، الفتاة الفاتنة التي تعزف على العود في ظهيرة حارة، العجلة التي لحقت

جدي طويلاً وحين تركته ناداها فنادته بصوت إنساني صاعق! الشيخ الذي ضُبطَ محتاجاً يسرق التوت لتود القز الذي كاد يموت.. فعاتبه وطلب منه النزول عن الشجرة على أن لايعيدها؛ ومد يديه لاستلام الكيس المليء بالورق الأخضر. فوقع على الأرض ولا أثر ولا رائحة لشيخ أو لبشر هناك...

بعدها، بدأت وجوه أخرى تمر .. أشكال مشوهة، معارف وأصدقاء، زملاء وجيران، أقارب لا أعرفهم، عمال وسائقون، بآلياتهم أو من دونها، براكات ومكاتب وخزائن، عقود ومخططات وكشوف، مشرفون ووفود.. الفرع وأقسامه، الإدارة العامة وسياراتها المختلفة أناقة وألواناً وأنواعاً مميزة. كل هذه الأشياء والوجوه حاصرتني ثم بدأت تعبر أمامي، تضحك تقهقه، ترفس تدفس، تضربني ترتمي فوق وجهي وجسدي. تعتصرني، أحاول التنفس بصعوبة. أما النهوض فقد عجزت عنه، الفضاء المضاء بنور قاس يمطرني بهذه الأشياء والوجوه والأسماء والأشكال، أحاول النهوض مجدداً لا أستطيع أصرخ.. مرة ومرة... ياجدتي! ياأمي! ولا من مجيب... ياأبي! يظهر والدي طائراً في الفضاء، ينظر اليَّ لايضحك ولايبكي، وجه جامد عيناه تنظران بلا معنى، أسمع إطلاق نار – يا الهي أصاب أنا – لاشك أني المقصود.

لكن أبي يتكوم على نفسه ويهبط بسرعة، إذن هو المصاب..! صرخت ورأيته وهو يسقط بقوة! فجوة في عنقه في مكان

التفاحة.. ويلكم أيها المجرمون.. من أطلق النار؟! قُتل أبي.. قتل أبي.. قُتل أبي...!

*

أفتح عيني من جديد، أبسمل وأحوقل، أشعر بدوار عنيف، ألمٌ في أمعائي ضيقٌ في أنفاسي، وجفاف في حلقي، أحس أن جسمي مضعضع كأنني تعرضت أعضاؤه لجلْد عنيف قاس لساعات.

أنظر إلى الساعة، لازال الصباح بعيداً. أنادي الهرة التي تحاول الخروج، أتوسّل إليها أن تبقى: هنا أكثر أمناً لها، لكنها أصرت. وتلوّتْ قرب سريري، وماءت بلهفة وتوسل. نهضت: جثة تتحرك.. تمسحتْ بقدمي وحيّتني بذنبها وشكرتني. حين فتحتُ الباب، وقفتْ قليلاً على العتبة، تفحصت الجوار جيداً، ثم انطلقت صوب كومة الحطب القريبة واختفت وراءها.

ضوء القمر كان يخف ويضمحل. والظلال تتطاول، والسكون يلف كل شيء، سكون مخيف لايعكره شيء. تمنيت لو أن معي أحداً لخرجنا سوية ومشينا على الطريق القريبة التي تمتد وحيدة الآن. لاشك أنها ترغب بخطى وئيدة تنشُدُ الفضاء والامتداد والسكون أكثر مما ترغب العجلات السوداء القاتمة المسرعة. والخطى المتراكضة والأنفاس المحمومة.

لكن من لي الآن..؟! الأصدقاء بعدوا.. ومسعود ينام بين

زوجته وأولاده، ولايمكن أنْ يتركهم ويأتي، وإذا ماتعبتُ إليه سيخاف، وترتعب زوجته، ويقلق أولاده، ويظنون أن بي مساً أو أنّ أمراً خطيراً حدث لي..

لا، غير معقول هذا .. وهل حقاً يمكن أن أمشي..؟!

وشعور بالتعب والهزيمة يستولي على أعصابي..

أغلقت الباب بهدوء، وعدت إلى الفراش، وطقطق السرير وأنّ من جديد.. ثم مات بعدها . صار وجهي مقابل الحائط، لكن الغطاء يلفني كاملاً.. ولاشيء خارجه، وبدأت الوك السّور التي لم يعد لها طعم، ولكن لاشيء غيرها يمكن أن يعوض أو يمكن أن يكون البديل المأمون.

هذه المرة دخلتُ بناء ضخماً، في الداخل كان كل ماحولي أبيض أعبر الممرات البيضاء، ألتقي بهياكل بيضاء، نساء ورجال فتيات وشبان، كلهم بيض، أدخل غرفة بيضاء، سرير أبيض فوقه والدي مغطى بشرشف أبيض ويلبس (بدلة) بيضاء، جواره تجلس أمي. أخي وأختي يترقصان على حافة النافذة التي ترتفع مسافة خمسة طوابق أبي يضحك حين يراني، أمي تبكي من الفرح... يعتدل في السرير يسألني لا أسمعه، أحاول إجابته لا أستطيع الكلام.. ولا أعرف مايقول..!

أخي يقهقه بلا مبرر، أختي تولول بلا سبب معروف. هكذا يبدو من وجهيهما . فجأة ينفتح الباب، يتقدم شخصان أعرفهما

جيداً... المدير الإداري في الإدارة العامة للشركة، ومدير الفرع.. يتقدمان باشين، حولهما الممرضات والموظفات والممرضون والموظفون. الأطباء والمهندسون..! أفرح لقدومهما، لكنه كالعادة فرح مشوب بالتساؤل والاستغراب والدهشة..؛ لماذا جاءا؟! ليعودا والدي؟! أمعقول أني مهم إلى هذه الدرجة. . وهل أستحق هذا الشرف كله؟! حاولتُ أن أتقدم منهما مُرحّباً، لم أستطع..!

والموكب يقترب.. يتقدم المدير الإداري مني بقامته المديدة ولونه الأسود.. وبجهه الأسود وثوبه الأبيض.. يضحك.. يمد ورقة يكورها.. يقترب أكثر، يضحك أكثر، قلت: جاء الفرج.. لاشك أنها هدية ما؛ أو قرار معونة مالية أو ترفيع.. أصبح جواري.. نهض أبي مرحباً.. طلب منه أن يبقى مستريحاً. الورقة في يده كالسهم تحدّبتْ واستطالت، وغرزها في عيني، قبل أن أصرخ لمحتُ الأستاذ رافع يرفع يديه. صرخ والدي، حرك يديه بسرعة ويضعهما على عينيه، وقبل أن أنهض أو أتحرك كانت ورقة أخرى من يد الأستاذ رافع، تنغرز في العين الثانية..!

وقبل أن يتم هذا بيرهة لمحت يدي المدير الاداري ترتفعان، صرخت أمي، قفزت من السرير إلى الأرض وخارتْ، قفز أخي وأختي إلى الساحة التي تبتعد بارتفاع خمسة طوابق..!!

حاولت أن أتحرك.. لم أستطع، أشرت إلى الجموع التي لم أعد أراها: أما ترون تحركوا أوقفوهما.. أنتم شهود عيان .

يمكنكم إمساكهما.. وتسليمهما للمحاكمة.. ولم تُسمع أنني حركة، وجوم وسكون وانقباض..

حتى أنفاس أبي لا أسمعها ولا أنفاس أمي..! بل أين أنفاس الموكب العظيم وهل أتنفس أنا؟!- هل أنا حي.. أم أن كل شيء تحجر.. أين أنتم.. ياناس ياعالم أين أنا.. أين أبي.. أبي..؟!

تراءى لي أبي، وسائل بلا لون يسيل من عينيه، على خديه، يحمر لون السائل ويغيب كل شيء.. في الظلام..!

يطل من الظلام الأستاذ رافع ومعه جموع الموظفين في الفرع، ورؤساء الأقسام والمشاريع يشدون على يدي ويقدمون التعازي بحزن لايخفى..! وعلى الباب كانت القطة تموء بصوت ممطوط متقطع حاد...!

* * *

- ٢ -

لم يكن (أبو جابر) ليرضى بمشروع صغير لايشغل ربع ورشاته وأدواته ومعداته.. لولا أن كان يعرف أن مشروع (صالات التخزين) مكون من ثلاثة أقسام أصغرها هو الذي تمت المباشرة فيه أولاً. ولولا أنه كان يرسم خططه لتتضمن القسمين الآخرين الكبيرين. لكن الوقت امتد طويلا قبل أن تتم تسوية أوضاع الجزء الثاني منها.

فقد تطلب الأمر مراجعات يومية للجهة المستفيدة وبلدية المدينة استمرت شهوراً. وما أن يتم اتفاق على اقتراح بتسليم قطعة أرض حتى يُلغى هذا الاتفاق. لأن المخططات المسلمة إلينا لاتنطبق على الأرض المقترحة. واستمرت مباراة اختيار المواقع.

الأيام تمر مضمومة بأشهر وصبر (أبو جابر) يضمحل، حتى نفذ أخيراً وفتش عن مشاريع أخرى، واستلم بعضاً منها خارج الشركة التي كانت تفتقر إلى مشاريع جديدة. وحين تمت مطابقة أحد المواقع على مقاسات المخطط الموجود لدينا واستلمنا أمر المباشرة في هذا الجزء، كان (أبو جابر) قد مضى قدماً في مشاريعه ولايمكن أن يدخل في مشاورات لاستلام المشروع، رغم أنه حاول ذلك مشيراً إلى أنه يحتاج بعض الوقت.

وعلى الرغم من قلة الإشكالات التي حدثت في الجزء الأول بيننا وبين الورشة التي تعمل هناك فإنني لم أكن متضايقاً من عدم استطاعة (أبو جابر) الدخول في جبهة جديدة. لأن العمل مع أحد المرتبطين بصداقات عميقة مع المدير ليس سهلاً على الإطلاق فهو إذا لم يفتر عليك أو ينقل له أخباراً ملفقة عن وضع الورشة. إذا لم يستطع التعليق على الإمكانيات الفنية التي يمتلكها المشروع، فهو على الأقل يشعرك بأهميته، ويذكرك في كل حديث، بمناسبة وبدون مناسبة، بالأستاذ رافع الطيب الخيّر حافظ الود والصداقات والذي (ليس في عينه شيء)!؟ وقد يذكر بطريقة

الايحاء أن السيد المدير يسأله عن الوضع في المشروع، وعن جدارتنا بقيادة العمل والإشراف عليه.

وبالطبع كان جوابه أنه لاينقصنا شيء إلا بعض المرونة.. والخبرة في التعامل مع القطاع الخاص..!

ترى هل كان ارتياحنا من عدم دخول (أبو جابر) حرم المشروع ثانية في محله أم أن البديل كان أصعب...!!

* * *

– ٣ –

ليس غريبا أن يوافق الأستاذ رافع، فما أسهل أن يوافق ثم يسحب موافقته بطرق مختلفة وبالسرعة ذاتها.. لكنه هذه المرة، أعطى الدليل الحي على أنه حقاً يوافق على عدم إعطاء فرصة لابي جابر كي يدخل مرة أخرى في الجزء الثاني من المشروع وكان الدليل اسماً آخر اقترحه وأصر عليه وامتدحه. وقال: هو موظف كبير ولديه ورشات كثيرة وعمال وفنيون، يسجل العقد باسم أحد شركائه. والأستاذ نوري ابن دولة ويعرف مصلحة الدولة، ومصلحة القطاع العام والتعامل معه. يبقى أيسر من غيره من المتعهدين الذين يأتون إلى الملك العام فاتحين أشداقهم، يريدون أن يبتلعوا كل مالديه. أما نوري صديقنا وزميلنا، يستطيع

أن يقدر أكثر من غيره هذه الأمور ويمكن أن يسهل لنا مايمكن أن يعترضنا من صعوبات في هذا المشروع أو غيره. وتاريخه معنا يشهد بهذا فقد فعل مثل ذلك مرات حين كان مشرفاً علينا في مشروع «الشرشار». لم يقف ضدنا في أي عمل: كما قال لي.. أنت ياأستاذ حسان عملت هناك وتذكره دون شك!

*

وتذكرت الأستاذ نوري. شاهدته مرتين في مشروع المسيل الاصطناعي «الشرشار». في المرة الأولى كان بمفرده يرقب بصمت انعطاف الجدران وانزياح بعضها.

لم يكن قد حضر أحد إلى المشروع سواي، فقال كلمات جافة خجولة تعبر عن عدم رضاه لكن (أبو محمد) المراقب العتيق قال بعدها: لايهمك. ولاتصدق كلامه فهو (لايغش ولاينش!) عمري مارأيت مشرفاً هكذا!.. انظر إلى الناظر الذي يرسلونه للإشراف على العمل! يأتي يوم ويغيب أياماً. يحضر ساعة ويغيب الباقي ويردد دائماً: من الدولة إلى الدولة. هل تغش الدولة نفسها، كله دولة، (ومن الحبّ الجيبة)!!

في المرة الثانية: كان مع اللجنة التي حضرت لمعاينة مشكلة تجميع المياه ودخولها إلى الأبنية ويقف هو مُمثلاً للجهة المشرفة، والأستاذ عساف ممثلاً عن الجهة المنفذة، موقفاً لايحسدان عليه. كنت أتمنى ألا يختار الأستاذ رافع المتعهد مرة ثانية، ولكن

إصراره بعدم وجود البديل، وحرصنا على بدء العمل والاستفادة من الوقت، والتخلص من (أبو جابر)، كلها أسباب دفعتني المكوث، كما أن لين الأستاذ نوري ووظيفته تجعله أقل فظاظة، وربما أكثر استيعاباً وتفهماً، لاسيما أننا زملاء مهنة، ويفترض أن تحافظ على سمعتها، لكن لقائي به كان لمرة واحدة قبل توقيع العقد، وفي مكتب المدير، قال بلطف وبرود: أنا كما تعلمون موظف ولن أمر على الورشة إلا نادراً وسيتولى أمر تأمين المواد والإشراف عليها ومتابعتها معكم شريكي زاهر، وهو شاب متفهم للأعمال الهندسية، خبير بأمور الورشات، نعمل معاً منذ زمن طويل، أنا أثق به وبكم، عندي فكرة عنكم وأعطاني الأستاذ رافع معلومات وافية مُرضية، وإذا لزم أي أمر يمكنك الاتصال بي سواء في المكتب أو البيت، نحن من جهتنا لا مشاكل لدينا. والباقي عليكم، ولقد اطلعت على المخططات، والعقد الذي يعمل بموجبه (أبو جابر)، موافقون عليه كاملاً، سعراً وبنوداً وحقوقاً وواجبات.

* * *

- ٤ -

لم يكن زاهر زاهراً ولا مبرعماً، بل كان عقيماً عاقراً في كل شيء بدءاً من وجهه الكالح إلى نظرته اللئيمة، وحديثه الفج، وأنفه المرفوع بلا مبرر كاف.

فلم يمض وقت طويل على إبرام العقد معه، حتى بدأ بالتحايل والمماطلة واللف والدوران: جهزنا جزءاً من الاساسات بآلياتنا وعمالنا . لكن أخشابهم لم تصل وعمالهم لم يحضروا . مما جعل المطر الذي هطل بعد ذلك يحول الموقع إلى بركة من الماء والطين.

قال زاهر: تريدنا أن نصلب عمالنا في البرد والمطر، دون عمل هام... وهل تظن أن هذا يناسبنا. جهزوا لنا كلّ الأساسات ونحن ننجزها على الفور.

– نحن في أوائل الربيع والأمطار في هذه الفترة غزيرة ومتقطعة ومفاجئة فإذا كنتم ستنتظرون تجهيز الأساس بكامله. هذا معناه أنكم لن تباشروا قبل الصيف.

بعد إنذار موجه منا إلى المتعهد، مروراً بالأستاذ رافع عن طريق الأستاذ نوري، وبعد أن ردد نوري بعض ماقاله شريكه، وأمام إلحاح مدير الفرع ومسك نقته؛ استقدم ورشة صغيرة مؤلفة من نجار ومساعد واستوطنا الغرفة التي بنيناها لهما من البلوك مؤقتاً وغطيت بالتوتياء.

لكنهما كانا يحضران قليلاً ثم يغيبان، فنضطر ثانية أن نطلبهما عن طريق الأستاذ نوري وهكذا..

ولم يقتصر الأمر على هذا، فبعد أن أنجزت بعض أعمال الأساسات بدا أن زاهراً يتدخل في أمور كثيرة وبطريقته الفظة، فهو يحاول أن يدير دفة العمل كما يريد. وبما يتوافق مع إمكانياتهم المتواضعة في الوقت الحاضر. لأن مشاريع كثيرة أخرى لم ينته منها في محافظة أخرى.. فهو لايود المباشرة بالجدار الاستنادي الهام بالنسبة للمشروع والذي سيحمي الطريق الإسفلتية الداخلة إلى العمارة المكتظة. لأنه لايملك الآن الكثير من الخشب، ويفضل ان ينهي كل القواعد التي لاتحتاج إلا إلى بعض حجارة البلوك وبعض الأخشاب القصيرة المستهلكة. كما صار يطلب طلبات تعجيزية كأن يطلب الحديد المصنع لأجزاء من المبنى لايمكن تنفيذها الآن أو لأجزاء أخرى قبل تنفيذها بوقت طويل. كما صار يحتج على بعض التعديل في حديد التسليح لبعض القواعد. لأن استبدال الأقطار الكبيرة غير الموجودة والاستعاضة عنها بقضبان ذات أقطار صغيرة يجعل عدد القطع يزداد ويتطلب جهداً أكبر في أعمال التربيط والتثبيت، وبقة أعظم أثناء صب البيتون خاصة عند استخدام المضخة التي تعطي البيتون المجبول بضغط عال.

وحين احتج المدير على الأعمال المنجزة في هذا الجزء من المشروع قلت كلاماً فيه الكثير من الحدة، والكثير مما كان مكبوتاً

ومضغوطاً. وألمحت صراحة إلى مسؤولية مدير الفرع في الأعمال غير المنجزة عندنا وذلك لأن كل من يعمل لدينا من اختياره، وأنهم غير متجاوبين أبداً مع الشركة، بل يظنون أنهم بعلاقتهم مع رئيس الفرع يتجاوزون قيادة المشروع، وأنهم حين يراجعوننا بأمر كأنما يتفضلون علينا أو يشفقون. علمت بعدئذ أن حديثي كان قاسياً من رد الأستاذ رافع الذي ارتفع صوته كثيراً وتناول نوري وزاهر وسواهما بكلمات نابية وقال: أنتم المسؤولون أنا لا أعرف غيركم، لكم حرية التصرف كاملة، لكنكم أنتم المهملون، أنا لا أرى ابراهيم إلا في الفرع، من مكتب الى آخر، ماذا يعمل هنا؟! أنا ليس لي علاقة بهم إطلاقاً وإذا أردت اجلب غيرهم ويلعن....

– عفواً يا أستاذ بَعْدَ أن أكلوا خير المشروع، وانتهت الأساسات، من الذي سيغامر ويدخل الورشة ببقية أسعار؟ صحيح أننا أرهقنا بعض الأعمال ولم نصرفها ولكن العمل السهل والأكثر ربحاً انتهى، فمن أين آتيك بمتعهدين جدد..؟

*

بعد الذي جرى في المجلس الانتاجي على مرأى ومسمع جميع الحاضرين صرنا أكثر تشدداً مع زاهر وعماله، وزدنا من أمر ملاحقتهم، بعد أن اعتبرت أن الضوء الأخضر قد أعطي أو أخذناه نحن؟

ونتج عن ذلك خلافات ومشادات بين زاهر وابراهيم اللذين يتشابهان في صفات كثيرة أهمها ادعاء الفهم، قلة اللباقة في التعامل، الفوقية التي تظهر على حديثهما وتصرفاتهما. مما

اضطرني للتدخل مراراً ومن ثمّ إبقاء ابراهيم في الجزء الأول من المشروع. ويبدو أن الأستاذ رافع اقنع ابراهيم بهذا.. بعد لقاء بعيد عن أجواء الشركة والعمل..

لكن الوضع لم يتحسن. ولم تُطوَّر الورشة ولم تُمدّ بالاخشاب اللازمة لصب سقف القبو كاملا بل طلب زاهر صراحة أن نوافق على أن يتم صب السقف على مرحلتين رفضت هذا الأمر وأسمعتهم رفض الجهة المشرفة ومازاد الطين بلّة أننا رفعنا كتباً كثيرة إلى السيد المدير، تبين له حال الورشة وحال المتعهدين، وطردت زاهر من البراكة حين تطاول على الهندسة والمهندسين. واعتبر الأستاذ رافع هذا الإجراء إهانة له خاصة حين طلّبنا كي نسامحه وأن نسمح له بعدها بالالتزام. وحين نقلت إلى مكتبه نهاية دوام أحد الأيام كان عنده الأستاذ نوري وشريكه وكانا يتحدثان براحة تامة عن المشروع وعن قلة المساعدة، وعدم تأمين متطلبات العمل بسرعة وعدم التواجد وأشياء أخرى كانت تظهر من خلال تعليقات الأستاذ رافع الذي تحدث خلال المناقشات الحامية. ورأيت أن شرخاً بدأ يظهر بيني وبين الأستاذ رافع..؟ شرخاً أخذ يتوسع بسرعة لم تكن متوقعة. أما ابراهيم الذي ارتاح كثيراً لوجوده في ذلك الجزء من المشروع. فقد تفرغ لأعماله الخاصة وصار يسمع أخبار المشاكل مع زاهر ونوري فيما بعد باستمتاع.

وربما ساعد أيضاً على زيادة الشرخ أنه لازال يبحث بكل الوسائل الممكنة وعبر كل الوسائط اللازمة عن طريق يوصله الى (رئيس مشروع)..!!

* * *

الفصـــل الثــــالث

- ١ -

هل هي سخرية من سخريات القدر التي لاتحصى؟ أم هي نقطة انغلاق الدائرة التي بدأت بهما؟ كانا يجلسان متجاورين ضاحكين، حين رآياني ناست ضحكاتهما بل أمحت تماماً، وارتسم مكانها بسمتان شمعيتا لم تعمرا طويلاً. سلمت عليهما: الأستاذ عساف والآنسة هدى مرة أخرى وأخيرة. وسلمت على المدير الإداري الباسم أبداً: ربما ليبدد غيومه السوداء المزمنة والتي لاتمطر -إن أمطرت- إلا أرقام قرارات، وبيانات و(أصولاً) وتأمينات بلهجته الجبلية التي لم تتعرض إلى أي وهن أو تحور، رغم سكنه في المدينة الأهم منذ أكثر من عقد من الزمن. وتحسب -كما يقول أهل قريتنا - أنه مايزال يرعى الماعز والغنم في السفوح الحراجية الشائكة.

عرفناه حين ألقى محاضرة أثناء الدورة المركزية التحضيرية في بداية عهدنا مع الشركة. لم يطل الوقت كثيراً، ولم يتشعب الحديث الذي اقتصر على الأسئلة العادية الواهنة والإجابات المقتضبة. منها سؤال من الآنسة هدى عن أحوال والدي الصحية،

لكنه سؤال رش عليه قليل من الحزن وكثير من الإشفاق، أضاف الأستاذ عساف: فعلها الذي..؟

حسبت أنه يكلم الاستاذ كريم الرئيس المدير الإداري، حين نظرت إليه لأتابع الحديث رأيت عينيه في عيني وعينيها مفتوحتين وفمها أيضاً ؛ كانتا تبحثان في تفاصيل عناصر وجهي عن رد الفعل.

قلت من الذي فعلها؟ نظرا إلى بعضهما ثم إلى الأستاذ كريم ونظر الثلاثة نحوي وقالت: أما سمعت..؟ قلت متدهشاً: بماذا؟

مد الأستاذ كريم إلي يده بورقة مطبوعة دون أن يتكلم أي منهم. التهمت عيناي السطور الأولى.. حتى وصلت الى:

إن السيد المدير العام للشركة العامة للمشاريع الهندسية يأمر بمايلي:

- إنهاء العقود الموقعة مع المهندسين المذكورة أسماؤهم أدناه بدءا من تاريخه.

وكان اسمي الثاني بينهما . وتحمل تاريخ يوم أمس.

بقيت عيناي معلقتين في الكلمات زمنا «الاسم والقرار والتاريخ»، امتد سواد الكلمات، تشعب وانتشر حتى غطى الورقة كلها . وصار الظلام يهطل من وجه الأستاذ كريم ووجه عساف وعيني هدى. ظلام ملأ جو الغرفة حتى أحسست أني لا أرى شيئاً وكأنما أكاد أختنق.

صحيح ان حدسي يصدق أحياناً كثيرة، وصحيح أنني أمر الآن إلى هذا المكتب لاستفسر عن هذا الموضوع، وهل وصل من

الفرع أي شيء حوله..؟ لأن إشاعات بُثت وترددت أصداؤها علنية وسرية ولكن الحال هنا يختلف..

فأنا قادم إلى العاصمة لأزور والدي، الذي ينتظره مصير أسود.. أمس، وقّعتُ المهمة من الأستاذ رافع الذي تمنى الشفاء لوالدي والسلامة لي، لم يقل شيئاً آخر وليس غريباً أن يكون في عينيه ذلك الشيء الغامض الذي لايريح أبداً!! ومعاونه لم يكن طبيعياً لكنه لم يقل شيئاً زائداً عن مديره!

والمفاجأة كلها تكمن في سرعة اتخاذ القرار، والاستغراب والدهشة والتساؤل تأتي من الطريقة التي تدار بها الأمور؟ كيف يرسلني إلى الحفرة بيديه: الحفرة التي حفرها بيديه أيضاً؟ لماذا لم يقل لي ؟ أليس مديري؟ ولماذا يخشى من المواجهة؟! لماذا لم يبلغني الأمر عن طريق أحد ما في الفرع..؟ أبهذه البساطة يقذفني إلى الغور داعياً لي بالسلامة؟ من أين جاءته هذه القساوة والعدوانية والسادية؟

- فعلها ابن (....) النذل... الجبان...!

رفعت عيني عن الورقة /القرار كانا ينظران إلي نظرات يحاولان تحميلها الحزن والأسى، لكن نظراتهما لم تُظهر أكثر مما أظهرته في ذلك الصباح الخريفي الحائر من الترقب والحيادية واللامبالاة قالت هدى:

- الله لايوفقه؟ كيف عمل معنا؟ يحاول طرد كل من يظن أنه مع الأستاذ عساف، ومن لايطرده يعذبه ويضغط عليه ويضايقه كما فعل معي. إنه يلعب فينا كما يريد..

- الله يعطيكم العافية جميعاً! لم يقصر أحد منكم، وأنا من أية جماعة كنت يوم كنتُ مديراً؟ كلكم سابيون... سابيون .. ساديون..

وبعد أن سألت الأستاذ كريم عمن هو وراء هذه العملية: الإدارة العامة؟ أم رئيس الفرع. قال: ومن يعرفك في الإدارة العامة ومع من أنت مختلف فيها على الصعود أو الرزق..؟! ومن ينافسك؟! طبعاً جاءتنا الأسماء من هناك..

وخرجت مسرعاً دون أن أودع أحداً وفي رأسي أمر واحد فقط: كيف سأخبر والدي بالأمر.. وهل يحتمل ذلك؟ وماذا سيحصل بعدها..؟

*

درنا في شوارع العاصمة قال السائق الذي إلى جانبي: مابك يا أستاذ؟! ما الأخبار؟! هل هي سيئة؟ قلت: لاشيء... امش.

بعد قليل صرختُ: إلى أين أنت ذاهب..؟!

- إلى المستشفى يا أستاذ.. ألا نذهب إلى عند والدك؟!

- لا... لا... ليس الآن.. غير اتجاهك.. سنرتاح أولاً ثم نذهب إلى هناك.

وبلهجة بادية الانكسار: إني تعب.. ولا أريد أن يراني والدي على هذه الحال.

- إلى أين نذهب لنرتاح...؟!

- إلى أي مكان. اسمع؟ اذهب إلى القابون لعل روقاً في

غرفته، ثم بعدئذ إلى المستشفى.. أشعر بدوار عنيف.. نشرب المـ
هناك قد تريحني.. ثم نذهب فيما بعد...!

*

آه حسن غير موجود، رؤوف غير موجود وفياض وجمال كلهم في الامتحانات..؟ كل الناس في نوامهم.. مازلنا في فترة ماقبـ الظهر من يمكن أن يكون في بيته الآن.. حتى في القرية لايوجـ في مثل هذا الوقت إلا النساء والعجائز.. لابأس بهذه الحديقـ سأرمي بجسدي على هذا المقعد الخشبي.. الظل مقبول هنا.. و! أمل بالهواء في أي مكان آخر.. وهل يستطيع أي هواء إطفا جذوة النار في كل الأعضاء..؟!

– عفواً يا أستاذ.. هل هناك أمر مهم؟ خرجتَ من القسـ الإداري لا كما دخلت؛ وجهك مُسْوَدّ كأنما خارج من القبر.

– لا.. لاشيء. تعرف ظروف السفر والمرض والعمل..

– ماذا حول الإشاعات التي تتردد في الفرع.. حول تسر كثير من العناصر..؟ هل هي صحيحة؟ هل سيسرحو بعض السائقين؟

– السائقون.. لا اطمئن.. أنت في أمان.. ولكن هذا آخ مشوار معاً..؟

– آخر مشوار.. لماذا لاسمح الله؟

ـ أنا الآن خارج الشركة. أنا موجود معك الآن ولست أ

معي..؟ أتفهم؟ أنا ضعيف.. يمكنك تركه هنا، ويمكنك عدم إطاعتي، السيارة الآن تحت تصرفك أنا لست مسؤولاً عن شيء..

أنا الآن بلا عمل.. بلا عمل... ويجب أن نعود اليوم.. يجب أن تأخذ إليهم السيارة غداً، لايمكن أن تبقى معي ساعة واحدة بعد أن نعود. لكن المهم... كيف سأخبر والدي..؟ كيف سأواجههما والدي ووالدتي.

– لاتخبر أحداً يا أستاذ ولا تشغل بال أحد...

– أرجوك ياحسن لاتقل كلمة حول الموضوع.. والله إن يسمع به، مات على الفور. ولكن إلى متى؟ وهل ستنتهي حالته قريباً، من يدري؟ يمكن أن يبقى شهوراً أو سنوات؟ صحيح أن المصائب لاتأتي منفردة.!

أضع رأسي بين يدي أغمض عيني..

الله لايسامحك يا أستاذ رافع.. يارافع.. ألم يكن بإمكانك الانتظار بعض الوقت أو إخباري مقدماً.. العقد بيننا ينص على هذا.. يجب إعلام أي منا الآخر قبل أي أمر بشهر على الأقل.. لماذا تخفي عني هذه القصة؟ وحتى اللحظة الأخيرة؟ لو حدث وأخبرتني كنت بحثت عن مكان آخر أعمل فيه. صحيح أنه صعب جداً تأمين عمل في هذا الوقت، ولكن هذا أفضل من أن تتركني أسير على حافة الهاوية ثم تقذفني إليها. لم يبد عليك أنك على هذه الدرجة من الخسة، فعلتها مع عارف ولكن لم تكن واضحة، هكذا قلت: الرجل دارس على حساب وزارة أخرى تطالبنا به

وأرسلناه إليها. هكذا القانون! رغم أن عشرات المهندسين يعملون خارج إداراتهم الأصلية لو قبل عارف تلك المواد، كان مثل مثل هؤلاء.. ولا يرميه أحد بوردة. وأنت يا أستاذ معاون المدير أين اهتمامك وثقتك؟ قلت لي أمس؟ (لم أسمع بهذا.. أبداً) وسواء سمعت أم لم تسمع فهذا لايعفيك من المسؤولية: إذا سمعت ولم تقل لي فقد اشتركت في المؤامرة. أو جُبنت إلى درجة تدعو للتقزز. وإذا لم تسمع فلست سوى خيال، أو ظل، ولا معنى لوجودك أبداً.

ولا تعرف غير ملاحقة الأعمال والمواد والآليات. ويبدو أن الملاحقة استهوتك، فصرت ملحقاً بإدارة الفرع وقراراته وأوامره. ملحقاً أي لماذا لا أقولها صراحة؟! أنت تابع فقط، وإنها لمهزلة! كانوا يقولون ذلك وكنت أعارضهم أما الآن فماذا أقول لهم؟ سأعتذر عن غبائي وجبنك، سأبصق على التراخي واهتمامك، وأحتقر طاعتي وبلاهتك.. وماذا يفيد هذا؟ ماذا يفيد؟

أرفع رأسي.. حسن يتمدد على مقعد مقابل.. ويغط في النوم.. يغريني هذا المنظر .. أتمدد على مقعدي، أضع يدي تحت رأسي لأخفف من قساوة الخشب..

وحشية! كيف يحمل البشر هذه الوحشية؟ أبي يئوس وأسرتنا مشتتة وأنا ضائع بين العمل والبيت والمستشفى. كل هذا لايعني لك شيئاً يارافع بك؟! هل هي المصلحة العامة؟ هل المصلحة العامة قاسية وضارية إلى هذا الحد؟ وهل أنا مُضِرٌ إلى هذه الدرجة؟!

نحن ضمنياً لم نكن على وفاق.. هذا صحيح وأكيد؛ ولم أسايرك إلى آخر الخط. ولكن، أظن أنك تعلم وأنهم يعلمون أن ما فعلته كان من أجلكم من أجل الشركة من أجلنا.. من أجل المصلحة العامة.. تأخر العمل.. تباطأ قليلاً، نعم..؟ ولكن أن تتأخر المصلحة العامة، أفضل مليون مرة من أن تأتي وتؤكل! هل كان من المصلحة العامة استبدالُ ظافر بعارف ؟!وهل يكفي أن يكون من اختصاص عارف ذاته ليقوم مقامه؟! نحن نعرف ظافراً وجميع من في الفرع يعرفونه. وصار كل من في الشركة يعرفه وماذا كانت النتيجة؟ والمباراة لم تنته بعد، بل مازالت في شوطها الأول. ومنذ شغلة المكتب، تباطأت أعمال الصحية، وتوقفت إلى أن صدر قرار بإعادتها إلى رؤساء المشاريع، كي يتفرغ ظافر لأعمال التدفئة والتكييف التي أُنجزت وتنجز بسرعة قياسية بعد أن توقفت أو كادت أيام الأستاذ عارف. وظافر لايعرف أحداً، ليس لديه وقت أو رغبة بالتحدث إلى أحد. أبو بديع قالها صراحة حين جاء شاكياً إلى معاون المدير والمدير:

– أمس كانت مناوبة الأستاذ ظافر. أحضر (فروجين) ونقلني إلى مشروع السكن إلى عند (أبو يوسف وأبو محمود) كي نتناول العشاء هناك. قلت: يا أستاذ الله يكثر خيرك تعشيت، قال: لا لايمكن! مشاويكم عليّ أنا هذا اليوم.. وقد أحضرته لكم أما المشروع فلا تخف عليه أنا سأقعد فيه إلى أن تنتهوا. وذهبت: عندي الله ورسوله، أعادني بعد ساعتين.. لم أقل شيئاً. صباح

هذا اليوم سألني الأستاذ أسعد عن مضخة الماء الصغيرة التي كانت أمام البراكة. أنا متأكد أنها كانت هنا أمس لكنها اختفت. اتُّهمت بها وأنا بريء براءة الذيب من دم يوسف... ثم اختفت أشياء كثيرة أخرى.. لي عشر سنين في هذه الشركة حارساً؛ لم توجه لي كلمة واحدة. أو أي تنبيه. أنا الوحيد الذي لا أنام إطلاقاً من بين كل الحراس، أكاد أجن! أنا لم أتعود على هذه التهمة، صحيفتي بيضاء.. لم يحدث شيء إلا يوم مناوبة الأستاذ ظافر وذلك العشاء الذي أرجو لو كان سماً ومت لكان ذلك أفضل. طبعاً لم تصدقوه، وقوم بكل الأنواع... وماذا نفعل (المصلحة العامة أولا)...!!

– (اوف) ماهذا الحر..؟ هل تشرب شيئاً بارداً يا أستاذ؟

– أشرب؟! لا.. شربت كثيرا، شربت إلى درجة السكر، شراباً يكفيني سنين طويلة قاتمة قادمة، اذهب أنت ودعني قليلاً ربما غفوت؟

أتابعه بنظراتي وهو يمشي بحيوية كأنها جديدة طارئة..؟!

اشربْ بارداً وانتعش. فقد ارتحتَ من كابوس مقيم، من يدري؟ فقد تعمل عند رئيس مشروع أفضل، أو رئيس قسم أحسن وأكرم.

[الأستاذ حسان طيب وعلى عيني وراسي، ولكن حامل السلم بالعرض، إنه لايرحمنا ولايترك رحمة الله تنزل علينا! حتى ثلاثة

مصابيح أعادها من (التابلو) مع كلام قاس لي ولأمين المستودع. قلت له: هو أعطاني.. اثنان لك وواحد لي.. ليس هذا فقط، حتى خيش يا عالَمْ.. خيش وماقيمة الخيش؟ أنزله بيديه من السيارة، قلت: إنه بقي من عَزل جدران وأرضية القبو ولاحاجة إليه! قال: أعلم وقد نحتاج إليه وصار وجهي في الأرض، ماسكها من ذنبها، لولا أنه هو الذي عينني لتركته وطلبت نقلي من عنده].

الآن صرتَ حراً.. اذهب إلى حيث تشاء، واستمطر رحمة الله التي لن تخطئك بعد الآن!

لو لم أكن أعرفك قبلاً وطلب مني والداك مرات عديدة أن أتدبر أمرك عندنا في الفرع، لكنت طردتك من زمن ولكن تحملت ثرثراتك وتدخلاتك التي لاتستساغ، وآراءك التي تحاول إمرارها بفجاجة..؟ كرمى لوالديك وليس لك، حلفتُ مرات أنك إن عدتها سأتخلص منك، أو أعاقبك على أقل تقدير، لكنك تعلم نقطة ضعفي، فأنا أحترم من يعمل معي وأتحمل سيئاته حتى آخر لحظة. ووالداي يتدخلان.. و (قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق)؟ (الماعون الواسع يسع الماعون الضيق).. وماذا سيقول عنا الناس، لايابلدي، أوصه ونبهه وعنّفهُ ولاتعاقبه، ولد ويكبر وطول بالك عليه، وهذا أفضل من الغريب (زيوان بلد ولاحنطة جلب)؟

الآن يمكنك أن تذهب حيث تشاء، وسترى من تظن أنه سيرحمك كيف يفهم هذه القضية. اشرب وانتعش ونَدَّمْنا وافرحْ

ولاداعي لهذه التمثيلية وهذه الكآبة المرسومة والتي يمكن إتقانها بسهولة على وجهك الداكن!

هاهو يشرب وينظر اليَّ من بعيد يشرب كأنما يشرب خمراً.. أو يفكر بشيء ما. [مسكين يا أستاذ حسان، أنت لاتستاهل كل هذا.. مرض وسرطان وتسريح لا... هذا كثير! لو كان واحد غيرك لقلت له (خَرْجك)! والله لايرلك، و (اللي مابيشوف من الغربال، الأعمى خير منه)، شغل... شغل.. كاد يجنني، لايتركني أرتاح لحظة واحدة: اذهب إلى الفرع.. إلى المستودع، إلى قسم الإنتاج إلى الخدمات الفنية، إلى البلدية إلى... هذه سيارة رئيس مشروع، وليست سيارة خدمة، ليست لنقل الأغراض: الحديد، الاسمنت، الصحية، الكهربائية.. هناك سيارة خدمة، ويقول: لاتكفي، وهل تراها واقفة..؟ عجيبة من أين يخلق الشغل؟ ومع هذا لامكافآت ولا إضافة! حتى الإجازات صعب الحصول عليها منه، حتى ينتهي صب السطح، حتى ينتهي الحفر... حتى تصلح سيارة الخدمة.. عينُني، على عيني ورأسي ماقلنا شيء، لكن أن يسخرني إلى هذا الحد؟ وهل أنا عبده، زملائي في المشاريع الأخرى لايداومون. رؤساء المشاريع فقط مسؤولون عنهم ولا أحد يسأل عنهم أبداً والأستاذ حسان يسوق السيارة جيداً – طبعاً أنا علمته لأرتاح – فلماذا هذا الحرص الزائد، حتى ونحن عائدان من الشام، لايدعني آخذ شيئاً عن الطريق أقول: زملائي يطلبون

من الله أن يحصلوا على مهمة الى دمشق؟ فلماذا أنت هكذا؟ يقول: إذا أوقفنا أحد أنا الذي أسأل وليس أنت، يخاف أي.. والله لا أدري.. حيرني هذا الأستاذ.. يعطيني السيارة متى أريد.. لكن حرصه غريب... لولا المعرفة لكنت أول الشامتين.. ماذا لقيتَ من التزامك وانضباطك وحرصك؟ ماذا ستأخذ معك الآن؟ وفي أية حال أنت.. صرت ضيفاً بعد أن كنت رئيسي، والآن يمكنني أن أتركك وأذهب! يمكن أن أدعك هنا مرمياً على هذا المقعد العتيق! وأعود إلى القرية، أو أذهب حيث أريد. لكن لا.. بيننا خبز وملح. وإن كنتَ قد قطعت كثيراً من نصيبي. كما أن (أبو حسان) لايهون علي كان يحترمني..!!

كلها يوم واحد.. نتحمل ... ونرى..!

ولكن إلى أين سأذهب غداً.. إلى أي مشروع أوقسم؟ لايوجد أفضل من الإمداد.. مهماته كثيرة وسفرياته أكثر. أو المبايعات! يمكن أن يستفيد الواحد منهما أكثر من غيرهما.. لكن من سيضمن لي ذلك.. آه.. حكمت .. علاقته جيدة مع رئيس الفرع. صار في الإمداد.. قال كثرت الأقاويل فنقلوه إلى الإمداد: من حسن إلى أحسن، من التمر إلى العسل.. هو يعرفني.. أوصلته مرات كثيرة في سيارة الأستاذ حسان.. وقد حرضني عليه وقال: ماذا يعطيك حسان؟! بعد كل هذا التعب. ولايعطيك لا مكافأة ولا إضافة ولا إجازة. غير معقول لماذا لاتأتي إلى عندي. هنا لن تندم.

كنت أتمنى ذلك وأنتظر فرصة مناسبة لأطلب من الأستاذ حسان هذا. ولكن مرض والده منعني سأذهب إلى هكمت غداً.. لماذا غداً؟! اليوم مساء سأخبره بأني جاهز للانتقال. وأنت يا أستاذ حسان... الله يرحمك.. إيه (ماحدا بياخذ معه شي)].

* * *

- ٢ -

رجب العلي هو الاسم الذي سبق اسمي في ذلك القرار المشؤوم، ولم يكن ليعزيني. لأنه أصبح أكثر قدرة على الفهم، وجعل الصورة أقرب إلى الوضوح، بالأمس كان دور عارف بلول واليوم دورنا نحن الاثنين رجب العلي وأنا..

حين بدأت العمل في الفرع كان الأستاذ رجب العلي عنصراً مهماً فيه وكان رئيس مشروع سكني ضخم، وبعض الإشكالات التي حدثت في المشروع خلال مدة تنفيذه التي امتدت سنوات، لم يكن له فيها يد مباشرة بل يعود ذلك - وإن كان هذا لايعفيه من المسؤولية الأدبية والرسمية - إلى حُمى الربح والسرعة، وقطع المراحل الزمنية، والمنافسة مع المشاريع الأخرى، والخطط المبالغ فيها التي كانت توضع في أشهر الصيف خاصة في شهر الانتاج السنوي، مع ماينضوي تحت كل هذا من نقص في السقاية

وسرعة في القياسات ونقص في الدقة وضعف في المراقبة وأعمال الصب المعمومة. كل هذه الأمور، والتي تكاد تكون سمة عامة في أشهر الانتاج، ساعدت على تزايد تلك المشكلات والتوقيفات وإظهارها عند التسليم ثغرات يجب الوقوف عندها. في حين مرت أعمال أخرى أقطع وأسوأ دون أن تأخذ من الإدارة أي اهتمام أو انتباه..

أما استلامه للجنة المبايعات في الفرع فقد كان له أسبابه الخاصة الكثيرة.. منها مايتعلق بوضع عام في الفرع، حيث لم يعرض على الشركة أي مشروع جديد بعد مشروع الصالات حيث ازدادت عزلة الفرع وقلت الثقة بإدارته وتنفيذه.

وقد أصبح الأستاذ رجب بلا عمل بعد تسليم مشروعه للجهة المستفيدة، ولاتوجد حاجة في أي مشروع آخر إلى مهندسين آخرين. وأسباب أخرى تتعلق بالأستاذ رافع مباشرة، فبعد ازدياد النقمة على حكمت وجد نفسه مضطراً لتغييره، ولكي يزيد من النواحي الإيجابية لعمله هذا، فقد لاقى في تعيين الأستاذ رجب ذي السمعة الحسنة والالتزام المقدر والفراغ من العمل.. الحل الأمثل. وهذا ماكان.

لكن الأستاذ رجب وبعد أن استلم اللجنة رسمياً قرر بينه وبين نفسه أن يواجه التحدي الذاتي الذي يمثله هذا المنصب، والذي لم يسلم منه أحد من قبل كلاماً واتهاماً وتساؤلاً.. وإن كان كل هذا بقي هامشياً وكلاماً في الهواء.

كما أن رجب يعرف تمام المعرفة الظروف التي حملته إلى هذه المسؤولية؛ فهي ليست ثقة المدير به ولا ارتياحه له ولا رغبته في أن يستفيد من ذلك. لهذا فقد وضع نصب عينيه أن يكون استثناء قد لا يتكرر. وأقسم أن لا يجامل أحداً أو يتعامل مع أحد خارج أسس العمل، وإن كان هذا الأحد الأستاذ رافع نفسه.

ولم تمض أيام قليلة، حتى ظهر هذا للمدير، حين رفض رجب تسليم سلف لأي كان، ورفض أن يسلم أيا من صلاحياته لأحد.. وأنكر أن يتدخل أحد في تفاصيل عمله. وهذا ما أزعج «مجموعة المستفيدين» من الوضع الذي كان قائماً في الفرع، وحملهم على نقل اتهامات واحتجاجات واعتراضات قليلها صحيح وكثيرها مفتعل إلى الأستاذ رافع الذي كان ينتظر مثل هذا. وقال كلاماً كثيراً – في غياب الأستاذ رجب طبعاً – حول تقصيره في إحضار المواد، وتعثره في إيجاد مواد محددة وهذا ناجم عن تغييره غير المبرر لأماكن الشراء. والتعامل مع تجار جدد ليسوا في مستوى الذين كنا نتعامل معهم، لا من حيث القوة التجارية ولا من حيث القدرة على توريد المواد المطلوبة ولا من حيث التساهل في الدفع.

أما الأستاذ رجب فقد أوضح مراراً أنه سيلغي أية علاقة له بمن سبقوه. وبما رسموه من دروب أو طرق معاملة. وسيبتعد تماماً عن أي تاجر قديم كان يتعامل مع الفرع. كما أنه أصر على أن لا يشتري بقيمة ليرة واحدة دَيناً. ولهذا بقي الفرع فترات من الوقت خالياً من مادة ضرورية أو أكثر.

وهذا مازاد من إشعال المعركة ضده. وزاد من سرعة اتخاذ القرار السري وإرساله إلى المديرية العامة في دمشق قبل انتهاء مدة الستة أشهر المحددة لهذا المنصب، وهذا ماجعل اسمه يتقدم اسمي في ذلك القرار الأسود. والذي اتخذ بناء على المصلحة العامة فحسب...!!

* * *

– ٣ –

– كيف حالك الآن ياأبي؟

– الحمد لله ياحسان.. الحمد لله.!

هل تشعر بتحسن؟ هل هناك آلام ؟ كيف حالك ياأمي؟

أقبل يده وأضعها على رأسي: الحمد لله أشعر أني أستطيع الركض حتى المرجة لكن الأكل هو الذي يزعجني. لا أستطيع أن أبلع الطعام...

– كيف حالك ياابني أنا الحمد لله كما ترى المهم أن يشفى أبوك ويبقوا لنا.

– بسيطة كل شيء سينتهي يا أبي وماذا عن الدواء والأشعة؟

– أنواع متعددة من الدواء والأشعة أيضاً. لكن أشعر أن هذه الأشعة تؤلمني. أحياناً أحس وجعاً في صدري وهذه السعلة اللعينة، لا أدري من أين أتت؟ ألا يكفي مابنا.. وهل هذا وقت الرشح؟

– هون عليك ياوالدي أنت مؤمن وصبور. فقط اصبر وتحمل.. والله مع الصابرين.

قلت ذلك وأدرت وجهي الى الخارج.

– لاتظن أني أخاف.. ولكن أرى أنك أنت الخائف.. ماذا هناك ياحسان؟

– لاشيء يا أبي.. لكن السفر متعب. أنت ترى أننا وصلنا للتو، والطقس حار.

– كيف الضيعة والأقارب.. والله أتمنى أن لايتعبوا أنفسهم ويأتوا ليس الأمر سهلاً عليهم. أرجوك أن تقول لهم ذلك. والله لست عاتباً على أحد منهم وأعرف قدري عندهم. وأقرباؤنا وأصحابنا هنا يكفون.. ولايقصرون في شيء.

– الجميع بخير يسلمون عليكم ويتمنون أن تقوم بالسلامة وتعود إليهم؟

– إيه أقوم.. إن شاء الله يابني لكن أنا قلق عليكم، تعطلون أعمالكم وأخوك في وقت صعب، وأمك وأختك وأخوك لم يتعودوا على جو المستشفى والمدينة. وأخجل من إقامة أخيك وأختك في بيت قريبنا (أبو عيسى) ذهبا معه قبل قليل.

– ماهذا الكلام يا (أبو حسان)؟! أنت عندنا بالدنيا كلها أتمنى أن أكون مكانك مالنا أحد غيرك.. المهم أن تعود سندنا وظهرنا. وفداك كل شيء.

– البركة بأولادك يا أم حسان ماشاء الله كل الناس تتحدث عن حسان وإخوته كبروا لاتخشي شيئاً ماداموا موجودين! وأنا لا أخاف عليك من بعدي فهم يهتمون بك ويحترمونك وخاصة حسان. تعرفين؛ والله لو أموت لا أخشى شيئاً. فقد أديت الأمانة وحسان يصرف علينا من راتبه منذ سنوات ويمكن أن يدير باله على إخوته وعليك.. إضافة إلى الزيتون والأرض التي استصلحناها.. أتتذكرين ياسمية؟ كم تعبنا وشقينا أنا وأنت. إيه يادنيا أين أنت ياشهر الثين! ياشهر السنديان! والله تحملت معي الكثير ولكن لا أخاف عليك.. أولادك رجال ويمكن أن أعتمد عليهم وتعتمدي أنت كذلك.

– ماهذا الكلام يا (أبو حسان) بعيد الشر. مازلت فوق رؤوسنا. كلها أيام وتعود إلى بيتك إلى بيتنا الذي بنيناه سوية بيتنا الثالث الذي بنيناه. ستعود.. هكذا قال الدكتور أما سمعته..؟!

– أنا قابلت الدكتور قبل أن أدخل إليكما قال: الوضع جيد وفيه تحسن بطيء وإن شاء الله ستعود بعد أيام بعد أن تنتهي جلسات الأشعة المهم أن تداوم على الدواء وترتاح. أما من جهتنا فلا تفكر . أمورنا ماشية والحمد لله أخواي يدرسان وحالهما ماشية. المهم أن ترتاح أنت وتنفذ أوامر الأطباء.

(أمورنا تمام..!! كيف سأخبرك أني الآن خارج الوظيفة؟

الراتب الذي يعد البيت، والذي يتحمل كل النفقات في غياب إنتاج الأرض، لم يعد موجوداً.. وتلك الكتلة اللعينة لازالت تستعصي على الدواء، وهذه الأشعة تخرب كل الخلايا التي تصادفها، ولاتفرق بين سليمة أو مصابة، لهذا يؤلك صدرك..؟ وهي التي سببت السعال.. هذا ليس رشحاً بل من تخريب الأشعة لمجاري التنفس، لهذا هي جافة.. ومن أين سيأتي القشع..؟

ياالله ماهذا الذي يجري.. ماذا لو علم أبي بحالي الآن؟! ربما أصابته سكتة قلبية أودت بحياته.. وماذا في الأمر، أليست السكتة أهون من الذوبان والاضمحلال البطيء؟ وانتظار النهاية التي قد تطول ويطول عذابه وعذابنا؟ ولكن لن أخبره الآن.

ستولول امي وتزداد حالة أبي تعقيداً ومن أهدي، أنا بل من يهدئني..؟)

– حسان.. مابك ياحسان بالله عليك هل قال لك الدكتور شيئاً؟! هل مرضي صعب؟ قل أنا لا أخاف.. أنا أعلم أنه خطير وأنكم تخفون عني الأمر والله لا أخاف..

– لا ياأبي مرضك بسيط جداً، وأنت قلت من نفسك أنك لاتشعر بالألم ويمكنك الركض حتى المرجة. هل هذه حالة من مرضه صعب وخطير؟ إنما أنا تعبان جداً من السفر والحر الشديد في الخارج، هنا لاتشعرون به، فالغرفة مكيفة، أما على الطريق فجهنم حقيقية، وقفنا مرتين وأضفنا ماء للسيارة التي كادت تشتعل.

– أترى ياولدي.. لولا هذه السيارة كنتم ستتعذبون كثيراً كم مرة جئتم وذهبتم كيف كنتم ستتصرفون وأمك وأخوتك. الله لاينسى أحداً ؟! الله يكثر خير الأوادم ويوفق مديركم الذي يعطيك مهمات متتالية على الرغم من العمل والمشروع..؟ والله يوفق حسن العبد الذي يتعب معنا ايضاً.

– نعم ياأبي.. الناس تعرف عند المواقف الحرجة، وليس كل الناس يقدرون المواقف ويقدرون ظروف الآخرين.. وأحوالهم ولكن حظنا جميل والحمد لله، وفي المشروع العمل ماشي فهناك الأستاذ ابراهيم، أنت تعرفه، رأيته في البراكة حين راجعت الطبيب أول مرة وسلم عليك.. ثم إنه لاتوجد مشكلة فالخطة موضوعة لأيام قادمة وليس عليهم إلا أن ينفذوا.

(نعم.. حظنا كبير.. فالأستاذ رافع يقدر المواقف.. يقدرها جيداً ويحسبها بدقة لولا هذا ما اختار هذه الفترة، هذه الفترة بالذات)!!

– ابن حلال الأستاذ ابراهيم هذا لمست منه احتراماً ولاحظت انه يحترمك أيضاً لولا ذلك ماكان اهتم بي وأظهر كل هذا الود.

– كل الناس خير وبركة ماخلت الدنيا من أولاد الحلال (لو خليت لخربت)..!!

(كلهم أوادم.. الأستاذ عساف، والأستاذ رافع، والأستاذ

ابراهيم، والآنسه هدى و... كلهم لوادم وهذا السائق حسن العمد الذي ينظر متصنعاً الكآبة والحزن؛ لكن عينيه تضحكان. إنه يود لو يقول لأبي، يود لو يستطيع أن يخبره ليرى النتائج! يتمنى أن يرى الحزن عاماً.. ينقل أخبار السوء مسافة ألف ميل.. لايترك شاردة ولاواردة! وأي خلاف لو كان بين رجل وزوجته ، أو بين رجل وأولاده، يحمله وينقله بشهية ويزيد عليه. أخبار السوء فقط هي التي تهمه؛ أما الأخبار السعيدة فلا ينقلها إلا بما تحمله من ظنون ومشاكل أو إشاعات أو ما رافقها من شك أو اشتباك أو حرد.. إنه يتمنى أن يخلو له الجو قليلاً ليخبر أبي.. أنا لاآمن أن أتركه في هذه الغرفة مع والدي وحيداً، سيخلق حديثاً ليتكلم بل ربما يتكلم وأنا موجود. ولا أعتقد انه يستطيع أن يضبط أعصابه ويخفي غبطته.)

قال ضاحكاً..

- ولو يا (أبو حسان) أنت شيخ الشباب وجهك أحمر مثل الورد. بعد أيام تقوم ولن يبقى بك أي مرض. الدكتور قال ذلك لحسان، وكنت معه! ثم من عنده مثل هذه الشمعة هل يخاف من شيء؟! الأستاذ حسان قدّ حاله ويقدر أن يسلك مع كل الناس وهو شريف.. وإن شاء الله لايرى إلا مايرضيه.

نظر صوبي بشماته.. وضحك بلا تصنع.. وإن أراد إقناعي انه كذلك..

- الله يبارك فيك يا ابني؛ أنت تتعب معنا وتتعذب من القرية

إلى الشام، ومن الشام إلى القرية ولكن أنت شهم وابن حلال ولن يضيع شيء عند الله. وحسان يحبك ويحترمك كثيراً ويثق بك وهو لن يضيع لك هذا أبداً.

– تكرم ياعمي. أنت والأستاذ تستحقان كل خير، وأنا أرد بعض جمائل الأستاذ حسان ولن نقدر أن نكافئه! إذا كان الغريب يحترمه ولا يرد له طلبا فهل لي منة أنا قريبه وجاره؟! لا.. لاتفكر في هذا أبداً ياعمي.. لاتفكر إلا في نفسك وكلنا في خدمتك.

– ماذا تريد من السوق يا أبي؟ أو أنت يا أمي؟ ماذا أكلتم؟! سأذهب أنا ومحسن ونجلب لكما معنا بعض الأغراض.. قولا ماذا تريدان قبل أن نعود لأننا سنسافر مساء..

– اليوم سترجعون لماذا..؟ هل هناك أمر مهم.. ؟ أنت لاتعجبني ياحسان أنت تخفي عني شيئاً قل ياولدي! كنت تبقى هنا يومين وأحياناً ثلاثة لماذا ستعود اليوم إذن..؟

– غداً سأصب سطحاً، وهو سطح مهم، وفيه الأمور معقدة قليلاً، ويجب أن أكون فوق رؤوسهم أخبرتك ياوالدي قبلاً صب السطح هو أهم الأعمال، فيه كميات كبيرة من الحديد والاسمنت وأي خلل في الجبل أو التركيب يسبب كارثة. ولا أريد أن يتم الأمر إلاّ بحضوري.. ولايمكن أن يؤجل لأننا سنحله في كشف هذا الشهر.

– ولكننا لم نرك كفاية ياولدي.

- لا بأس ياأمي سأعود بعد يومين المهم أن تخبراني الآن عما تحتاجون ، لنجلبه لكم قبل أن نعود. وسأستفسر عن الدواء وعن الأكل المناسب لك ياأبي من الدكتور، سأمر عليه ونتفق وأخبركما .

- الله معك كيفما أدرت وجهك.

يلفظانها معاً وبنبرة واحدة متوسلة.. أنزلتُ دموعي حين كنت أخرج من باب الغرفة مسرعاً قبل أن يلحظا ذلك فيزداد الشك. وأقع في ورطة الإفصــاح التي لايعلم إلا الله مــاذا ســتكون نتيجتها ..؟

* * *

- ٤ -

أضواء القرية لاتني تشع نوراً أصــفر شــاحــبــاً أو أبيض لامبالياً، كلما نثرتْ ضوءها . وقد انغرزت في ناظري وأنا أطيل التحديق إليها ، من هذا المكان الخالي من الحركة والحياة. والقمر يوالي تدرجه السفح المقابل مصراً على إكمال مشواره، موزعاً ضوءه في كل اتجاه. لكن هذه القمة تستقبل أكبر حزْمة منه، فتبدو الأشجار حولي أشباحاً واقفة صامتة عابدة. بينما تبدو السفوح الأخرى المقابلة ضائعة تحت ستـار شـمـعي تُكسِّرُ نَمَّهُ الأنوار المستحدثةُ إلى قطع غير متناسقة، فتظهر أشكال مجسمةً لحيوانات مفترسة مفزعة ، أو لأشباح خرافية، أو لمردة هائلة الحجم ، غريبةِ التفاصيل، حاقدة النظرات، بطيئة الحركة، متعثرة الخطى.

هو الخوف يعود يهزني بقبضاته القوية. ماذا تفعل هنا الى هذا الوقت المتأخر من المساء؟ كيف تجرأت على التعدي أو استطعت النسيان والتجاهل؟

حقاً منذ متى أبقى بعيداً عن البيوت والقرية والناس إلى هذا الوقت؟! لم أعبر هذه الجبال وحيداً مرة واحدة! عبرنا مرات قليلة وكنا خمسة أو أكثر. وكان لصراخنا وصياحنا وضحكاتنا جلبة تخيف ما يُفْتَرَضُ وجوده من حيوانات أو وحوش أكثرها احتمالاً وإخافةً الضباع.

إن مجرد تذكري أني وحيد هنا يجعل الخوف مضاعفاً، ويسمرني في وضعي مستلقياً على الظهر واضعاً رأسي على كفيّ المتشابكتين على جذع الصنوبرة الداقي.

أشعر الآن برعب حقيقي، رعب متجذر في خلاياي متصل منذ آلاف السنين الضوئية، أتمنى لو أستطيع النوم، لو يُغمى عني، لو يطلع الصباح الآن، أتمنى أن أفر من هذي اللحظة إلى البيت الخالي ولا بأس بكوابيسه! إلى الناس المحايدين الغارقين في الحكايات والمسلسلات والأخبار والورق. واستغراق النظر أو الكلام أو الفعل...

أنا خائف الآن.. خائف حتى انعدام القدرة على تحريك أي عضو مني. أو النظر إلى الجوانب أو اكتشاف مابجواري.

أنا لاأسمع حركة! هل أنا أصم؟ أنا لا أرى شيئاً! هل أنا أعمى؟ أم أني أغمضت عيني..؟

ليته سباتٌ ليلي، سبات صيفي..؟! سبات دهري..؟!

بدأ صوت بعيد يقترب من أذني، صوت خافت يزداد. صفير أو طنين أو صرير، بدأ حاداً.. هو الآن أكثر وضوحاً و أكثر تضخماً. ملأ أذني، ملأ حواسي، ملأ كل مسامات جسدي كأني في مطحنة أو معصَرة. أو كأن زلزالاً عنيفاً يضرب الأرض هنا.. صوتٌ أكثر استسلاماً وتسليماً. أحسست أني أتلاشى أو أني في آخر مرحلة الانقلاب من الوجود بعد ما ضاع كل رباط معه، ضاع كل شيء.. كل شيء..!

لكنّ همساً بدأ ينفذ، همسة يهطل شفافاً ناعماً رقيقاً: نداءً خافت بعيد، نداء مبهم غامض. هل هو صوت آدمي، أم هبة نسيم صيفي أو حركة شبح بعيد يقترب..؟

شفتان غليظتان ارتسمتا في القبة البعيدة، أنف كسيّار صخري، عينان كبيرتان غائمتان: وتتابعت عناصر وجه أليف، وجه غاب من سنين طويلة طويلة ملأ الفضاء أمامي والاتجاهات والأمداء. وكان وجه برهوم العجي.. وكان همسه:

«تعال ياحسان.. حسان.. سان.. ان... ان... ن.. نحن لسنا من متاع هذه الخربة.. خربة... ربه...به.... تعال معي إلى المصلبة العتيقة... عتيقة... تيقة... تيقة... قه...قه...قه»

وامتدت يدان كقوسي قزح،
مددت يدي إليه
وبقينا معلّقتين في فضاء غامض..!!

* * *

خريف عام ١٩٩٠

Bibliothèque-Discothèque
COURONNES
66, Rue des Couronnes

الفهرس

الإهداء ٥

القسم الأول

الفصل الأول ٩
الفصل الثاني ٢٣
الفصل الثالث ٨٣
الفصل الرابع ١١١
الفصل الخامس ١٢٩
الفصل السادس ١٣٥

القسم الثاني

الفصل الأول ١٥١
الفصل الثاني ١٦٩
الفصل الثالث ١٨٥

القسم الثالث

الفصل الأول ٢٢٧
الفصل الثاني ٢٣٩

القسم الرابع

الفصل الأول ٢٦٧
الفصل الثاني ٢٨٧
الفصل الثالث ٣١٣